لوحة الغلاف



بيت من النوبه

تصوير : عبد الفتاح عيد

تراث غريب هذا الذى حفظه التصوير الفوتوغرافي من قلب النوبة الغريق .. سيظل يذكرنا بأن شعبا سكن هذه الارض وأودع جدران مساكنها التى غيبها النهر ابداعا مذهلا كأروع مافاض به وجدان الشعوب .. تكمن عبقرية المرأة النوبية في فنون التشكيل .. لا ترضي لبيتها أن يكون مجرد مسكن وانما هى تريده سكنا تشيع فيه الالفة والفن .. هى التى تحرص على تزيين جدرانه ومداخله بزخارفها الرائعة وهى التى تضفى عليه رهافة حسها ... لكل بيت ذاتيته الخاصة تشع من روح الفنانة التى ابدعت تصويره .

ولوحة الغلاف تمثل بيتا زينت مداخله الرائعة فتاة من بنات شعب النوبة وهو نموذج من بيوت لا حصر لها حرص المصور المبدع عبد الفتاح عيد على تسجيلها ...

ان مجموعات عبد الفتاح عيد عن النوبة والواحات وآثار مصر والطبيعة المصرية والفنون التشكيلية هى من أروع ما يمكن أن نقدمه للعالم كصور من حضارتنا ومن حياتنا .. ما أجدرها بأن تصدر كتبا تصاحبها نصوص أدبية معبرة عن روح مصر .

هل لنا أن ننتظر من وزرة الثقافة تحقيق هذا الامل ؟



الغلاف الخلفي

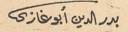
نظمت وزارة الثقافة خلال الشهر الماضي معرضا للتصوير الفوتوغرافي الدولى شارك فيه الاتحاد السوفيتى وفرنسا والهند واليابان والنمسا .ايطاليا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الديموقراطية ورومانيا ويوغوسلافيا ومصر .

الاحساس العام الذى نخلص به من هذا المعرض هو أن فن التصوير الفوتوغرافي يؤكد نفسه كتعبير خلاق وأن الصورة الفوتوغرافية لا تقف عند مجرد التسجيل وبراعة الافادة من الظلال والاضواء وانما هى تحمل وجهة نظر كل مصور وذكاؤه الفنى وقدرته على أن يجمع المرئيات في تكوينات معبرة وأن يسجل من خلالها لحظات خلاقة .

ولوحة الغلاف الخلفى « بالية السنغال القومى » للفنان الألمانى تازيلوليهر نموذج من الأعمال الرائعة التى قدمها هذا المعرض .

باليه السنغال القومى

معرض التصوير الفوتوغرافى الدولى



بدر الدين أبو غازى

تقديم هذا العدد

يحيى حقي

ما الذى يغرى انسانا أن يقحم على الناس نفسه ليعرض عليهم بعض ما يدور فى رأسه ويقول أنا فنان .. لا مبرر له الا اذا بلغ فنه هذا درجة من النضج ـ لا نجدها فى أنفسنا ـ تحملنا على الانصات له والانتفاع والاستمتاع به ، فلا فن ان لم يكن وليد هذا النضج ،نضج العقل والروح والصنعة معا ، فالفن يتعالى عن الفجاجة وأمشاق التمرينات وعثرات الحبو ، انه يتطلب بلا حياء امجاد الرفعة والكبرياء ، فاذا بلغها احتضنها بخشوع وتواضع ، هو حركة الى أعلى لا الى أدنى ، ليس ثباتا يختلط بالجمود ويشبه الشلل .

وقد سبق للمجلة أن خصصت أحد أعدادها للطلائع فى فن القصة القصيرة وها هى ذى اليوم تقدم للقارىء عددا تزعم انه يختص كله بالمواهب الناضجة ، وهى لاتنكر ان الرأى يختلف ، وان الذى تنشره هو البعض لا الكل، فهى مقيدة بحجمها وأفق رؤيتها ، ومقدرتها ـ لا شك محدودة ـ على الاتصال والتعامل فى السوق ، فلنقل اذن انها نماذج متفرقة . لا تؤلف صورة كاملة شاملة ولكنها مع ذلك تعين على رؤية واقع القصة القصيرة عندنا من بعض جوانبه .

ولا مجال للتعليق على هذه القصص كما فعلنا فى عدد الطلائع ، غير ان هذا لايمنعنا من الوقوف عند بعض السمات التى تتكشف من التجمع ، واولها التنوع ، فليس عندنا مذهب غالب طاغ على بقية المذاهب ، وهنا يبرز السؤال عن صفة المعاصرة ، فلو كانت شرطا للفن لكانت حدة هذا التنوع قد خفت ، قصص ملتزمة مع قصص غير ملتزمة ، قصص تعكس الحاضر وبعضها رؤيا سابقة (فقد كتب الاستاذ يوسف الشارونى قصته قبل النكسة) بعضها يمت بسبب بعيد الى مزاج المدارس الحديثة فى فرنسا ، وبعضها باق على الاسلوب التقليدى ، وبعضها امتداد للمدرسة الواقعية فى العهد الذى انحسرت بعده موجتها ،ولعل هذا التنوع هو السبب فى ان الحكم على فن القصة لايزال عندنا حكما فرديا ، مشتتا ، فتاتا ، حتى لنتبين بالتجربة انه قلما يجتمع اثنان على رأى واحد فى حمد قصة أو ذمها، قبولها أو رفضها هل هذا لأن مفهوم فن القصة ذاته لا يزال غامضا عندنا ، ام ان هذا المفهوم قد ضاع بسبب غيبة النقد او بسبب غلو الموجود منه فى الاهتمام بالمصطلحات والنظريات أو بسبب

قعوده عن التنوع واقتباس وسائل جديدة معروفة ومطبقة فى أمم الحضارة ، ايا كان شأنه فلا نغفر له على الاقل تخلفه حتى من تاريخ هذا القدر الضئيل القصير العمر من انتاجنا القصصى ، فقد اكتشفت أخيرا بمحض الصدفة أعمالا للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق تمثل مرحلة هامة فى نشأة القصة عندنا ، هى منشورة فى كتاب منذ زمن غير قليل • ومع ذلك لم تحظ بانتباه أحد من مؤرخى القصة عندنا ، لابد أن نتولى التنقيب عن آثارنا حتى نجلوها جميعا • أو قد نقول انه لم ينشأ عندنا بعد مجموعة من الآراء المتحدة حول مفهوم للقصة ، يكون لها ضغطها وقدرتها على ان تجذب نحوها الابتكار والنقد معا ، وقد كنا نعانى قبل من حدة الفروق الطبقية ومن تشتت ألوان الثقافة وتأرجحها بين أقصى القديم وأقصى الجديد : ابناء الأزهر ودار العلوم والمدارس الحكومية ومدارس المبشرين وجامعات أوربا ، ولكن حدة الفروق الطبقية قد خفت والوان الثقافة تجمعت على نسق متقارب الدرجات ، الرؤوس تساوت واختفت العمامة والطربوش معا ، فمن المحير حقا ان لاتنشأ عندنا هذه المجموعة من الآراء التى أشرت اليها ، فهل من تعليل ؟ وقد يكون العلاج ان لا تتوزع قراءة الف كتاب على جيل الشباب فى المدارس ، بل ان يجتمع كله على قراءة عشرة كتب ليس الا من عيون الادب العربى ثم يتفرق بعد ذلك كما يحب ويهوى، لابد من قدر ولو ضئيل للتجانس فى الثقافة •

ومن السمات أيضا مداومة البحث عن شكل للقصة ، لابأس اذا كان الغرض هو مطابقته للمضمون وخدمته ولكن الخطر هو ان يكون التجديد غاية فى ذاته فنحس بالقلقلة بين الشكل والمضمون فقد يؤدى الشكل المعتسف الى فضفضة أوغموض يزولان لو عدل الكاتب الى شكل آخر ، وواضح بعد ذلك ان بعض كتاب هذا العدد قد تحرروا بسبب نضجهم من التزمت الشديد فى الاخذ بقواعد القصة ، فلم يرتعبوا من الاستطراد أو الاضافة بعد وقفة فيها الشبع والكمال ، وكم كنت اتمنى ان يكون التنوع عاكسا أيضا لتنوع وحدات المجتمع فى اجوائها الخاصة بها ومهنها المختلفة ركاب البحر على السواحل، ركاب النيل طلوعا ونزولا ، اهل الواحات وأحداث الوادى ، عمال المحاجر ••• الفجر •• فهذا العدد يدل بشهادته النسبية على ان النطاق الاجتماعى الذى تتحرك فيه القصص لايزال محدودا وان اختلفت انماطه • لن تنشأ دراسة جادة للأدب الشعبى الا اذا عنى الابتكار باستلهام كل جوانب التنوع فى وحدات المجتمع •

وكتاب هذا العدد فى غير حاجة الى تعريف ولكن لابد أن أشهد لهم عن معرفة وتجربة انهم يأخذون جميعا فنهم مأخذ الجد ، كرامته من كرامتهم وكرامتهم من كرامته ، يقفون على فنهم كل جهدهم وصبرهم واصرارهم على الاتقان والتجويد ، لايحركهم جميعا الا دافع واحد ان يكون لبلدهم العظيم ادب جدير به•

يسر المجلة أن تقدم هذه القصص التى يميل أغلبها الى الطول ، ولو لم تفتح صدرها لها لتعذر نشرها فى الصحف اليومية الابتجزيئها والاضرار بها •

ويسر المجلة أيضا ان تضم اليهم كاتبا تنشر له قصة لاول مرة ،هو الاستاذ عبد الحكيم قاسم الذى بدأ بشبابه يصعد السلم ، ليكون فى هذا الانضمام رمز للارتباط بين الاجيال وتبشير بالمستقبل •

من دفتر قديم ..

مقتطفات من ست محاضرات القيتها فيما مضى على طلبة معهد الدراسات العربية التابع للجامعة العربية عن « تجاربى فى القصة القصيرة » ملاحقة لمحاضرات الأستاذ على أحمد باكثير عن تجاربه فى المسرحية ، ومحاضرات الأستاذ عبدالحميد جوده السحار عن تجاربه فى الرواية الطويلة وقد صدر لكل منهما كتاب يتضمن محاضراته • أنشر هذه المقتطفات لأول مرة ، مبقيا على النص الذى وجدته لها فى دفتر قديم عندى لتكون ممثلة لمرحلة فى الطريق فلعل لو كتبتها اليوم لكانت شيئا مخالفا ، وتحديد الجامعة العربية لهدف هذه المحاضرات ومضمونها هو الذى اضطرنى الى التحدث عن النفس .

القصة القصيرة التى علق بها قلبى هى باب من أبواب فن القول ، هى تعبير فنى ، الجمال غايته القصوى ، ينبغى التفريق بينها وبين القصص التى تكتب للتسلية ، اننى لا أزرى بها فللناس أبدا حاجة الى التسلى واللهو ، للهرب من واقع الحياة الى عالم يهولهم بالمغامرات ،الخير يسمو الى أرفع قمة ، الشر يهبط الى أسفل درك ،الصراع الطويل بينهما حتى ينتصر الخير ، ذرف الدموع على أحزان المساكين وهم ضياع فى كف القدر ، الابتسام لعواطف عاشقين بريئين ثم الرثاء لهما حين يفرق بينهما الوضعاء والخبثاء الأنانيون ،

الفرحة لهما حين يجتمعان ، التهليل لفقيرة تتزوج من نبيل ثرى ، التشفى من بخيل اذا نهبه ابنه ، وهكذا ، ينسون أنفسهم لحظة ، واذا فرغوا من الكتاب نسوه هو أيضا، لاتخلو أمة من مثل هذه القصص ، حتى أرقى الأمم ٠

أريد أن أقول لكم شيئا آخر فى تبرير هذه القصص ، انها بلغتها وبوصفها لحياة الناس وأحاديثهم ومعاملاتهم تصلح فيما بعد أن تكون مرجعا تاريخيا للعهد الذى نشأت فيه، فبعض القصص الحاضرة عندنا التى قد لا يرضى عنها بعض النقاد ، أو على الأقل يدور حول قيمتها الفنية جدل غير قليل قد يسفر التحقيق عن انها ستصبح فيما بعد المرجع التاريخى الذى يعين الباحث على دراسة تطور مجتمعنا وجيلنا الحاضر وبخاصة فيما يتعلق بالتحول الكبير فى عواطف الشباب وعلاقاته الغرامية ٠

وقع فى يدى أخيرا دفتر صغير كانت أختى تقيد به مصروف بيتها منذ عشرين سنة ٠ فجعلت اقرأه كأنه كتاب تاريخ، وقد نقلت لى الأرقام وحدها جو ذلك العهد كله ، حتى وأنا أقرأ ثمن « جوز فراخ » وصل لسمعى صوت بائعها فى ذلك الحين ٠

وشبيه بهذه القصص الروايات البولسية ، وقد أسفر تحقيق صحفى فى انجلترا عن أن كبار قادتها وعلمائها يهيمون بقراءتها ٠

لم أكتب قط قصصا للتسلية ، حتى بقصد أن أجعلها مراجع تاريخية ، ولا أعرف الآن وأنا أفحص نفسى عارية أمامكم هل عن الادة ام عن عجز ، ولكن لا شك عندى انها لا تروى غلتى ولا توافق مزاجى٠ فالمزاج الفنى سابق على العمل الفنى ، انه الدعامة ، المنبع ، السند ، انه القائد والحكم ، انه مصدر السعادة والقلق ، انه يعاشرك ويبتسم ، ولكنه لا يفضى بسره ، هو شخص ذو حياء ، لا يحب الهجوم عليه ، والترصد له ، والامساك بتلابيبه ، وأخذه بالخناق، انه ينتفع بحواسك الخمس كلها وتشعر أن له من الحواس الخاصة به عددا لا تعرفه ، لاتعرف هل هو منبعث من أعماق الأرض ، من العهود البدائية ، أم يهبط من السماء ، أم هو خيط يصل النهايتين ٠ هل هو هبة من الله خارج نطاق المنطق والعلل أم وراثى بكل ما فى الوراثة من نزوات فتغفل عن ابن لتجتبى أخا له نشأتهما واحدة، وتمر مر الكرام على جيل فى أسرة لتقفز الى جيل لاحق ، الله أعلم ، فلست أعرف ان العلم الحديث قد كشف سر هذا المزاج ، وكأنى أتمنى أن لا يكشفه فان هذا الغموض جزء من سحره ٠ وقد حاولت فى بعض ما كتبت أن أعبر عن المعانى السابقة ، لأنها تشغلنى ، وسأقدم لكم الامثلة فيما بعد ٠

***

ولكن ماهى هذه القصة القصيرة التى علقت بها ، قلت لكم انها باب من أبواب فن القول ، أى (الأدب) ان شئتم ، فالأدب والموسيقى والتصوير والنحت والعمارة فنون تنبع من معين واحد ، أحسست به بوضوح فى نفسى فى مجال القصة ، فاذا كنت فى حياتى لم أرسم صورة ، بل ولا خطا فجاء مستقيما أو دائرة غير منبعجة ، ولم أضع لحنا أو أعزفه حتى على صفافير الاطفال ولم أبن عمارة حتى من حجارة الدومينو فانى مع ذلك قدمت طلبا للالتحاق بهذا النادى الذى يضم اتباع الجميع لأننى أسير فى ركابهم وأعلم ان عندهم لاعند غيرهم حل مشكلاتى وشفاء صبواتى ٠

***

القصة التى علق بها قلبى هى التى :

١ ـ تضيف جديدا : بأن تكشف عن

بعض جوانب النفس نحن فى غفلة عنها ، أو نراها ولا نفهمها ، أو نفهمها ولا نستطيع التعبير عنها ، كلامنا لا يحيط بها ولا يصل الى اغوارها ويخلط بينها وبين غيرها ، تكشف عن مجال الطبيعة فى صورة جديدة من خلال رؤية انسان فى موقف معين ، فى علائق بين الناس نمر بها ولا ننتبه لقدرتها وحقها فى اثارة الانتباه، بالعطف والرثاءبالسخرية والفكاهة.

٢ ـ تنقلنا من الصورة الجزئية المباشرة الى المعنى الكلى وراءها ، هى التى تكشف سريرة الأشياء كما خلقها الله لا كما تبدو للعين فحسب ، بزمان ومكان وموقف ، ولا بد أن تتساقط نوافل التفاصيل تساقط نشارة الخشب من يد صانع الدمية •

٣ ـ ننفذ من خلالها الى روح الكاتب نفسه لنعلم من أى معدن هى ، ينبغى أن يكون لها كيان فذ لايتكرر، روحه غنية أكثر من قارون، لايفقرها البذل ، بل تتجدد عليه ، له أسلوبه الذى يميزه، لو عثرت له على ورقة دون توقيع استطعت أن تعرف انه هو الذى كتبها ، كاتب له مذهب حتى ولو كان قائما على الحيرة وحدها ولكنه يرتضيه لنفسه بطبعه وفراسته ودراسته وعدالته ليفسر به الكون ومكان الفرد منه ، ولا ضير عليه أن يتحول من مذهب الى مذهب ، وليس مطالبا بأن يشرح لنا السبب، ولكن لامفر من أن يكون له فى كل عمل مذهب تتجمع حوله آراؤه ونظراته •

٤ ـ تأنف من الانانية ، فلا تكتفى بأن الاضافة للعلم غاية فى ذاتها يتم بها كيانها ونفعها وحقها فى البقاء بل لاتترك هذه الغاية معلقة فى فراغ ولكن تربطها بهموم مجتمعها • فالكاتب ايا كان حقه فى التفرد انسان فى مجتمع ، هو مطالب قبل غيره لتثبيت ثقة هذا المجتمع فى نفسه وايمانه بفضائله الأصيلة وقدرته على التقدم وتحقيق العدالة وتذوق الجمال •

٥ ـ تكون أنيقة مهذبة ، فلا تكون عامية الذوق فى اختيار مواضيعها وأسلوبها حتى فى معالجتها لظواهر العامية ودلالاتها، بل حتى فى وصفها ومحاولة اعطاء صورة صادقة لها ، وليس معنى هذا ان الكاتب لايعنى بالقبح كما يعنى بالجمال ولكن ينبغى أن لايكون تناوله للقبح غاية فى ذاتها أو خضوعا لسحره ، فللقبح كما للجمال سحره ـ بل يحاول أولا التفريق بين القبيح المنتحر ـ تعاشر جثته بقية الأحياء غير نادمة ولا خجلى ، والقبح الزائف ، مرد الحكم عليه ليس من معدنه بل من انحراف رؤية الناس وفساد حكمهم ، ان كلمة تشير الى العورة هى غاية فى البذاءة اذا لم تخدم غرضا الا الاشادة بالقبح ، وقد تكون غاية فى الحياء والبراءة اذا أعانت على صدق الرؤية واندمجت بين بقية مظاهر الحياة ، يعمها التناسق •

٦ ـ تكون من حيث الصنعة متقنة ، متوازنة ، لها ايحاء يزيد ويعلو على جماع ألفاظها ، وسنرى مطالب هذه الصفة فيما بعد •

هذه شروط لم يدلنى عليها أحد ، ولم أقرأها فى كتاب، بل أحسستبها فى نفسى•

***

وأود أن أقف معكم برهة عند فقرة فى باب الفنان فى كتاب (صح النوم) وهى التى تصفه بقولها : « انه لايحب الخمر ولايشربها، ان روحه جواد أصيل يعاف السوط ويكره أن تكون بدائع الفن وليدة عقد نفسية أو حرمان

جنسى أو أبخرة الخمر أو تهاويل المخدرات ، فكل نتاجها سراب خادع ، قد يبرق ، وقد يرتوى عليه الضال اذا خبطه الهذيان ولكن صدقه نفاق وعمره هباء ووجوده زوال • »

فقد كتبت هذه الفقرة تحت تاثير العوامل الآتية :

١ ـ ايمانى بطهارة الاحساس بالجمال ، وانه شعور فطرة سليم برىء ، وأكاد أربطه بعبادة الفرد لربه ان كان مؤمنا ، او تقديسه لأسرار الطبيعة ان لم يكن ، ولذلك فانى ضنين بهذه الطهارة على صورتيها أن يلوثها شىء من الزيف أو القسر والتهويل أو أن يكون مصدرها شرا أو مرضا •

٢ ـ ايمانى بأن الانتاج الفنى هو تعاون وثيق بين العقل والروح ، وأحب تعريف للفن عندى هو قولهم (الفن انفعال منضبط) فالانفعال هو من عمل الروح والضبط من عمل العقل ، وانى لمؤمن بأن العقل أثمن كنز جاد به المولى سبحانه وكان من نصيب الانسان ، ينبغى أن يحرص كل الحرص على بقائه سليما نقيا متزنا يقظا واعيا ، انه ببقائه هذا أقدر على المدى الطويل أن يجود بانتاج أصيل جاد جميل جدير بالبقاء لصدقه ، أقدر منه لو اعتصرناه قسرا فى ومضات خاطفة فجاد بنتاج براق كانه فلتة هوائية ، ان الاثر الناجم من نقاء العقل فى تأمله للكون هو ابن شرعى ، ابن حلال ، أما الاثر الناجم عن مضاجعة العقل للخمر أو الحشيش أو العقد النفسية المرضية فهو ابن غير شرعى ، ابن حرام ، يرتبط مولده بالخطيئة ، ويخيل الى ان الفن يتقدم فى طريقه الى القمة بمقدار تزايد نصيب العقل فيه وتوازنه مع نصيب الروح • فقد تضاءل فى عهدنا الحاضر الاهتمام الشديد بنزوات الفنان وشطحاته وغرائب شذوذه ، لقد أصبح الفنان قبل كل شىء رجلا مفكرا محتاجا أبدا الى مزيد من العلم والوراثة •

٣ ـ أنفتى فى تفسير الاثار الفنية التى يحق لنا أن نعتز بها بانها وليدة شهوة جنسية معوجة أو مرض نفسى دنىء ، اذ لو وجدت هذه الشهوة استقامتها ومنطلقها وهذا المرض علاجه لما خرجت لنا هذه الآثار الجميلة ؟ أين أصالة جمالها الباقى اذن ، ان الجمال عندى مستمد من فهم سليم لسريرة الكون فى نظامه الازلى لا يعرف ناموسه الشذوذ والانحراف • بين يدى ديوان لشاعر يتحدث عنه الناس ، واضح كل الوضوح •• ان جزأه الاول من نتاج معاناته للكبت الجنسى فى مطلع شبابه • ان الجزء الثانى مكتوب بعد شفائه من هذا الكبت ، أؤكد لكم اننى لا أطيق قراءة الجزء الاول وأحس منه بامتعاض شديد مهما قيل فى بلاغته وصدقه وجماله ، وقد يقال ليس فينا انسان يخلو من عقدة نفسية ، فما العمل ؟ اذن لامفر للفنان من أن يراقب نفسه مراقبة شديدة ليفطن ان انتاجه غير غارق فى التهاويل المرضية الكاذبة ومجمل القول ان الفنان ينتفع ولا يخضع لعقده النفسية •

***

آن الأوان للاجابة على سؤال لامفر منه وهو لماذا كان اتجاهى مشدودا الى القصة القصيرة اولا :

أعتقد ان السبب هو تمسكى بالصدق ، وكان لاشىء يغرينى بالتحول عنه ، فقد عملت هاويا لا محترفا ، لاأكتب الا ماأحس به ،

ولست ملزما بأن أبعث الى صحيفة بقصة كل أسبوع أو كل شهر أو حتى كل سنة ، حقا كنت أحس اذا لم أكتب قصة تتمخض بهـا نفسي انى موشك على التلف ، وينتابنى القلق فى فترات العقم ، ومع ذلك لم ألجأ الى الافتعال، وقد وجدت القصة القصيرة مطابقة لمزاجى الذى جبلت عليه لا المكتسب ، وعناصر هذا المزاج هى : حب للتأمل ، فأنا فرد فى قبيلة يتفشى فيها الهيام به ، تأمل الوجود بأحيائه وجماده ، والابن البكر للتأمل هو الوصف ، والوصف يؤدى الى استخراج المبادىء ، وتوضيح العلاقات وبذلك تتضاءل مكانة الحادثة والحوار والتفاصيل وهى كلها من مستلزمات المسرحية أو الرواية وخصائصها·

ومن الغريب ان التأمل يكون مصحوبا بخشوع قد تختلط به نغمة حزن دفينة للعجز عن الوصول ، وبخاصة عند الشرقيين ، وأنا منهم · واذا كانت هذه النغمة مستبطنة فى قصصى فهذا هو تعليلها ، وقد رأيت نفسى أحاول على غير وعى منى تخفيف هذه النغمة بالسخرية من حماقة الانسان وغروره ، وقد حرصت أن تكون غير هدامة ، فأنا منتبه الى أن السخرية سلاح له حدان ، وانها تفقر الروح اذا غلت ·

٤ ـ حب للتحديد والحتمية يبلغ حد الهوس ، تحديد المعنى وحتمية اللفظ، مزاجى يمقت أشد المقت أهون اطناب أو زيادة أو ثرثرة ، يمقت المعنى الغامض واللفظ المائع ، فليس لمعنى واضح الا لفظ واحد محدد ، لايقوم غيره مكانه ، وهذا التحديد يطاق فى القصة القصيرة ولكن يبعث على الاختناق فى الرواية الطويلة ·

ومن قبيل فحص النفس أيضا أقول ان التحديد عندى لم يكن غاية مقصودة لذاتها بل وسيلتى للزعم اننى بفضله وحده أستطيع أن أنفذ من السطح الى الاعماق ، وأن أنقل للقارىء صورة واضحة تطابق قدر الامكان الصورة التى فى نفسى داخل اطارها الفنى ، ولا شىء يسعد الكاتب مثل احساسه بانفعال معين عند مقطع فى قصته فوجد القارىء يحس به فى موضعه ·

٥ ـ هيام بالايقاع وانتباه لموسيقى الالفاظ لا فى نطقها فحسب بل أحيانا فى رسمها أيضا ، أو بمعنى آخر هيام بالشعر ، بروحه لا ببحوره وقوافيه · والقصة القصيرة دون الطويلة وثيقة الصلة بالشعر ، وهى التى حققت مطمحى فى أن يكون للقطعة كلها لحن شامل يتألف وان اختلف ويعلو عن ألحانها الموضعية · ومقدرة اللفظ على الايحاء بالنغم والاشتراك فى تأليف اللحن الشامل لايتبين فى الرواية بل فى القصة القصيرة ، وبعض القصص القصيرة التى كتبتها تكاد رغم طولها تقوم على ايحاء لفظ واحد ، يجىء فى نهايتها ويكون ختامها ومفتاحها معا ، مثل كلمة « جذابة » فى آخر قصة (مرآة بغير زجاج) وكلمة (تبلع) فى نهاية قصة (احتجاج) ، ويلاحظ ان هذا الهوس كله ينفى عن الاسلوب ان تتكرر فيه الالفاظ حتى فى مواضع متباعدة ، وأعتقد ان قيمة الانتاج الادبى قد يصح قيامها بحصيلة المؤلف من الالفاظ لأن الالفاظ تؤدى بدورها معانى مختلفة، فليست الأناقة هى المطلب ، بل التنوع والثراء ·

والى مقتطفات آخرى فى عدد قادم ·

يحيى حقى

حكاية ابن ستيتة

بقلم : سعد الدين وهبه

لم تكن قريتنا تتحدث فى تلك الايام الا عن حكاية (ابن ستيتة) ٠٠٠ كانت الموضوع المفضل لدى الصغار والكبار حتى انها غطت على جميع (البلاوى) التى نزلت على القرية فى تلك الفترة ٠٠ لم يتحدث الناس كثيرا عن قضية سكرتير الجمعية التعاونية الذى خبط فلوس الفلاحين وهرب فقد هز الفلاحون رؤوسهم وقالوا ـ طيب ماهو طول عمره بيعمل كده ٠٠ وقال آخرون ٠٠ بعد ايه ؟٠٠ بعد خراب مالطه ؟٠٠ وقال العقلاء٠٠ربنا يمهل ولا يهمل ٠٠

حتى حكايات عبد العظيم بيه الاقطاعى القديم الذى يحاول أن يستعيد نفوذه القديم بواسطة الاستاذ مراد سكرتير اللجنة والمسئول السياسى فى الناحية ٠٠

حتى الاشاعة التى رددها الفلاحون بخوف عن رجوع الارض الى ملاكها القدامى بعد تعيين وزير الزراعة الجديد ٠٠ حتى هذه الاشاعة



غطت عليها أيضا حكاية الواد (ابن ستيتة)

والواد ابن ستيتة هو فلاح اسمه محروس مات أبوه اسماعيل النجدى ومحروس ما زال يتحرك فى أحشاء أمه ستيتة ، وعندما خرج الى النور طافت به أمه المشايخ السبعة ، وزادت عليهم أيضا سيدى شبل فى الشهداء مع انه لم يكن ضمن المشايخ الذين أدرجت أسماؤهم فى قائمة الوصفة ٠ وزيادة الخير خيرين ياستيتة وشىء لله ياأهل الله ٠٠

وعاش محروس يحبو فى شوارع القرية متعثرا يكتشف طريقه فى صعوبة من جراء الحرزة الزرقاء والخميسة والحجاب التىأصرت ستيتة على أن تربطها جميعا فى خصلة شعره فتحول بين عينيه والطريق ٠٠

ودب محروس فى حوارى القرية وعندما صار صبيا ٠ نزل الغيط ، ليجمع لطع الدودة وعندما (بربر) القطن نزل الغيط مرة أخرى ليشترك فى الجنى وشق محروس طريقه ٠٠

الشىء الذى لازمه طوال حياته هو نداء الفلاحين له (يا بن ستيتة) ربما لتعلقه بأمه أو لتعلق أمه الشديد به ٠٠ وفى الاول لم يكن محروس يحس بأى فارق بين أن يناديه الناس بابن ستيتة بينما ينادون زملاءه بابن ابراهيم وعوضين وخلاف وغيرهم وعندما بدأ يفكر استقر فى ذهنه أنه ربما يتميز بذلك لأنأباه مات وامه على قيد الحياة ولكنه اكتشف بعد ذلك انهم ينادون محفوظ ابن رضوان بابن رضوان مع ان رضوان مات من زمان ٠٠

الحقيقة أنه داخلت نفس محروس بعض الهواجس من جراء ذلك النداء الىأن كبر وعرف أن فى هذا النداء نوعا منالاستهانة به والتقليل من شأنه ٠٠ لماذا ؟٠٠ هل لأن أباه قد مات ٠٠ أم لأنه كما قال له مرة عطية بن زيدان ان من رباه (مرة) ٠٠ نهايته ٠٠ هذا حكم القضاء ٠٠ محروس يقاوح٠٠ مرة يشتم ومرة

يشتم ٠٠ مرة يضرب ومرة يضرب واهى ماشية ٠٠

وفجأة وبلا مقدمات دخلت الحكاية مخه لايعرف كيف ولكنها حدثت هكذا ككل الاشياء السيئة أو السعيدة التى تحدث فى الحياة ٠٠ كان يجلس على باب دكان فرهود البقال عندما أقبل مسعود الجحش وفجأة هب جميع الجالسين أمام الدكان وصافحوه ورحبوا به ودعوه الى شاى أو قهوة أو كرسى معسل ، ولكن مسعود اعتذر لهم جميعا ، ودخل الدكان وكان فرهود البقال يقفز من خلف البنك ليتلقاه ببشر وليعرض عليه الدكان كله تحت أمره ٠٠ واشترى مسعود حاجته ودفع الفلوس بالعافية وخرج رأسه مرفوع الى السماء ، ويا أرض ما عليكى الا أنا ٠٠٠

ولم يتعب محروس فى البحث عن أسباب هذه الأبهة وهذهالعظمة ـ مع العلم بأن العظمة لله وحده ـ ان مسعود كان منذ أسابيع على باب الله مثله تماما ، ولكن مسعود اليوم أصبح عضوا فى منظمة الشباب بالقرية ٠٠

وهذا الذى غير حياة مسعود هو قطعا عضويته فى المنظمة ٠٠ ولكن هل يصرفون فى المنظمة للأعضاء ملابس ٠٠ ؟ اذا لم يكن الأمر كذلك فمن أين جاء مسعود بهذا الجلباب النظيف الجديد ٠٠ هل اشتراه ؟ من أين اشتراه وهو كمحروس ع الحديدة ٠٠ بالسلف؟ ربما ٠٠٠ ولكن من يسلفه فى القرية وحالة الجميع هباب ؟ ربما ظهر الذين يسلفون ٠٠ لم لا ومحروس عضو المنظمة ٠٠ اذن هى المنظمة ولا شك السر فى هذا التحول الخطير الذى دخل على حياة محروس ٠٠ وسأل محروس نفسه لم لا يكون هو الآخر عضوا فى المنظمة ؟ لم لا يكون مثل مسعود الجحش هذا الذى كان مثله على باب الله ثم صار مهيبا رهيبا يخب فى جلباب جديد ٠٠ لا شك أنه عندما يصير عضوا سيتغير حاله ٠٠ على الأقل سينسى الناس انه محروس بن ستيتة وسيذكرون اسم أبيه على الفور ٠٠٠ وسهل على محروس ان يعلم أن عضوية المنظمة لا تتطلب شيئا أكثر من أن يقدم طلبا ثم يتلقى تدريبا معينا ٠٠٠

وفى الصباح كان محروس أمام الموظف المختص يطلب منه فى اشراق أن يلحقه بالمنظمة وسأله الرجل عن سنه وأوشك محروس أن يلفظ عمره الحقيقى لولا أن فطرته هدته أن يتريث لأن احساسا غامضا داخله بأنه يقدم على كمين وسأل محروس فى بلاهة مصطنعة :

ـ ليه هو انتو مش بتاخدوا كل سن ٠٠

وأجاب الرجل :

ـ لأ ٠٠ لحد تلاتين سنة بس ٠٠٠

وأوشك محروس أن يغفر فاه ولكنه أجاب :

ـ الحمد لله أنا عندى ثمانية وعشرين بس ٠

ـ معاك شهادة الميلاد ٠

ـ لأ ٠٠ انما أجيبها لك ٠٠٠

وخرج محروس مسرعا يفكر فى الأكاذيب التى اختلقها هكذا بالسليقة ٠٠٠

كانت نجاته من افتضاح الكذب سر سعادته ولكنها لم تلبث أن ذهبت لتسلمه الى هم كبير ٠٠ لقد اتضح اذن انه لكى يكون عضوا فى المنظمة لا بد أن يكون عمره دون الثلاثين ها هى الشهادة في جيبه تثبت أن القطار لم

ولكنه تجاوزها بثلاثة أعوام ٠٠ هكذا تقول شهادة ميلاده ، وهكذا تقول شهادة تسريحه من الجيش بعد أن أدى الخدمة العسكرية ٠٠ اذن فلا منظمة ولا يحزنون ٠٠ وكان من الممكن أن تنتهى المسألة عند هذا الحد ولكن محروس (عندى) ودماغه ناشفة ، والحكاية قد ركبت مخه خلاص ٠٠ لا بد أن يدخل المنظمة يعنى لا ٠٠ أن يدخل المنظمة ٠٠٠

ولم يطل تفكير محروس ٠٠ وقد حمل شهادة الميلاد وشهادة المعاملة وذهب الى الساقية المهجورة ومزق الشهادتين قطعا صغيرة وألقى بالقصاصات فى بئر الساقية وكأنه يتخلص من آثامه وجرائمه ٠٠ وعندما انتهى من هذه الشغلانة صحا من نومه فى اليوم التالى وسافر الى المركز واتجه من فوره الى عيادة الدكتور عدلى ٠٠٠ ولم تطل زيارته للدكتور فقد سلم التومرجى خمسين قرشا وسلمه الدكتور شهادة تسنين تقول ان عمره ثمانية وعشرون عاما ٠

خرج محروس من عيادة الدكتور سعيدا وقد أحس أنه أصبح عضوا فى المنظمة ٠٠٠ هاهى الشهادة فى جيبه تثبت أن القطار لم يفته ٠٠ وها قد أصبح بينه وبين العضوية فركة كعب ٠

وفى الصباح ذهب محروس يقدم الشهادة ويرد على بعض الأسئلة ٠٠ وخرج من الحجرة التى جلس بها الموظف الذى تناول منه شهادة الطبيب وقد أحس أن الدنيا لا تطيق فرحته وعاد الى القرية وأعلن الخبر للفلاحين أمام الدكان فى المساء وسخروا منه ولكنه استمهلهم للصباح حتى يذهب ليحضر البطاقة ويريها لهم ٠٠٠

وعندما احتواه بيته سرح فى آلاف الأشياء الجميلة ٠٠ وفى الصباح ذهب ليحضر البطاقة كما وعدوه ، وقبل أن يقترب من حجرة الرجل الذى قابله بالأمس وجد موظفا آخر يسأله عن اسمه وعندما أجابه سأله عن سنه ورد محروس دون أن يرتعد هذه المرة ٠

ـ ثمانية وعشرين ٠٠٠

والذى جرى بعد ذلك كان كالحلم تماما ٠٠ من حجرة الى حجرة ومن موظف الى موظف



وسؤال يتلوه سؤال ٠٠ سنك اسمك ٠٠٠ بلدك ٠٠ هل سبق أن ذهبت الى الجيش ٠٠

وكان محروس فى جميع ردوده حريصا حويطا فلم يسقط فى فخ واحد نصبوه له ٠٠ أو هكذا ظن الى أن وجد نفسه آخر المطاف فى القرعة ٠٠ لقد جند مرة ثانية لأن عمره ثمانية وعشرون عاما ولم يسبق تجنيده كما قال هو نفسه فى أوراق الحكومة ٠

لم يعد محروس الى القرية ٠٠ بل سافر الى سيناء ٠٠ لم يدخل المنظمة ولكنه دخل الجيش ٠

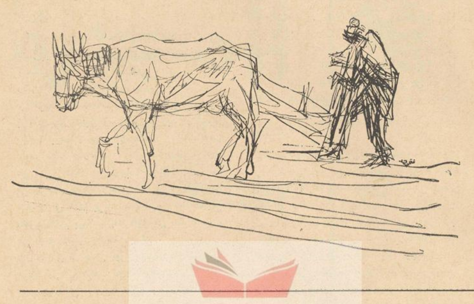
ان الجنود الذين عادوا الى قريتنا بعد حرب سيناء حكوا أشياء عجيبة عن بطولة محروس وعن شجاعته قبل أن يلاقى حتفه برصاص اليهود فى الصحراء ٠

ومنذ ذلك وقريتنا تحكى الحكاية ٠٠ كان قبل أن يأتيهم خبر استشهاده يتحدثون باسمين عن حكاية ابن ستيتة ٠ أما بعد أن عرفوا ما حدث منه وما حدث له أخذوا يحكون حكاية محروس ابن قريتهم الذى ذهب ولم يعد ٠

نظـريـة..
فى الجلدة الفاسدة



بقلم : يوسف الشارونى



المقدمة :

لم أتنبه الى وجوده الا حين تحرك القطار، وانصرفت عن التطلع من نافذته لأراه جالسا أمامى على المقعد المقابل ٠ ومنذ لمحت عيناى عينيه كان واضحا أنه يتلمس وسيلة للتحدث معى ، ولم أكن أقل منه رغبة ٠ فقد ركبت بعد ظهر اليوم من محطة أسيوط،وقرأت الصحيفة اليومية ولم يبق أمامى الا أن أحدق تارة فى الجالسين وتارة فى الحقول وأعمدة التليفون التى تهبط وترتفع وترتفع وتهبط وهى تركض الى الوراء ٠ من محطة المنيا ركب ، وما أن تنبهت اليه حتى حيانى فى ألفة ، ثم استعار صحيفتى ، ثم سألنى عن الوقت ليضبط ساعته ٠٠ الى أن وجدت صوته يعلو ووجهى يقترب محاولين التغلب معا على ضجيج القطار ، هو يحدثنى وأنا أصغى اليه ، لايكاد يعطينى وقتا للمناقشة أو التعليق ٠٠

٠٠ هل تعرف نظرية الجلدة الفاسدة ؟ انها نظريتى ٠٠ أنا أقرأ كثيرا فى الأدب وفى العلوم الطبيعية وأحب أن أطعم هذا بذاك ٠ تقول انك تحب القراءة أيضا ؟ هذه مجاملة كريمة منك ياسيدى ٠٠ نظرية الجلدة الفاسدة مى هى أن تقام أجهزة تكلف آلاف الجنيهات لسحب المياه وترسيبها وترشيحها وتعقيمها ومد آلاف الامتار من الانابيب لتصل أخيرا الى منزلك ، ولكن جلدة صغيرة فاسدة فى صنبور بيتك تعكر عليك طمانينتك وتجعل من تلك المياه المرشحة المعقمة تهديدا لك ٠ أنت لا تفهمنى يا سيدى ، هذا ظاهر فى عينيك ٠ خذ مثلا ما وقع فى قريتنا ٠٠

كان واضحا من ملابسه ــ ثم من حديثه ــ أنه لا بالقروى ولا بالمدنى ، تجاوز الريف دون أن يصل الى المدينة ، يرتدى جلبابا لونه معطف ، فى معصمه ساعة ، له شارب خفيف عارى الرأس وان كان يغطيها شعر اختلط أسوده بأبيضه ، يوحى بأنه تجاوز الخمسين ، لو قابلته منذ عشرين عاما لكان على رأسه طربوش بلا شك فمكانه ما يزال محفوظا ،

يقرأ الصحيفة وان كان لا يشتريها ، فى عينيه دهشة ،به بساطة القروى وجرأة ابن المدينة.

البرهان :

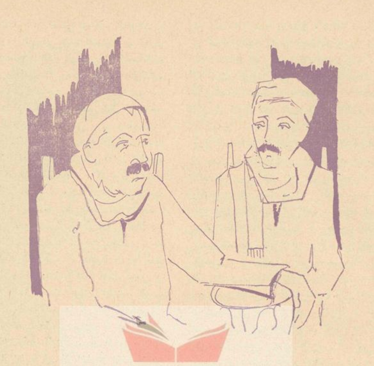
... فى قريتنا مثلا دخلت الكهرباء ومياه الشرب النقيه ، وبها وحدة مجمعة فيها مدرسه ومستشفى ومشرف اجتماعى وآخر زراعى ، ولكن .. وابتلع لعابه وابتسم .. يبدو ان فى قريتنا جلدة فاسدة ، ليس يكفى أن نقيم بناء ونحضر أطباء ومدرسين ، لابد أن تكون الجلدة جيدة وصالحة الاستعمال ، سأقص عليك قصة مدرستنا ، بل خذ الكهرباء أولا على سبيل المثال .. ركبت الأسلاك والمصابيح فى طرقات قريتنا وبعض منازلها ، وتشاجر الناس كل منهم يريد مصباحا من مصابيح الطريق أمام بيته ، فهذا دليل من احدث طراز على الجاه والنفوذ . هذا جميل ، نعم جميل ، لكن – والى ان تصل كهرباء السد – وضع مولد كهربائى مؤقت له طاقة محدودة .. هل نفهم جيدا فى الكهرباء ؟ أنا قرأت عنها الكثير فيما قرأت من علوم طبيعية حتى كونت نظرياتى الكهربية الخاصة .. المهم أنه حدد عدد المصابيح فى كل بيت ، غير ان اهالى قريتنا – لاسيما القادرين الذين استطاعوا ادخال الكهرباء فى بيوتهم – لا يعبأون بالتعليمات ولا يصدقونها . تلك هى الجلدة الفاسدة ياسيدى . ما ان يقام فرح او مأتم حتى يضاء أكثر من مصباح لم يسمح به . وماذا تكون النتيجة؟ يحترق المولد ويعم الظلام قريتنا ، ولا يتم اصلاح العطل الا بعد اسابيع فالاصلاح غالبا ما يحتاج الى عامل فنى أو قطع غيار وهذا وذاك لا يتوافران الا فى المركز ، والنيل بيننا وبين المركز .. فقريتنا على الضفة الشرقية والمركز على الضفة الغربية . وهكذا تضاء قريتنا أسبوعا لتظلم أسابيع .. تصور ..

خذ أيضا مسألة المياه النقية .. ما رأيك فى أن القليلين هم الذين يستخدمونها حتى اليوم مع أنها من طلمبات بجوار بيوت القرية مباشرة ؟ أما الأكثرية فما تزال تفضل ملء الجرار من النيل حيث يوجد شاطىء رملى يحتاج خوضه الى ربع أو ثلث الساعة على الأقل تصور .. أما أنا فقد اكتشفت حلا وسطا ، ليس بين الأقلية والأكثرية فى القرية ، بل بين الأقلية والأكثرية فى بيتى ، أعنى بينى وبين زوجتى ، ها ها ها .. الماء النقى للغسيل والاستحمام ، أما ماء النيل فللشرب ، نعم للشرب ، لأن السيدة زوجتى تصر على أن ماء الطلمبة غير سائغ ، أما مياه النيل فهى بخيرها .. تصور .. خذ أيضا مدرستنا ، أقصد أولا مستشفانا ..

ترى هل يلقى الرجل على محاضرة عن قريته ؟ هل وجد فى شخصى جمهوره الذى ينشده ؟ جذبت محاضرته أسماع بعض الجالسين وان كانوا لا يتابعون الحديث بانتظام بل ينتبهون الى فقرات منه ثم يبدو أنهم ينشغلون بأحاديث جانبيه أو بالانطواء على أنفسهم . كانت الى جانبه سيدة ميئوس منها أن تنضم الى جمهوره مشغولة بطفلها ، يرضع حينا ، يبكى حينا ، تغير ملابسه الداخلية حينا ثالثا . وربما قد ناله شبه ارتياح حين غادرت القطار فى محطة متاغة ليحل محلها شاب – لعله طالب جامعى – لايشغله عن الاصغاء شاغل .

خذ أيضا مستشفانا .. لكم فرح بها أهل قريتنا لانها ستوفر عليهم مشوار المركز وعبور النيل بمرضاهم اذا سمحت حالتهم ، أما اذا لم تسمح فامرهم الى الله والى حلاق الصحه .

فى أول الامر أتانا طبيب فى حوالى الاربعين قال عنه أهل قريتنا أنه لابد وأن يكون فى الأصل ممرضا ثم دخل كلية الطب على كبر.. سكن المركز ، مشغول بأسرته هناك . يأتينا ساعة واحدة فى الصباح .. ليته كان يأتى كل يوم هذه الساعة ، يومان فقط أو ثلاثة أسبوعيا . ليته كان يأتى هذه الساعة بانتظام فى الأيام التى يشرفنا فيها بزيارته .. مرة فى العاشرة وأخرى فى الحادية عشرة وأحيانا فى الثانية بعد الظهر ، تصور .. على المرضى أن ينتظروا وهم وحظهم . المفروض أن يكون هناك طبيبان فى الوحدة ، لكن يبدو أنه



لا يمكن الا اقناع طبيب واحد في وقت واحد بالعمل فى قريتنا • المهم شكاه الأهالى الى رؤسائه دون جدوى ، حتى كانت ليلة لدغته فيها حشرة مجهولة يقال انها « الدفانة » هل تعرفها ؟ لا ليست عقربا ولا ثعبانا ، أنا لم أرها انما وصفوها أمامى فاذا هى أشبه بالسحلية • يقال انها اذا أحست بالخطر دفنت نفسها فى الأرض فلا يظهر لها أثر •• المهم أنها لدغت ابن الشيخ عبد الحفيظ ، شيخ من شيوخ قريتنا له مكانته ونفوذه ، فاسرع به أبوه الى الوحدة حيث قامت الحكيمة الموجودة باسعافه وحقنه حقنة مضادة لسم العقرب ، غير أن الشاب فاضت روحه بعد ساعات قبيل الفجر ، وقيل لو كان الطبيب موجودا فربما تم انقاذ الشاب ، وقد لايكون هذا صحيحا والله أعلم • المهم أن ضجة الاهالى وصلت هذه المرة الى آذان المسئولين فنقلوا الطبيب ، الى أين ؟ الى قرية أخرى ، وربما الى ترقية ••

جاءنا طبيب آخر ، بخلاف سلفه تماما • شاب صغير متحمس للمهنة ، قرر أن يقيم فى الوحدة رغم انقطاع الكهرباء معظم الأيام ، ورغم كثرة البعوض الذى لم يألفه ، لا يفارقها الا ظهر الخميس ليعود صباح السبت • كان مثاليا ــ أو هكذا كان على الأقل فى نظرى ــ حتى انه كان يرفض أن يقبل قرشا واحدا ، ولو استدعى للكشف على حالات فى بيوت القرية • كان منظما فى عمله فثمة ساعة للمرضى من السيدات والأطفال وأخرى للرجال

وثالثة لحقن المرضى بالبلهارسيا بالطرطير وهكذا •• فساعاته فى النهار الواحد صورة مصغرة لأقسام المستشفى الكبير بالمركز •• لكن طبقا لنظرية العبد لله ، نظرية الجلدة الفاسدة ياسيدى ، بدأ الناس يهمسون أولا ثم تحول الهمس الى أصوات مرتفعة : ان الطبيب لا يبيت فى الوحدة حبا فى عيون الاهالى ، بل حبا فى عيون الحكيمة ، وهذا مما تأباه عليهم رجولتهم ، وكرامتهم وشهامتهم•• اسمها عايدة ، كانت حلوة حقا ، أهلا للحب

حقا ٠٠ أنا لم أكن أصغى الى هذه التقولات ، كان مصدرها الرئيسى عبده افندى أمين المخزن ومحمود افندى مساعد المعمل ، أما العاملات بالمستشفى كالممرضة ومساعدات المولدات فلم أسمع أنهن تفوهن بشىء • وهذا هو سر شكى • لقد درست علم النفس قبل أن أهجر المدرسة الثانوية أو تهجرنى ، ثم واصلت قراءته بعد ذلك حتى كونت لى نظريات مدونة فى كراسات قد أطلعك عليها يوما ما ، أهمها النظرية الكهربية الجنسية ٠٠ كل رجل عندما ينظر الى أنثى تخرج من عينيه أشعة كهرطيسية أى كهربية مغناطيسية تخترق ملابسها وتنجذب الى جسدها فتجذبها الى الرجل • هذا هو تفسير الجاذبية الجنسية ، وتتناسب درجة توصيل هذه الكهرطيسية تناسبا طرديا مع جمال المرأة وخفة دمها ، كلما كانت أجمل أو أخف دما كانت موصلا جيدا ، وتتناسب تناسبا عكسيا مع عمرها ، كلما تقدمت فى السن أصبحت أردأ توصيلا ٠٠ هل تعرف أنى من خلال أدق العلاقات بين الرجل والمرأة توصلت الى نظرية فى الخير المطلق؟ فالخير المطلق هو ما تقوم به من عمل بسعادة تساوى تماما سعادة من يتلقى هذا العمل ، هو العمل الذى فيه تؤكد ذاتك وتؤكد غيرك فى الوقت نفسه فتصبح سعادتك وسعادة غيرك فعلا واحدا ، بحيث لا تدرى هل أنت تحقق رغبتك أم رغبة غيرك فلا تكون هناك سوى رغبة واحدة تتحقق! اذا حدث هذا بين الفرد والفرد كان هو الخير المطلق ، فاذا حدث بين الفرد والجماعة ، كما فى حالة الفنان أو العالم الذى يسعد بعمله وفى الوقت نفسه يسعد الآخرين ويفيدهم فهو ما وراء المطلق ، أما اذا حدث بين جماعة وجماعة كان يكون بين دولة وأخرى فهو مطلق المطلق • هذه مصطلحاتى أنا لن تجدها فى أية كتب ٠٠ لا تؤاخذنى فلست أستطيع اغفال هذا التشابه — أقصد الاتصال الوثيق — بين النشوة الحسية والنشوة النفسجتماعية ، هذا مصطلحى أنا أيضا ، يجوز أنك قرأته من قبل ، لابد أن يكون ذلك فى لغة أجنبية ثم ترجمته لنفسك ، أما أنا فلا أذكر أننى عثرت به فيما قرأت ، المهم أننى أطلعت على أكثر من نظرية لمن يسمونهم علماء الأخلاق ، دائما كنت أحس أن هناك شيئا ناقصا فيما يقولون ، أتعرف لماذا ؟ لأنهم لم يفطنوا الى قانونى أنا ، والا لأراحوا واستراحوا ، ولما وجد الخلف منهم ما ينقد به السلف ٠٠ نعم نعم ٠٠ التضحية لون من ألوان الخير لكنها ليست الخير المطلق يا سيدى ، التضحية ان تتألم فى سبيل سعادة غيرك ، هذه درجة أقل من درجات الخير ، لماذا لا يسعد الطرفان اذا لم تكن هناك ضرورة للتضحية ؟ أما الشر فهو أن يشقيك عملك ويشقى غيرك بهذا العمل ، أقصد هذه درجة من درجات الشر ، أما أقصى درجاته فهو أن يشقى غيرك لتسعد أنت كما يحدث عندما يسعد المعتدى — فردا أو دولة — على أشلاء ضحيته ، لايدرى أنه قد وضع بذلك أسس الشر الذى سينقلب عليه يوما ليلتهمه كما التهم هو به غيره • هذا قانون أزلى أبدى ان لم يتحقق فى حياة الطغاة — أفرادا أو دولا — تحقق فى حياة من يتلوهم من الأبناء والاجيال ، هل تعرف أننى طبعت نظريتى هذه فى كتيب منذ حوالى عشرين عاما ، وهنا فى صحيفة اليوم — وعلى صفحتها الأولى — يقولون ان العلماء وضعوا جهازا دقيقا فى عين الأرنب الذكر ، فوجدوا أن ضغطه يرتفع كلما نظر الى احدى اناثه • لم يذكروا تعليلا لهذه الظاهرة أما أنا فقد عرفتها وعللتها منذ عشرين عاما فى كتيبى : انها الأشعة الكهرطيسية التى تخرج من عينى الذكر أرنبا كان أو انسانا • لقد أرسلت نسخة منه الى اسماعيل صدقى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ، سأرسل اليك نسخة لو تفضلت باعطائى عنوانك ، هل تراني استطردت لاتؤاخذنى ، هذه احدى عاداتى السيئة ٠٠ المهم أننى أدركت — ولعلك توافقنى على ذلك — أن بعض الأهالى عبروا عن رغبتهم فى الحكيمة من خلال اتهامهم الموجه للطبيب • فاذا اعتبرنا العاملات الأخريات فى المستشفى لا ينتمين الى جنس النساء أو طبقا لنظريتى رديئات التوصيل ، كانت عايدة هى السيدة الوحيدة فى قريتنا التى تختلف عن نسائنا فيما ترتديه وفيما تكشف عنه وتخفيه ، وفى صلتها — بحكم عملها — بالرجال من أهل

قريتنا : الشباب المحروم من المرأة ، والأزواج المحرومين – أمثالى – من غير زوجاتهم ، ها ها ها .. هيء هيء هيء .. المهم انهالت الشكاوى مرة أخرى على المسئولين فى المركز والمحافظة . والنتيجة نقل الحكيمة ونقل الطبيب لتحرم القرية شهورا من أى علاج صحى حتى يتم تعيين طبيب آخر وحكيمة جديدة ، أنت تعرف أحيانا ما تبطىء الأمور..

هدأت عجلات القطار فهدأت حماسة الرجل كأنما لتظل النسبة محفوظة بينهما .. وكان العرق قد أخذ ينضح على جبهته ، أدرك أننا أشرفنا على محطة سيقطع حديثه فيها ذهاب الناس ومجيئهم ، وصيحات الباعة والمودعين والمسافرين . فآثر أن يتوقف عن الحديث حتى توقفت عجلات القطار تماما . وأطل بعض الجالسين من نافذة القطار يشترون طعاما أو شرابا فحجبوا ما بيننا . كانت نظرتى الآن الى زميل رحلتى قد تغيرت . لم أعد أحس أنه يلقى على محاضرة بقدر ما أحسست أنه يروى لى قصصا ، ربما على طريقة ألف ليلة وليلة ، قصة وراء أخرى ، كأنما لديه فيض منها لا ينتهى . فلما دوى صوت الجرس وتحرك القطار ، انجاب حجاب الناس عن أعيننا وانخفضت أصواتهم ليرتفع دوى العجلات من جديد ، بينما أصبح الطالب المجاور الآن أكثر انتباها .

... فمنذ حوالى عام وفد علينا الدكتور شنيطة ، ليس هذا هو اسمه ، أظن أنه اسم أبيه أو أسرته ، اسمه هو فؤاد ، لكننا نفضل أن نلقبه بالدكتور شنيطه ، اسم تسمعه مرة فلا تنساه ، لم يهمل قريتنا كاول طبيب جاءها ولا هو تفانى فى خدمتها كما فعل سلفه . سكن المركز ليقتل ليله بملاهى ماقبل الزواج ، ابن عمدتنا لعب معه وشرب أكثر من مرة فى أندية المركز الخاصة . فى كل صباح يعبر النيل الى قريتنا حيث يقضى فيها ساعات العمل ليعبر النيل مرة أخرى عائدا الى المركز . فى هذه الساعات التى يقضيها فى قريتنا كأنما آلى على نفسه أن ينتقم لزميليه المطرودين ، لا لحسابهما ، بل لحسابه ، ذلك أنه أحال

الوحدة الحكومية الى عياة خاصة له • الكشف بثلاثين قرشا ، وفى المنازل بجنيه كامل • الأدوية المجانية تباع • كل تحليل له تسعيرته العمليات الجراحية بالمقاولة ، السرير فى المستشفى بنصف جنيه فى اليوم • وكان لمساعد المعمل ومعاون الصحة والكاتب وأمين المخزن والممرضة أيضا نصيب من الغنائم : الغيار بثمن والحقنة فى العضل لها ثمن وفى الوريد لها ثمن • تقول كيف رضيت قريتنا بذلك ؟ أقول بل ان القرية هى التى طلبت ذلك ، بل أجبرت طبيبها عليه •• تصور •• نظرية الجلدة الفاسدة التى لا تخيب أبدا يا سيدى •

فعندما وفد الدكتور شنيطة ، كان يقبل عليه مرضانا فيكشف عليهم مجانا ، ثم اتضح أنه لا يصف لهم ـ أو لأكثرهم ـ أية أدوية ، فاذا سئل عن سبب ذلك ، أجاب بأن الدواء غير موجود بصيدلية المستشفى ، اذن فلتصف يادكتور الدواء المطلوب ليشتريه المريض أو اهله **من صيدلية أخرى** ، لكن لا ، هذا خارج عن نطاق عملى •• لكن سلفيك لم يفعلا هذا •• انهما اذن لم ينفذا التعليمات والا فلماذا نقلا ؟ وهكذا أصبح لا جدوى من الكشف عند الدكتور شنيطة • فلما استدعى مرة للكشف على زوجة ميهوب عبد الباسط فى البيت أعلن أن هذا أيضا خارج عن نطاق عمله فى المستشفى وعلى المريض أن يأتيه الى مكان عمله تصور •• ولما كانت زوجة ميهوب يهددها نزيف خطير فقد استعطفه الرجل وقبل يديه، ثم قبل قدميه ،واستعان عليه بوجهاء القرية : شيوخها وفقيهها بل وعمدتها • وأخيرا أعلن محمود مساعد المعمل أن الدكتور شنيطة قبل أن يقوم بهذا الكشف الخارج عن حدود عمله فى مقابل جنيه واحد ، أما أنا فقد أدركت اللعبة، ألم أقل لك اننى درست علم النفس ولى نظريات فيه ؟ •• فبعد هذه المقدمة وهذا التمنع كان هذا تفضلا وتنازلا منه •• غير أن المفاجأة الثانية حدثت بعد توقيع الكشف ، فقد وصف الدكتور شنيطة للمريضة أدوية غير متوفرة فى صيدلية مستشفانا ، أليس هو الآن خارج حدود عمله ؟ المهم كانت هذه هى البداية ، ثم أصبحت أمرا مألوفا ، حتى أن بعض القادرين من أهل قريتنا ممن كانت حالة مرضاهم تسمح بالذهاب الى المستشفى قد استدعوه للكشف على هؤلاء المرضى فى منازلهم ودفع الجنيه لمجرد أن يصف الدواء الملائم ، وأخيرا تنبهت القرية الى أن ذلك سيكلفها كثيرا ، فلماذا لايتم الاتفاق مع الدكتور شنيطة على أن يكون الكشف فى المستشفى فى مقابل مبلغ أقل مادام المريض يريد وصف الدواء الضرورى بغير اشتراط وجوده بصيدلية المستشفى ؟ ولقد أخطأ ميهوب حين تطوع بعرض هذا الرأى على الدكتور مباشرة ، لأن الرجل ثار فى وجهه واتهمه بقلة الادب ، فرأى عقلاء القوم أن يوسطوا محمود مساعد المعمل ورأت نساء القرية أن يوسطن الحكيمة والممرضة كذلك • ومع أن أحدا لم يتفق مع الدكتور شنيطة نفسه ، ومع أنه لم يتسلم مليما واحدا فى يده حتى هذه اللحظة ـ فالأتعاب يتسلمها محمود ـ الا أن الاتفاق تم بطريقة شبه تلقائية ، على فئات الأجور المختلفة • وفى هذه الأثناء حدث تطور غير ملحوظ •• الظلام ينتشر من حولنا على الحقول وعلى تلال المقطم وراء الحقول حتى لكأننا مسافرون نحو الليل ، بينما هبت نسمة خفيفة لتلطف من حرارة الجو وتمسح العرق عن وجه محدثى ، وقد أخذت بقاياه تبرق على بشرته فى ضوء المصابيح الكهربية الخافتة من سقف القطار •• وشخير أحد الجالسين ارتفع حتى ايقظته طرقات المحصل فانقطع الشخير لحظة





ليعود من جديد ٠٠ وأهل القرية قد اكتشفوا شيئا فشيئا أن مساعد المعمل على استعداد لان يوفر عليهم مشقه عبور النيل لشراء هده الادويه التى يصفها الطبيب ولا تتوفر فى صيدلية مستشفانا ٠ورحب الأهالى بذلكطبعا، وبدأ مرضانا يشترون من محمود ما يصفه لهم الدكتور شنيطة من أدوية ، ثم اكتشفوا أن بعضها أدوية مما كانت تعطى لهم بالمجان من صيدلية المستشفى من قبل ، وقيل ان أدوية المستشفى نفدت وأن هذه أدوية مماثلة واختلط الأمر على الناس ، ولم يعودوا يهتمون بمحاكمة الطبيب أو مساعديه ، حتى أفقر الفقراء كان لايذهب الى الدكتور شنيطة الا بالثلاثين قرشا فى جيبه ، فقد أصبح منطق أهل القرية أنهم « يكسرون عينه » بهذه القروش ٠ وقد أرسلنا ــ أنا وبعض من ثار على هذا الوضع ــ نشكوه الى رؤسائه بالمحافظة فقوبلنا من أهل القرية بالاستنكار والتأنيب، غير أن هذا لم يستطع أن يخيفنى ٠ لايخدعك مظهرى فقد كنت وقتها لا أخاف أحدا ٠ صدقنى ٠ ولما عبر المحققون النيل تمسكت بأقوالى ولم أعدل عن حرف منها ، بينما تراجع البعض وتناقض الشهود ، فحفظت الشكوى باعتبارها كيدية ٠٠ آه ٠٠ نسيت أن أذكر أن الدكتور شنيطة كان حريصا على معالجة وجهاء القوم وأسرهم ــ وعلى رأسهم عمدتنا ــ بلا مقابل ٠ ومن يومها سارت الأمور على ما يرام٠

والآن استطيع أن اقص عليك قصة مدرستنا ٠٠ اغفر لى ثرثرتى ، لا أحب أن أضايقك ، لن أذكر الا قصة أخيرة عنها وقعت فى العام الماضى ، والا فكيف تقطع الوقت ، لعله هو الذى يقطعنا ٠٠ هىء هىء هىء ٠٠ المهم أن فى قريتنا مدرسة ابتدائية فقط ، هذا طبيعى ، وان كان يقال انه ربما بعد ثلاث سنوات أو أربع سيفتتح بها فصل اعدادى والله أعلم ٠ المهم أن مدرسيها ومدرساتها العشرة يسكنون المركز جميعا ٠٠ تصور ٠٠ أما ناظرها فهو من احدى قرى الغرب ٠٠ هيئة التدريس كلها اذن تعبر النيل صباحا الى قريتنا وتعود فتغادرها ظهرا ، الولد منصور فراش المدرسة هو الوحيد من اهالى القرية ، يفتح أبواب المدرسه صباحا ويأتيها بعض الأطفال ليلعبوا فى فنائها حتى العاشرة وأحيانا الحاديه عشر صباحا ، تصور ٠٠ عندئذ فقط يبدأ مدرسو المدرسة ومدرساتها فى التوافد ٠٠ بعضهم يأتى وبعضهم لا يأتى، وان كان والحق يقال ان ناظرهم أقلهم تغيبا ، هكذا تسير المدرسة بالبركة ٠٠ أما جانب المفتشين فلا خطر منه ، فسيادة المفتش لا يستطيع أن يفد الى قريتنا الا بعد الاعلان عن مجيئه حتى تدبر له هيئة التدريس من يرسل له من الأهالى ركوبة على « البحر » بدلا من أن يخوض رمال الشاطىء لمدةربع أو ثلث الساعة، أما المدرسات فلا مانع لمن يحضر منهن أن يتركن الأطفال يلعبون وأحيانا يتشاجرون الى درجة التضارب وهن منشغلات بالثرثرة أو أشغال التريكو ٠ بالاختصار مدرستنا ــ على رأى المثل ــ مولد وصاحبه غائب ٠ الجلدة الفاسدة مرة أخرى ياسيدى ٠ لا غرابة اذن أن ينفض أكثر الأطفال عن المدرسة ، فأهلوهم وزراعاتهم أولى بهم ٠ أما الحريص على تعليم طفله فيرسله الى المركز ليتعلم فى احدى مدارسه الابتدائية اذا كان له أخ فى المدرسة

الاعدادية أو الثانوية هناك ، حيث تستأجر كل مجموعة من طلبة قريتنا شقة يتقاسمون غرفها كما يتقاسمون طعامهم ، يعودون كل أسبوع عابرين النيل الى قريتنا ليأخذوا زادهم من الطعام ، ورؤية أهليهم وأقاربهم وأحبابهم؛ أما الحل الآخر فهو أن يترك الطفل لذكائه يتكفل به فى تلك المدرسة مع الاستعانة من حين لآخر بالمدرس الخصوصى الوحيدفى قريتنا، وفى العام الماضى استطاع ستة من الاطفال أن يواصلوا دراساتهم حتى السنة السادسة الابتدائية ، لا تحسب أنى أقصد بالمواصلة النجاح من سنة دراسة الى أخرى ، فما أسهل النجاح فى امتحانات النقل فى مدرستنا ، فنتيجتها دائما مائة فى المائة ، انما أقصد بالمواصلة عدم التفات الاطفال أو أهلهم الى مغريات اللعب أو المعاونة فى العمل وهجر الدراسة الى الأبد • ولقد أدرك أهالى هؤلاء الأطفال أن نجاح أبنائهم فى امتحانات القبول أمر مشكوك فيه ، فلجنة الامتحان لاتعقد بالقرية بل فى المركز والمراقبون والمصححون غرباء عن أولادهم ، هناك لا مجاملة ولا تساهل ولا حرص على أن تكون النتيجة مائة فى المائة فما عساهم فاعلون ؟ ليس أمامهم يا سيدى الا طريق واحد سلكه غيرهم أو سلكوه هم من قبل مع أطفالهم الآخرين •

فصالح أحد المتعلمين القلائل المقيمين فى القرية ، كل من يتم تعليمه فى قريتنا يهجرها الى العاصمة أو الاسكندرية أو على الأقل الى المركز على الشاطىء الآخر • فقريتنا خيرها لغيرها • وقد يزور هؤلاء المتعلمون قريتهم فى أول عهدهم بالوظيفة ، يأتون أولا فرادى ثم يصطحبون زوجاتهم المدنيات بينما المربيات يحملن أطفالهن الرضع ، غير أن الزيارات ما تلبث أن تتباعد بتأثير الزوجات •• فاذا مات الآباء ، انقطعت زيارة الأبناء فيما عدا قلة تظل على اخلاصها لقريتنا • أما صالح فرغم أنه حصل على الكفاءة منذ أكثر من ثلاثين سنة وحين كان فى العشرين من عمره ، الا أنه لم يهجر قريته وان هجر مهنة الفلاحة ، تزوج ابنة عمه دون أن ينجب منها ، هى ترى هذا سوء حظ ويراه حسن حظ • المهم أنه عمل بمدرسة صغيرة فى قرية مجاورة ، كان هو مدرسها الوحيد ، فاذا عاد منها ظهرا انفق بقية يومه فى كتابة عرائض الفلاحين وشكاواهم كما كان ينفق جانبا من الليل فى جلساته المفضلة مع العمدة ومشايخ القرية وحلاق الصحة يتحدثون فى السياسة وغير السياسة • أما الجانب الأكبر من الليل فينفقه فى قراءة كتب السحر ومخاطبة الأرواح وعلم النفس والنظريات العلمية ، ومن هنا كان أصدق أصدقائى ، بل لعله صديقى الوحيد فى قريتنا ، لاسيما منذ بترت ساقه اليمنى على أثر مرض أصابها •

فلما افتتحت الحكومة مدرستها الغت مدرسة القرية المجاورة كما أغلق كتاب قريتنا، ومع ذلك لم يهجر صالح مهنة التدريس التى عشقها وعشقته• حاول أولا أن يلتحق مدرسا بالمدرسة الجديدة •• فقيل له أمامك عقبتان : عمرك وساقك ، مع أنه كان سيصبح المدرس الوحيد من قريتنا ،فلا يقف النيل حجة معه فى التأخير حضورا والتبكير انصرافا ، فلما حيل بينه وبين رغبته جعل منه الأهالى مدرسا خصوصيا لأطفالهم لاسيما اذا كانوا فى صف القبول للاعدادى • وهذا ما تعلمه أهالى الأطفال الستة • اتفقوا معه أن يتولى تدريس أبنائهم جميع المواد المقررة • فكنت تراه عصر كل يوم وهو يعرج بساقه الخشبية بين بيوت هؤلاء الأطفال •• نصف ساعة مع كل طفل يوميا ماعدا الخميس والجمعة • أما تحصيل الأجر فقد تكفلت به زوجته ، تمر على بيوت الأطفال يوم السوق من كل أسبوع لتجمع بعض البيض أو الزبد أو كيزان الذرة أجرا على مجهود زوجها •• هل تصدق أن شخصية هذه المرأة الهمتنى احدى نظرياتى الهامة ؟ من خلالها اكتشفت أن الشخصية القوية هى ببساطة الشخصية التى لا ترى الا وجهة نظرها • أما الشخصية التى تقيم وزنا لوجهات النظر الأخرى فهى تدفع هزيمتها ثمنا لانصاف الآخرين •• انها تقيم فى داخلها عيونا للخصم• وأول ما ينطبق ذلك على صالح وزوجته فيما يقوم بينهما من خلاف ، هى لا ترى الا وجهة نظرها وهو يرى



وجهة نظره ووجهـــــة نظرها . وماذا تكون النتيجة ؟ هى تقنعه وهو لا يقنعها ، هى دائما على صواب وهو دائما على خطأ ، وهى الضحية فى النهاية ، تصور .. أهالى بعض الاطفـال الذين يقوم صالح بتدريسهم فقراء يتحرج من تحصيل أجر منهم ، أما هى فتصر على أن تأخذ ما تسميه « حقهما » والا فكيف يعيشان ولماذا يصر هؤلاء على تعليم أطفالهم ، تصرفاتها تحرج صالح وتعجبه فى الوقت نفسه . لهذا تراك لها وتفحمه بذكر تفصيلات ووقائع حتى ولو ويستريح واعتادته القرية .. ذاكرته مشغولة بدراساته وتدريسه ، أما هى فذاكرتهـــا متفرغة لما يسميه تفاهات الحياة وتسميه حى ضروراتها ، وتستغل هى تلك الذاكرة حتى فيما ينشب بينهما من عراك ، تتذكر اهاناته لها وتفحمه بذكر تفصيلات ووقائع حتى ولو كان قد مضى عليها عشرون عاما ، بينما يحاول هو عبثا أن يتذكر شيئا مما بدر من جانبهـا ولو كان منذ ساعات،مما يضعف موقفه تماما ويجعل لها السيطرة فى المعركة ولحجتها التفوق. يصفونه فى القرية بانه طيب، لاحظت أن ذلك لم يحدث له أو ربما لم يتطور ويتضخم الا بعد أن بترت ساقه ، لعله يراعى ظروف غيره لأنه فى حاجة الى من يراعى ظروفه ، ولعل الطيبة ياسيدى تعبير مهذب عن الضعف . أما هو فيصف زوجته بأنها قادرة ، ويزعجه أن تبدأ به حتى لتدين تصرفاته فاذا وقع منها التصرف نفسه بررته . يقول انها شـــخصية مصمتة لا تنفذ اليها وجهات نظر الآخرين ، هى تبدأ المعركة دائما ، فاذا ارتفع صوته محتجا مدافعا عاقبته بالصمت ، أو بتعبير أبسط خاصمته ، انها تدرك شهيته للكلام ـ أو على حد قولها ـ نهمة للثرثرة ، فتعـــاقبه بحرمانه من حاجة ضرورية له ضرورة الشراب والطعام ، بل انه يحس فعلا احساس المحروم من الطعام فيتحمل الصمت يوما أو يومين ، غير أنه ما يلبث أن يحس جوعا حقيقيا للكلام معها لا يغنيــــه عن ذلك ما يثرثر به أمام الناس ، فهو لايستطيع أن يقـــول لهم كل شىء ، ولا أن يفضى اليهم بهمومه وأسراره ، وهكذا يشعر بالوحشـــــة والوحدة .. هل تعرف أنى قسمت حاجات النـــــاس الى ثلاثة أنواع ، حاجات ضرورية لوجود الانسان لا يصحب تحقيقها متعـــة له كالتنفس ـ الا اذا كان يستنشـــــق عطرا ، وحاجات غير ضرورية لوجوده يصحب تحقيقها متعة ـ وأى متعـــــة ـ كغريزة الجنس ، فهى



ليست ضرورية لوجوده كفرد على الأقل ، وحاجات ضرورية لوجود الانسان ويصحب أشباعها متعة فى الوقت نفسه كالطعام.وحاجة صالح الى الكلام كانت من هذا النوع الثالث، لا تقل انها ليست حاجة ضرورية ، فقد لا تكون كذلك بالنسبة لك أو لغيرك ، ولكن ليس بالنسبة لصالح أبدا ٠٠ لهذا فانه يجد نفسه مدفوعا الى تحطيم جدران الصمت التى أقامتها زوجته بينهما ، فيتحايل على ذلك مرة بعد أخرى مدركا من خلال قراءاته ـ وربما من خلال تجاربه معها ـ أنها لابد وأن تكون هى الأخرى قد تعذبت بما وقعت عليه من عقاب ، وأخيرا يحدث فى احدى الليالى دائما أن يجدا نفسيهما يتقاربان ويتهامسان ويتلامسان وقد جاع كل منهما الى الكلام وغير الكلام ،وان خفتت الشحنة الكهربية الجنسية بينهما ـطبعا بسبب تقدم العمر طبقا لنظريتى ، وربما بسبب معيشتهما معا وجها لوجه يوما بعد يوم ـ فاستحال ما بينهما الى علاقة لا هى بالألفة الخالصة ولا هى بالجنس المتقد ، بل هى عاطفة بين بين ٠٠ ومن يدرى فلعله لولا الصوم الذى تصطنعه زوجته من حين لآخر ما أمكن أن يشحن من جديد ما يعمل الزمن على تفريغه بينهما ٠

اسمح لى بأن أهمس لك بسر ما باح به صالح لأحد من قبل : فى بداية زواجه كان يمارس الحب يوميا الا اذا حال بينه وبين ذلك حائل ، كأن يكون على سفر أو مرض أو ترغمه هى على الصوم ٠٠ الى آخر هذه الاسباب التى لابد تعرفها ، نعم نعم كل يوم ، تصور ! قوة متدفقة عارمة رعناء يتباهى بها أمام زوجته وتؤكد لها فحولته ٠ فلما أتخمه الشبع ودب فيه الوهن تقلصت رغبته ـ لاسيما منذ بترت ساقه ـ فأصبح فى حاجة الى ما يغريه ويثير شهيته ، وكان ذلك يحدث فى ليلة الجمعة من كل أسبوع حين يستحم فيحس بانتعاش غير عادى كأنما عاد اليه شبابه من جديد ، وكانت زوجته تخرج أيضا من حمامها الاسبوعى ليكتشف أن أنوثتها الغاربة قد استعادت اشراقها ، فزالت عن بشرتها طلائع ذلك الملمس الخشن المنتشرفى خفية وتلكؤ هنا وهناك بحيث يكاد يلمس ولا يلمس وهو يزحف ويتسلل مع الزمن يوما بعد يوم،فاذا بجسدها قد أصبح أكثر ليونة وبشرتها أكثر نعومة وقد تضوعت منها رائحة ندية دافئة توقظ أحاسيسه وتنتشى بها عواطفه ، أما الآن ٠٠ بينى وبينك الليلة الاولى لاتعدلها ليلة أخرى ، فيها لذة الاكتشاف ونشوة الحصول والدهشة والمفاجأة وامتحان الحلم أمام الواقع ، وهو ما لايتكرر ـ ولا يمكن أن يتكرر ـ فى أية ليلة أخرى ٠ لهذا أنا أفهم زير النساء وأدرك موقفه وان لم أكنه ولن أكونه ، انه يريد أن يجعل كل لياليه ليلة أولى ،لايريد أن يتزحزح عن لحظة الاكتشاف والحصول ، انه يسأم التكرار ولا يطيق الألفة ٠٠ المهم أظنك تعرف الآن لماذا أدركت أنا من خلال هذه المرأة أنه ليس هناك حق أو باطل منفصل عن شخصية صاحبه ، بل هناك رأى يصدر عن شخصية قوية فيكون هو الحق ، ورأى يصدر عن شخصية ضعيفة فيكون هو الباطل ٠ بينى وبينك زوجها صالح يحسدها على ذلك ويتمنى لو كان مثلها ، وهذا ـ فى رأيى ـ هو ضعفه

الحقيقى .. بل هو يخشى - ولا يريد - أن يكون لنقده المستمر لتصرفات زوجته أثره عليها فتصبح مثله ، والا فكيف يهمل تحصيل أجره مالم تهتم هى بتحصيله له ، وكيف ينصرف الى « ضرورات » حياته مالم تنصرف هى الى « تفاهاتها » ؟ ولقد استوعب هذا جيدا من تجربة سابقة له ، فصالح يعلم ان القلق من طبيعته ، ولعل أكبر قلقه أن الدنيا ستنهد اذا لم يسر كل شىء فيها بنظام ودقة ، بينهما الهدوء -بل البرود- من طبيعة زوجته، أقصد أنه كان من طبيعتها . فكان كلما انتابته الأوهام سخرت منه ، ولا أقول طمأنته. وكان هذا مما يثيره بالاضافة الى ما يقلقه ، فيتهمها بأنها لا تشاركه همومه ، بل تضطره أحيانا الى محاولة اخفاء وساوسه عنها . ثم يثبت أن وسوسته لم تكن الا وهما أكل من أعصابه وأن طمأنينتها تقوم على احساس أكثر واقعية . وهكذا تعود كلما اجتاحته نوبة قلق أن ينظر فى عينى زوجته فاذا تلمس فيهما عدم الاكتراث أدرك أن وساوسه ليست الا مجرد توتر نفسى ولا علاقة لها بالواقع . غير أنه بدأ يلاحظ أخيرا -وبمزيد من الأسف- أن عدوى قلقة أخذت تتسرب شيئا فشيئا الى زوجته حتى أصبح يقلقها ما يقلقه ، مما جعله يفقد - بل يفقدان معا - قدرة التمييز بين الوهم والواقع ، من يومها أدرك أنه لا يمكن أن يستمر أسلوب حياته مالم تستمر هى أيضا فى أسلوب حياتها ، ولئن كان فى لحظات ثورته عليها يتمنى موتها أو موته ، فانه من ساعات صفائه يزعجه هذا الخاطر أيما ازعاج ، فهما كأى زوجين ناجحين - ولا أقول سعيدين - كفردتى الحذاء يختلفان ويتكاملان . لاتؤاخذنى فى هذا التشبيه ، هل ترانى استطردت كعادتى .. المهم أنه قبل الامتحان بيوم شوهد صالح وهو يصطحب الأطفال* الستة ويعبر بهم النيل الى المركز حيث أشرف على تدبير مكان يبيتون فيه خلال يومى الامتحان، واستعاد معهم ليلتها مواد اليوم التالى حتى تثاءب الاطفال فتثاءب معهم . وفى الصباح صحبهم الى لجنة الامتحان يطمئنهم ويبث الثقة فى نفوسهم ، وبين كل مادة وأخرى يراجع معهم موضوعات المادة التالية . وفى اليوم التالى فعل ما فعله فى اليوم السابق حتى اذا ما انتهى الامتحان استعاد اجاباتهم ليطمئن الى نتيجتهم ، فلما أقفل معهم عائدا الى القرية كان مطمئنا الى نتيجة تلاميذه منتبئا لأهلهم بالنجاح جميعا . فلما أعلنت النتيجة صدق ما تنبأ به بل فاقت النتيجة تنبؤاته ، كان أحد الأطفال الستة أول منطقته التعليمية كلها ، تصور .. بذلك كانت مدرسة قريتنا أولى مدارس المنطقة : نتيجتها مائة فى المائة وأحد طلبتها الأول على تلاميذ المنطقة كلها . وذهب صالح الى تلاميذه يهنئهم فيهنئونه ويقدمون له الشربات ، أما زوجته فلا تقنع الا بما هو أكثر من الشربات .

وفى مثل هذا اليوم من الأسبوع الماضى احتفلت المحافظة بعيدها السنوى ، قدمت فيه المنطقة التعليمية جوائز لهيئات التدريس بمدارسها المتفوقة وفى مقدمتها طبعا مدرستنا، دعى ناظر المدرسة ومدرسو السنة السادسة الابتدائية ومدرساتها ، وحصل كل مدرس ومدرسة على مكافأة قدرها خمسة جنيهات ، أما الناظر فمنح شهادة تقدير .

وحاول صالح أن يحضر الحفل فمنعوه بدعوى أنه لا يحمل بطاقة دعوة ، كان يريد استغلال المناسبة لمقابلة المسئولين بالمحافظة ويجدد محاولة تعيينه بالمدرسة ، أما هم فخشوا أن يزل لسانه ويفضحهم .. آه .. نسيت أن أخبرك يا سيدى أن الاهالى كانوا قد قدموا شكاوى - كعادتهم - فى ناظر المدرسة ومدرسيها ، وكان المحققون قد سبق أن رأوا حفظ هذه الشكاوى . أما الآن فقد تأكد أنها شكاوى كيدية وربما وجب معاقبة مقدميها . كما بدأ التفكير فى افتتاح فصل اعدادى ولولا قلة الاطفال لنفذ الاقتراح .ولقد أبى ناظر المدرسة الا أن يعلق شهادة التقدير على الحائط خلفه فى غرفة م .. كتـ .. به .. بال .. مد .. رسة .

تباعدت كلمات الرجل بعد أن كانت تتزاحم على شفتيه تزاحم العرق على جبهته

وعلى شعيرات شـــاربه ، ثم انخفضت حتى تلاشت ٠٠ عجلات القطار هدأت من جديد كأنما توشك أن تقف على محطة ، وأبصارنا اتجهت من خلال النافذة لتدرك أنه ليس ثمة محطة مقبلة ٠٠ يبدو أنه عطل في الطريق ، وأن هناك من يصلح العطل ، كانت هنـــاك أضواء كهربية قوية فبدا من خلالها العمال وقد وقفوا في شبه صف منتظم تعلو أصواتهم من حين لآخر بغناء غير واضح ليهووا بمطارقهم على قضبان الحديد ٠٠ حتى عبرنا منطقة العطل ليستأنف القطار سرعته ويســتأنف الرجل حديثه ٠

ـ لا تصدق أنه يمكن أن تكون الجلدة جيدة في معمل لأبحاث الفضاء ، فاسدة في مخزن للمكانس والجرادل ٠ فلكي يصل علماء دولة الى القمر أو الى الزهرة أو المريخ لابد أن يكون هناك موظفون قابعون في أحد المخازن على بعد مئات الأميال من العاصمة لاتنقص عهدتهم ـ عن اهمال أو سرقة ـ مكنسة أو جردل ٠ فهؤلاء اخوة أولئك وآباؤهم وأبناؤهم ٠

قلت مبتسما :

ـ هل هذه أيضا احدى نظرياتك ؟

أجاب ضاحكا :

ـ ولم لا ، فلنتفق على تسميتها « النظرية الكلية » أي أن الدولة كل لا يتجزأ ، لايمكن أن تختل ادارة دون أن يعني ذلك اختـــلال بقية الادارات ٠ أو ما رأيك في أن نطلق عليها اسم « النظرية الوبائية » ، فالخلل هنا كالوباء سريع العدوى سريع الانتشار ، فضلا عن أن هذا الاسم يحمل صفة الشر الذي يدل عليه، بينما تســميتها « النظرية الكلية » لايحمل الا صفة محايدة ٠

ثم كف عن الكلام ـ من تلقاء نفسه لأول مرة ـ وبدا أنه يفكر باحثا عن شيء ، حتى اذا ما وجده صاح فجأة :

ـ لكن لا ، الاسم الأول أفضل لأن حياده يجعل النظرية تنطبق في حالتي انتشـــار الجلدة الفاسدة والجلدة الجيدة أيضا ٠ لاحظ أنني أدقق في اختيار عناوين نظرياتي ٠

تدخل الطالب المجاور لأول وآخر مرة في الحديث قائلا : لعل المسألة مســألة زمن ، لابد من الوقت ليقتنع الناس حتى بمـــا في صالحهم ، لابد من الوقت حتى تظهر النتيجة ٠

شرد فكر الرجل وهو يعيد في شبه آلية : النتيجة ٠٠٠

النتيجة ٠

ـ النتيجـــة يا ابني ألا يكون التعليم ليس مجرد تلقين معـــلومات ، الطفــــل يتعلم من تصرفات أستاذه أكثر مما يتعلم من أقواله ٠ هذا الكلام لا بد أننا نعرفه من قبل جميعا ٠ فاذا كانت الجلدة فاسدة في المدرسه أصاب الرشح الاجيال التالية ، بل ســـارت الأمور الى أسوأ ، ولن يصبح الزمن يا ابني معنا بل ضدنا ٠ ننقرض كما انقرض من قبلنا الهنود الحمر ،ومن قبل قبلنا قوم عاد وثمود٠ معظم من عملوا في وحدة قريتنا نشأوا بلاشك في مدارس من نوع المدرسة في قريتنــــا ٠ المدرسة التي تعلمت فيها أثناء طفولتي لم تكن تعرف التهاون ، المدرسون لايتهاونون مـــع أنفسهم ولا مع طلبتهم ٠





قاطعته ضاحكا :

ـ ولعل السبب أنهم لا يحــاولون تطبيق نظريتك فى الخير المطلق ، فهناك دائما طرف يحاول ان يستفيد على حساب الطرف الآخر لا يدرى أنه يدمر نفســـه من خلال تدميره الآخرين •

تهلل وجه الرجل قائلا :

ـ لعلك أدركت الآن نظرية الجلدة الفاسدة يا سيدى ، المهم ••

انطفأت مصابيح عربتنا •• هل تسمعنى ؟ بعض الناس يكون أفضل اصغاء اذا تعطلت حواسه الأخرى وركز انتباهه في أذنيــه •• أنا لا أسمع جيدا ان لم أر محدثى ! ••• حتى الراديو لا أســـمعه جيدا ان لم أره أمامى • السمع عندى مرتبط بالبصر •• يبدو أننا على مشارف القاهرة •• أضــواؤها البعيدة بدأت تعلن عنها فى عتمـــة الليل ، والرجل يفجؤنى بقوله :

ـ أنا الآن مسافر لمقابلة المســئولين فى القاهرة لتعيينى بالمدرسة ، المهم تلاميـــذى أصبحوا الآن من كبار الموظفين ، أحدهم فى وزارة التربية بالذات ، توفى والده منذ أكثر من عشر سنوات ، لم يعد يزور قريتنا ، عمه جارنا ، معى خطاب منه ، خطاب عادى فيــه تحية وسلام ، قلت أوصله باليـــد بدلا من ارساله بالبريد ، ليس خطاب توصية ، لا لا ، انه لاشك يذكرنى ، التلميذ يذكر أســتاذه دائما ، أما الاستاذ •••

عاد النور الى العربة ، وعندما لمحنى أتفرس فى قدميه كأنما لأعرف أين ساقه الصناعية علق قائلا :

ـ قبلها لم أكن أخشى شيئا ، أما منذ بترت هذه ، فقد بت أخاف شيئين : البحر والنساء•

سألته مداعبا لأبدد ما أصابنى من دهشة ووجوم : لم تكن تخشى كل النســـاء ؟ فهم ما أرمى اليه فقال : تقصـــد زوجتى ، هذه شذوذ عن القاعدة ، والخوف هنا من نوع آخر يا سيدى ، تصـــور لم أكن أفهم معنى قولهم ان المرأة مصـــدر الهام حتى الهمتنى زوجتى نظريتى عن قوة الشخصية وضعفها •

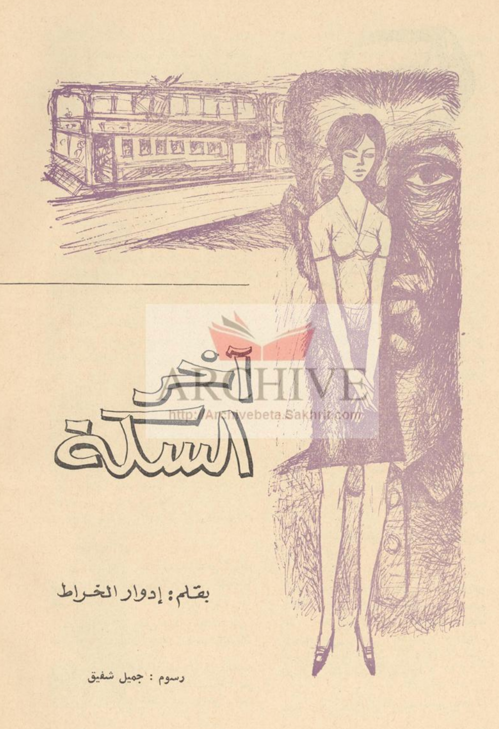
وضحك ضحكته المجلجلة من أعماق قلبه •

وعندما بدأت أنفض عنى غبار الســـفر ، وأعد حقائبى تأهبا لمغادرة القطار فى محطة الجيزة ، قال صالح ضاحكا : لم أحدثك بعد عن المشرف الاجتماعى والمشرف الزراعى •

أجبته ضاحكا بدورى : عندما نتقابل فى قطار مرة أخرى •••

فلما أصبحت على الرصيف ودعتـــه من النافذة فودعنى بعينيه المدهوشـــتين ، حتى اذا ما اختفى القطار تماما ، كان دوى العجلات ما يزال يطن فى أذنى : تصـــور •• المهم ، تصور •• المهم ، المهم •• تصور •• حتى تلاشى فى ضجة المدينة وزحامها •

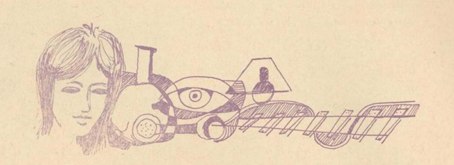
(ديسمبر ١٩٦٦ ـ ديسمبر ١٩٦٧)



آخر السكة

بقلم: إدوار الخراط

رسوم: جميل شفيق



حس الرمل تحت قدميه ، هش ، طرى ، به بلل من المطر الذى ظل يسح هينا طوال بعد الظهر· والى جانبه يرتفع سد من الأحجار البيضاء الضخمة ، تلوح رمادية مفتتة السطح ، من ورائها أغصان أثيثة داكنة · وقطرات ثقيلة من الماء تسقط ، من الشجر المتكاثف المشبع بالرطوبة ، على الحجر ، وعلى رمل الطريق الضيقة ، لها وزن أصم يتبدد بصمت ، فى كتمة المساء ، لا يخفف منه هواء البحر الذى يكتسح البيوت فى هبات مفاجئة ، به طعم الملح· وهو يرفع ياقة معطفه الجبردين على مؤخرة عنقه ، يحس تحت شعره دسامة العرق القديم وندى البلولة الجديد ، يحتمى من هجمة الهواء ، وسقطات القطرات المشبعة من على الأوراق المعتمة الخضرة ·

والطريق تنحدر بسرعة · وتنفجر خبطة مصراع نافذة على حائط ، فى السكون ، بفرقعة · فيرفع عينيه الى أنوار خافتة تتخايل وراء الزجاج المغبش فى النوافذ الصغيرة العالية وتكشف عن متاع الحياة اليومية الرث فى الغرف المكظوظة الموحشة بمقدم الليل : داير السرير الدانتلا الأبيض الكابى ، على قضبان حديدية سوداء رقيقة معوجة ، صور باهتة من مجلات ، مثبتة على بياض الحيطان، مصباح عريان عشرين شمعة مدلى من السقف بسلك رفيع ساقط باستسلام ، دواليب مائلة مثقلة بالحقائب والكراكيب ·

وحركة جسمه المنحنى الى الأمام تتزايد قوة واندفاعا بانحدار الطريق الى سلالم المحطة، وكأنما استراح من مضضه باقتراب أنوار كوخ المحطة الخشبى، يحيط به افريزه المشبك على نسق أرابيسك مبسط ، يشع النور من خرومه الهندسية · وهو يراه من فوق ، والقرميد الطوبى اللون يلمع من البلل وتتعلق بأطرافه دانتلا أخرى ثقيلة من قطرات ماء تتشبث بحافته لا تريد السقوط ، بعناد واهن ولكن لا ينهزم ·

وهو ينحدر على السلالم العريضة ، المغطاة بالرمل ، الى رصيف المحطة ، أخيرا · والقهوة القريبة على الرصيف مغلقة الزجاج ، دافئة من الداخل ، كثيفة ببخار الأنفاس والدخان · وخطوط الترام تمتد سوداء ، متألقة بقوة خاصة فيها ، بطاقة كامنة نائمة ولكن متحفزة، تنتظر العجلات المدوية المقرعة لتنطلق منها

دفعات الانطلاق الى عالم آخر جياش ، مزدحم ، مفتوح ومنير •

تأخر الترام •

وليس على الرصيف أحد غيره فى هذه المحطة التى تشتعل أنوارها له وحده ، وقد أوى الى الركن الخشبى الذى تفوح منه رائحة عطن قديم حلو ابتعثته الرطوبة وهواء الليل • وجفاف الرصيف الصلب تحت سقف المحطة يرضى حس قدميه تحت جلد الحذاء المبلل • وليس فى الجو برودة ، بل شتوية أكتوبر ونعومة سماء المساء المبكر ، العذرى ، ما زال منيرا بوهج محمر توشيه دكنة السحب الجهمة المقطعة التى يجرى بها الهواء سريعا صامتا فى مدار آخر • ونجمة وحيدة مشعة تجرى مع السحب ، تبدو وتختفى ، تتسرب فى بهجة حميمة مغلق دايما •

وأخيرا جاءت القرقعة البعيدة التى تؤذن بمقدم الترام ، يقترب بسرعة منبئا بشحنة مكتومة ، والنور البنفسجى الكابى فى مقدمته يتألق ويكبر ، والكتلة العلوية الضخمة فوقه كأنها آتية قبله ، مطلة من فوق ، ممدودة ، تنذر بتهديد غير مبرر ، والأنوار من نوافذه تتحرك على جانبيه بسرعة على رمل السكة ، وتتعاقب على جانبى الطريق الممتدين تحت حيطان البيوت وأشجارها •

واقترب الترام ، بضجيجه ونوره ، فى أول المساء ، بما يحمل من وعد متفجر ، ولكنه لم يتحرك ، كأن ارادة أخرى تفرض عليه وقفته الجامدة فى المحطة • وغض الترام من اندفاعه ، وعبرت به قامة السائق وهو يدير عجلته فيوقف القرقعة ويحيلها الى دقات معدنية تصلصل وتتتابع فى بطء ، ثم الى هدير أخير ، ونشيش يهبط الى زفير نهائى مرتاح ، وينطفىء الى صدمة الانقطاع ، والتوقف الكامل ، وسكتة لحظة الصمت • والهدوء تنبعث فيه فجأة أصداء القهوة وحفيف ورق الشجر فى السكون الفسيح •

ومن السلالم الى الرصيف ، نازلة بسرعة ، تندفع • رشيقة ، خفيفة ، الى سلم الترام تتعلق به لترفاه بخفة • والهواء يطير بجانب سترة البلوفر الملقى على الكتف المدورة ، الرخصة اللينة ، ويدها ، بحقيبتها الصغيرة ، تمسك بالجانب الآخر من البلوفر تضمه الى ما تحت صدرها • ونور الترام يشعل شعرها المسبط البنى المتوهج المتناثرة منه خصلة طائرة على جانب الوجه الأبيض الغامض المعالم •

نعمات • جاءت فى اللحظة الاخيرة •

وانفك على الفور توتر مقبض كان يثقل دماءه • ووجد نفسه ، دون أن يدرى ، على سلم الترام ، معلقا بالحاجز الخشبى الأملس الزلق ، قدمه على الحديد الأسود اللامع ، وقدمه الاخرى فوق ، على خشب الترام • يكاد يحيط بها بذراعه ، قريبا منه نفح ملابسها وجسمها ، هذا العبق الحميم الخاص الذى لا يكاد يتميز فيه رائحة ما ، ولكنه هناك ، فيه نفس ودفء يعرفه معرفة وثيقة مباشرة ، يتغلغل فيه ، كأنما هو ينتظره فى كل مسامه الداخلية البعيدة •

ويمد يده فيفتح لها باب الترام الزجاجى ، وتدخل بحركة تلقائية دون أن تستدير اليه ، وما زالت تنهج من سرعة اندفاعها لتلحق بالترام ، ولكن شيئا ما يدفعها الى النظر وراءها : يده الممدودة على الباب ، توتر حسه بها ، البهجة العارمة المكتومة تضج بها دماؤه داخل أسوار الجسم ، ترحيبه الصامت باللقيا بعد جمود الانتظار ، شىء ما دفعها للالتفات بسرعة • صدمة المفاجأة ، وانفتاح التعرف ، وبهجة الانتصار السريع باللحاق بما كانت تجرى وراءه ، والعثور عليه فى وقت معا ، والامتنان للمجاملة اذ ينفتح لها الباب ، لعل ذلك كله ، وغيره ، قد نزع قناع الوحدة عن وجهها اليانع الحلو ، وأزاح صلابة الصمت والانعزال ، فتنهمر ملامحها كلها فى ابتسامة المفاجأة والفرح ، وتستضىء ، وتسطع باشراق جديد • كأنها وجه جديد :

ــ الله •• شوقى •• انت هنا ؟ كنت فاكرة نفسى متأخرة •

ـ طيب نقول مساء الخير .. السلام عليكم .. بونسوار ، أولا .. !

ضحكتها المرحة ، فيها أنفة قديمة ، خفتة وغضة وأنثوية ، وفيها لمسة من شقاوة ومعابثة :

ـ مساء الخير يا سيدى . السلام عليكم.. بونسوار أولا .. أمرك .

بهمس ، حتى لا يسمعها الركاب الآخرون الذين يثبتون عليهما نظراتهم المستطلعة ، الجهمة ، كان فيهما منذ الآن تقريع وتانيب وادانة ، وهما يشقان طريقهما ، وهو يصطدم ، مع تأرجح الترام ، بالقوائم الحديدية اللامعة فى الممر الضيق ، حتى يصلا الى الجلد البنى الداكن ، تحت زجاج نافذة ما زالت تهمى عليه قطرات متسايلة صافية ، من الخارج .

وجلس الى جانبها ، فى حرج طفيف من الاستقرار والاستعداد للرحلة القصيرة ، تحت أنظار الناس . والكمسارى يتجه اليهما ، كأنهما هدف ، وعليهما ـ عليه هو على الأخص ـ ان يتخلص من أسار هذا القصد ، هذه النية التى تحيط بهما . فيدفع للكمسارى الثمن ، وتخرج هى بطاقة اشتراكها بصمت من حقيبتها . ويقف الترام ، وتنطلق الصفارة ، وتقرقع العجلات ، وينطلق الحديد والكهرباء فى زفيف على خط الرمل الطويل ، فى غبشة المساء المتزايدة ، ولا يركب أحد ، فتنفرج دائرة الحرج والضيق ، ويخف ضغطها ، ويحتدم حسه ، مع هزات الترام الرتيبة ووقفاته واندفاعاته المتلاحقة ، بوجودها الى جانبه ، قريبة جدا . جانب معطفه يمس ساقها المسحوبة الرشيقة ، وهو دفآن فى حسه بها ، على الجلد القديم الوثير ، ذراعه المتوترة فى كن جاكتتها الملقاة على كتفها ناعمة الصوف نعومة جزء من جسمها ، وصدرها يثقل البلوفر الخفيف الطرى بلدونة خصبة لا يكاد يتضح معها الحز الداخلى المستدير ، وهى تهز رأسها وتفتح حقيبتها لتمرر المشط بسرعة وخفة فى شعرها الأثيث



وتلتفت اليه بنظرة مسترقة مخطوفة كأنما تدعوه أن يتكلم .

ولا كلام عنده ، فى زحمة الضجيج الذى يمور بداخله بلا لغة .

عيناها ، عيناها الغريبتان ، نافذتان على عالم أجنبى ، بلونهما الأصفر الصافى ، مترقرقتان ، واسعتان ، قطرتان من ماء أجاج على زجاج لامع ، والخط الأسود الرقيق على الحافتين ، والظل الاسود الخفيف على الجفنين .

ماذا تقول العينان ؟

ـ عندك الليلة شغل كتير ؟

تريد أن يتكلم ، لكنها لا تقول شيئا .

ـ أبدا ، تلات أربع ورقات تحاليل ، أخلص منها وأروح للمحامى ، بعد اذن سيادة الدكتور .

ـ لكن سيادة الدكتور مش جاى الليلة ، أو يمكن ييجى متأخر .

ـ بركة يا جامع . أهرب نصف ساعة وارجع . ولا من شاف ولا من درى . انت سمعت حاجة ؟ عرفت حاجة ؟

ـ بس بقى .. مش حتبطل تزويغ ..

هل هى تعرف شيئا ؟ هل سمعت أحاديثهما فى التليفون ؟ بلا شك . نعم ، انه لم يقل لها شيئا صراحة . وهو قد خلع الخاتم من زمان . منذ أن انجابت نشوات الأيام الاولى ، واضطراباتها ، ودفقات جنونها ،

وهى تعرف أنه يعيش وحده مع أمه واخوته ، بل تعرف أيضا بيتهم من بعيد · لكنها تمسك أيضا بيدها كل الخيوط · ولا شك أنها عرفت قصة زواجه وخلافه وانفصاله ، وهى على التليفون تستطيع اذا أرادت أن تسمعه يطلب المحامى ويناقشه ، ويتفق مع الوكيل على المواعيدوالاجراءات ، وتستطيع أن تستخلص لنفسها الحكاية كلها · ومرة واحدة سمعتها مباشرة عندما طلبته من الخارج - على أنه قد حذرها الاتصال به على أى نحو - وصوتها الأنثوى الخشن العنيف · وعاكسته يومها ، فى معاتبة تبدو بريئة كل البراءة ، لكنه لا يعرفان كانتمحملة بالتضمينات والتلميحات، حولت اليه الخط ، وبعد أن أنهى مكالمته الصاخبة :



- الله الله يا سى شوقى ، مكالمات خصوصية فى الشغل ؟

هل استرقت السمعيومها ، من على مكتبها من وراء الحاجز الزجاجى ؟ كانت العيادة مزدحمة بأصحاب التحاليل ، غائصين على مقاعدهم العتيقة المشققة الجلد فى الانتريه المعتم المترب المرتفع السقف · وبعد انتهاء المكالمة خرج ومد ورقة متعللا بأنه يبحث عن التمرجى ليعطيها له ، كأنما هى ورقة مهمة بنوع خاص · وكان الدكتور فى المعمل أمام أنابيبه العكرة ومواقده التى تئز بنار محددة كاشفة ، وقواريره المليئة بالسوائل الكثيفة والصافية · ونظرت اليه من وراء الزجاج ، وهى ترد على التليفون ، نظرة غائبة ، ورفعت الخط وأوصلت الفيشة بحركتها التقليدية الكفء السريعة ، حركة بنت تعرف شغلها وتجيده وتنفذه بفعالية تامة ولو كانت مغمضة العينين ، ليست هناك · ولكن هذه النظرة البعيدة ، ونور الصبح ينعكس من النافذة الجانبية على العينين الصافيتين ، الحاويتين ، فى هذا الاتساع الاصفر الموحش الذى لايطرف ·· هل سمعت؟ التوسلات ، والتهديدات ، والدموع ، والاستنجاد بالذكريات ، وابتعاثات حنان ضائع ، والتعلات ، وبكاء ندم لايعرف ولن

يستطيع أبدا أن يعرف ان كان حقيقيا أم مرتجلا من وحى اللحظة ـ فهو حار وموجع ولكنه أيضا قلب وختل ، هذا يعرفه ٠٠ وعليه أن يسد قلبه أمامه ، والا فلا نجاة ٠ وألجأته فى النهاية أن يقفل السكة ، بعنف ، واحتدام مكتوم ٠ فهل سمعت الحكاية كلها ؟ حكاية توجع القلب ٠ ولكنه سيخلص منها قريبا ٠ وأحس آهة الكمد بعد أن أفلتتمنه ٠ لابأس، المحكمة سوف تحدد لها النفقة ، وينتهى ، ينتهى ٠ وقد أعطاها كل شىء ، أثاثها الذى اشتراه هو بسهر الليالىوألم الكتفين وانكسار الظهر وزيغ العينين من الدق على الآلة حتى الصبح ، شهرا بعدشهر ، بلا نهاية٠و «ورقة الضد » على نفسه حتى تأمن على نفسها ، وصورها أيضا وخطاباتها الزرق الساذجة من أيام الغزل الأولى القديمة الغائرة فى القدم ، كل شىء ، فساتينها وملابسها وقمصان نومها: قشور النايلون الملونة التى طالما أماطها عن ثمرات دب اليها العطب فلم يعد فيها الا لحم مهدل نضبت عنه سلافة المحبة والتواصل ٠ كل شىء أخذته معها ٠ وأخذت معها جذاذة ضخمة مزعتها أيضا من حر نفسه ومن أطيب اجزاء عمره ٠ أتندمل قط هذه الفجوة الغائرة فى لحمه ويرم الجرح الذى نغل وضرب ؟ أيجف أبدا قطر المرارة والصديد والدم المتخثر بالعراك والمشاحنات ؟ وما الجدوى الآن ؟ سممت أيامه ، وطينت بالوحل عيشته ، نعم، وعليه الآن أن يظل يدفع الثمن ، ثمن شهوته وشفقته ، وجنونه وتمرده ، ومتعته المعجونة بالجسد الملوث الوثير ٠ وقد دفع ، دفع ، فهل يخلص أبدا ؟

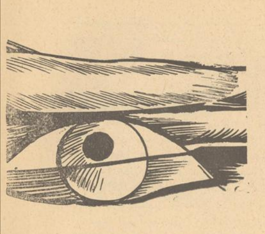
ـ ايه ده كله ؟ اللى واخد عقلك يتهنى به٠٠ وصلت لحد فين ؟

لن يعرف أبدا ماذا تقصد بهذه الكلمات ، وما يشبهها ٠ دائما تنكشه ، وتخزه ، بلهجتها التى تبدو مجردة مستقيمة عارية من كل كناية ولكنها تحمل ثقلا ٠ لن يعرف ابدا ما رسالة هذه النظرات ، هذه الضمة للشفتين الرقيقتين الرفيعتين تغلقهما على كلمة لم تتخلق بعد ، أو لا تريدها أن تتخلق ، لاتريدها أن تتخذ لنفسها صوتا يعطيها القالب والنهائية فيستطيع أن يواجهها ، أن يتعامل معها ، أن يمسك بها ٠٠ ولكن أهذه الكلمة هناك ؟ أم هى وهم فى ظنه وحده ٠

وفى سؤالها نبرة حنو لا يمكن أن يكون متوهما ، جرس طيب أموى يبره وينحنى عليه مهما كان فيه من دعابة ومعابثة ٠ واصطدمت يدها الى جانبه بيده ٠ بعفوية ؟ صدفة ؟ لا يعرف ٠ لا يعرف ٠ لكنه يحس هذه اللمسة التى طالت قليلا ـ لحظة واحدة أكثر مما قد يكون عاديا وتلقائيا وعفويا ـ لمسة يدها بيده من على «الجيب» الصوفى الثقيل الوبرة ، من على الاستدارة المليئة ٠ هل فيها ضغطة خفيفة مقصودة مرت كاللمحة ، واختفت ؟ أم ليس فيها شىء ؟ ما معنى هذه الاصطدامات العذبة التى ما تفتأ تتكرر ؟ هذه اللمسات التى تجىء ـ دائما ـ كأنما عن غير قصد ٠٠ ؟ مس الأصابع الرقيقة المرهفة العظم ، فى زحمة النهار ، والعمل ، والمواصلات ٠ مرة عندما يعطيها ورقة تحليل ، كأنه يهبها شيئا ثمينا وكأنها تتلقى الهبة ٠ وعند صعود السلالم ، صدمة اليد باليد على ثنية البطن الطرية ، خطفة زمن هاربة ، على مشارف عالم ملىء بوعود نشوة مصفاة ٠ وحس النهد الطيع على ذراعه عند المرور فى طرقة ضيقة ، لمسة لا تكاد تحس لكنها خصيبة ، ووثيرة ٠ عابرة ولكن كأنها لا تحدث فى الزمن ، ونظرة معها فيها دهشة وسؤال ورضى وعمق لا يسبر غوره ٠٠ ما الكلمة التى لا تريد أن تنطلق ؟ ما الرسالة التى لا ينفك رمزها ؟ أهناك كلمة ورسالة ؟ نعم ، نعم ، كلمة مركبة ، ومعقدة٠ أين المعمل الذى يحللها فيه ، وأنبوبة الاختبار الدقيقة المستطيلة التى تستدير ببطء على لهب « بنسون » يلعق زجاجها ويرسب أملاحها ومعادنها من تحت المياه الصافية الخادعة ؟

والترام يمضى فى عشوة الليل الزاحف ، مندفعا بزفيفه وجلجلته ، بقوته الخاصة المتفجرة ، مغلقا على نفسه يشق طريقه على

القضبان الحديدية القابضة ، مشحونا بطاقة عنيدة عمياء ، يخترق السواد المجهول الحالك ٠ والأنوار من نوافذه الجانبية تجرى معه ترتفع وتنخفض وتستدير ، تلاحقه وتنتصب فجأة على جدران الرمل المتصلب القائم على الجانبين، فى أكمات قريبة مهددة ، مشققة بخدود أفقية متعرجة خطتهـا مياه الأمطار وسفعات الريح عبر أزمان سـحيقة ، وتنبثق من الرمال ، بحبوبها وكراتها وخطوطها ، حرشات صغيرة خضراء خشنة تسـطع فى النور بلون وحشى وتختفى بأوراقها الكثة الداكنة٠وتنهار سدود الرمل وتتراجع من على السكة لينفسح الليل عنبراح مفتوحمعتم ، البحر بحضوره الغامض على مقربة ، أنفاسه الرطبة بملوحتهـا المبلولة تهب علىصهاريج البترول : ضخمة ، مستديرة تلمع بالق معدنى باهت البياض ، جاثمة تحت سماء قاتمة ، أثداء هائلة راسخة على ضلوع الارض ، كاملة الاستدارة ، صـلبة تختزن العصارة المعدنية التىتغتذى منها المدينة وتدر لبنها الحريف الرقراق فى الشرايين الظمأى الى الطاقة والقوة العمياء، ينطلق منها ألف حريق صغير مجنون محصور ، كل لحسابه وفق طريقه المرسوم ، على مسـارات التوفز والتوقف والانطلاق ، كل فى حدوده ٠٠ ترقبه عيون ساطعة حمراء وصفراء وحمراء ، تشق جسد الليل بالف جرح محسوب ، متفجرة كلهـا بالصراخ فى ظلمة المدينة ، شرارات تتـوهج وتنطفىء ، تتناثر منبثقة من مسام الجسد ٠ ومياه ذهنه ثقيلة برواسب مرة الطعم ، ملحية يمجها اللسـان ٠ لماذا الترام يختط هـذا الطريق ؟ أهذه شوتس٠٠المكس ٠٠ العصافرة ٠٠ العامرية ٠٠ أم القبارى ؟ هذه بلدته ، هذه الاسكندرية ، وخطوطها مرسـومة على قلبه ٠٠ لكنه الآن لا يعرف أين هو منها ٠٠ ورائحة المدابغ الثقيلة الهاجمة تسطع ، ثاقبة تنفذ اليه من شباك مفتوح ، جفاف صحراوى محمل بعبء نتن لا يطاق ٠ سـحابات ليلية تهب به من نفاية افرازات الحيـاة ، الجلود المشبوحة العفنة تنسلخ من حياة الى حيـاة ، عبر محنة الموت والمجزرة ، وخبائة الذفر ، مزقا دقيقة ماكرة الصنعة منمنمة ملساء تحيط



بالأقدام الصغيرة النضرة ، وتودع فيهـا الأسرار الصغيرة الأثيرة ، ومفاتيح العـلاقات بين أيادى الناس ، والرموز المخططة الصامتة بكل لغة ، جلود الحياة المتفجرة الخشنة القديمة تغدو جلودا أخرىمصقولة ملفوفة حول حيوات أخرى مكتومة تجرى فى مساراتها ٠

ـ أبدا ٠٠ ما وصلتش ولا حاجة ٠٠ كنت سرحان شوية كده ٠ تعرفى امبارح ما نمتش لغاية الساعة اربعة الصبح ٠

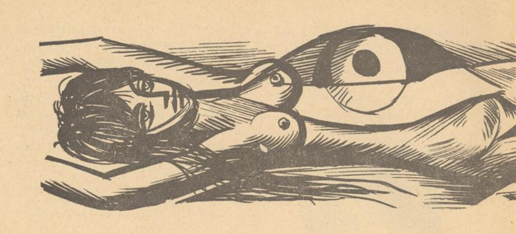
ـ يا خبر ٠٠ ليه ؟ خير ؟ كنت عيـان والا ايه ؟

ثم استدركت ، ولمعت عيناها بنورهمـا الأصفر :

ـ والا العيار تقل عليك ؟ كنت فى سهرة لازم ٠٠

فى لوم واتهام ٠

واحتدمت ثورة صغيرة محبطة فى داخله ، وحلف لها ، وصدق هو نفسه حلفانه ، ومر القسم والتصديق مرور غاشـية تعكر ثقل صفو ما ، صفو رازح الركود لكنه مسـتقر ٠ وجدت فى غرفتى كتابا قديما بلا غلاف ، من مهمـلات البيت ، فى ركن الدولاب ٠ كله حكايات غريبة ، تلك التى يسمونها خرافات٠ حروب قديمة من أيام الرومان أو اليونان أو



مثل هؤلاء النـــاس ، من أيام الاســـكندر والفرس ، وأسماء أخرى لا أذكرها الآن .. عن عاشق ينظر فى الماء ويتحـــول الى زهرة نرجس ، عن بنت تصبح شــجرة .. والله ما كنت نائما ، لكنى لم أكن متيقظا أيضا . لم أكن أحلم ، ولكن لم أكن أستطيع حراكا ، مهيض العزم ، متجمدا . حالة عجيبة . لا . لا ، لم أكن قد شربت شيئا والله العظيم . صحيح . كانت هنـــاك واحدة ، كالغولة فى الحواديت التى كنا نسمعها ونحن أطفـــال . تنظر الى الناس ، والحيوانات ، فتصـــبح كلها ، من نظرتها ، حجرا .. والاشجار ، وكل شىء ، أحجار جامدة . كل ما تنظر اليه . لا يستطيع حراكا . والعرق يتفصد منى ، يتفصد منى ، حتى النفس ما عدت أحس به . ولكننى كنت مفتح العينين . وكان فى الغرفة نور . لم أكن أحلم ، لـــكنى لم أكن أتحرك ، ولا أريد أن أتحرك .. ياه .. لم يكن الليـــل يريد أن ينجاب .. أبدا ـ ياشيخ ، لابد أنك كنت تحلم ـ أبدا ، أنا متأكد .. هل كنت أحلم ؟ أبدا .. هل هناك ما يحول بينى وبين الحلم ؟ الشىء الوحيد الذى لا رقابة لاحد عليه ، لا أحد يتحكم فيه ، لا شأن لأحد به . كنت أنت يا نعمات ليلتها أمامى ، راكعة على الارض ، ينسدل عليك قميص نوم أبيض ناعم النسيج، قميص سابغ ينزل من على كتفيك بانفساح ، الى الأرض ، يخفى وراءه جسدك كله ، حتى ذراعيك يحيط بهما كم لصيق ، حتى الرسغين، وكان ثم صـوت تدفق للميـــاه ، تهضب وتتسلسل فى خرير مستمر تحت الأرض ، كأنه فى غرفة سفلية ، فى الدور الارضى من البيت . حنفية مفتوحة منصبة فى مجرى ما ، فى الغرفة ، كما ينصب ماء المطر على جوانب الشارع . ولكن الشارع هنا يجرى فى الدور الارضى من البيت ، بين الحيطان ، فى الليل ، لا يهتم به أحد . ورفعت الى وجهك يانعمات ، فى العتمة ، مشرقا ، أبيض . وقبلتك . شفتك العلوية الرقيقة انفتحت تحت فمى ، والشفة التحتية المكتنزة ، داكنة الحمرة . فى ضـــمة ريانة ناعمـــة الملمس . ويدى حول عنقـــك الباتعة ، المدورة تحت الشعر الهش الأثيث ، زهرة رائعة منبثقة من الأرض . وأنا أمص الرحيق ، بشفة مكهربة . كل الرقة ، وكل المحبة . كل العزاء . وتيقظت ، أرتجف .. وفى قلبى رقعة فسيحة من رضى شامل ، مرتاح ما ان استيقظت حتى أخذ يتحيف من أطرافها قلق متوفز ، لاسع الاسنان . كأننى اجترحت اثما ما ، لا أفهمه . نعم ، هذا هو الحلم . لكن قلبى دبأه وداراه وتحوط عليه ، كأنه لقيـــا يطمع فيها كل قلب . ماذا بقى منـــه الآن ؟ خيط واه رفيع يتموج فى قلب مياه ضحلة ، لا لون فيها ولا كثافة . لكنى بالأمس ، لا ،

لم أكن أحلم والله ، أبدا ، كنت مفتح العينين، فى الصبح وجدت نور الغرفة مضاء ٠٠ الله ٠٠ أما كلام فارغ صحيح ٠ أنا عارف ما هذه الكتب ؟ بلا غلاف ، ولا عنوان حتى ٠ ولكنها مؤثرة ، تدير الرأس ، كتب الناس القدامى هذه ٠ لابد أنه كان من كتب أبى ٠ الله يرحمه ٠٠ أمنا الغولة ، نظرتها تحول الناس الى حجر ٠٠ !

وضحك ٠ كانت عيناه جامدتين ، لا ضحك فيهما ٠

– ايه ٠٠ وصلت لحد فين ؟

التفت اليها ٠ وصلنا ٠ وضحك ،بسهولة فيها توتر خفيف ، هى تبتسم ، عن أسنان غير مستوية فيها شتت محبب منفرج ، عن رضاب لامع – لاحد لعذوبته ، يعرف سكره – ابتسامة حلوة وغامضة وجذابة ٠ وكانت عيناه تضحكان ٠ كانت بيوت الازاريطة العالية قد تراجعت ، ومبنى هيئة الصحة العالمية بأعمدته الرومانية الجديدة وسلالمه العريضة ، ومئذنة جامع القائد ابراهيم العالية ، وأشجار النخيل الهندى فى الحديقة، واهتز الترام وهو ينحرف بسرعة فى تفريعة خط المحطة ، فألقى اندفاعه به بازاء جسمها ، لكى يستقر عليه لحظة ، فى تماس حميم صلب ٠ ثم انطلق نحو وقفته الأخيرة فى الضوء والحركة وزحمة أول الليل ٠ واضطراب الناس يهجرون القوقعة الدفيئة المضيئة بنور لدن منصب بسيولة من مصابيح مستديرة هادئة ، كاللبن الدسم ، على الخشب الاكاجو الاصفر الداكن ، على الجلد البنى الطيع الغنى القتامة ٠ وفى احتكاك الاقدام البطىء فى طرقة الخروج الضيقة ، والناس يدفعونه من الخلف ، مد يده يسند ظهرها أمامه ، وأصابعه تستقر لحظة على صفحة الكتف العريضة ، تلقى مقاومة العظام الرقيقة المغلفة بالليونة الناعمة، ويحس تحتها بالشريط المشدود على الظهر من وراء الصوف المنسدل المحبوك ، وينفجر مجد المساء الاحمر فى انفساح السماء على الميناء الشرقية ، وقد عمق الشفق وازداد كثافة وخصبا ، والسحب

المشتعلة أطرافها بنار لا لهب فيها ، والبنفسج الداكن يتحيف أطراف النار المنهزمة . وهبة من هواء شات بليل على العرق الخفيف على وجهه ، وهما يسرعان ، ويلمان أطراف المعطف والجاكتة حول الرقبة والوجه ، وينشقان مع ذلك نسمة تملأ الصدر . وهو يمسك بذراعها يعرف مرة أخرى ملاسة استدارته المكشوفة من تحت صوف «التوينز» الناعم ، عاريا تحت الكم القصير للبلوفر ، وحركته حميمة مختفية عن الأنظار ، يساعدها أثناء المرور من أمام العسكرى الممدود الذراع تتطاير الريح بالكاب الأسود القصير على كتفيه .

وهما يدخلان قوقعة زجاجية أخرى منيرة بنور مترب مراق على خشب مشقق عتيق . والمصعد يئز فى طاقته الكهربية المشدودة .

كانت هى التى فتحت له الباب ، بعد أن وقفت زنزانه المصعد الحديدى ، فى طرقة بيتها الرثة ، أمام جدار أصفر باهت مسدود يتساقط طلاؤه فى بقع مبيضة حائلة . والباب الهش قشرة مهتزة واهنه القوى ، وهى تتحنى بعصبية الترحيب ، بابتسامة صادقة ، باهلا وسهلا ، لتنحى أحد اخوتها الصغار من الباب . وقد جروا جميعا ليابوا دقة الجرس — الذى كان قد بحث عنه ، بحيرة ، بعض الوقت — وهم يتزاحمون بين ساقيها وحواليها . وكان حر أغسطس رطبا ، وهواء الطرقة مكترما ، ونفثات من روائح أكل بعدالظهر ونوم القيلولة ما زالت معلقة بالحيطان والبيبان ودرجات السلم المعتمة غير النظيفة .. يوه . اوعى كده يا نبيل . استنى يا تونى . مش عيب يا بابا عيب . وهى منحنية تزيح الولد العفريت الذى يجرى بين الرجلين ، وتستقيم فورا ، فيعود انهمار صدرها الصغير بثمرتيه الناعمتين العاريتين — وقد سطع لعينيه ، لحظة ، طريا ، يهتز ، فى انحنائها — ويتخذ مكانه الآن فى مستقره من فتحة البلوزة الخفيفة الواسعة الجابونيز . وعظام وجهها الأبيض تتحدد فى عتمة الباب والنور من ورائها . ويفاجئه شريط أحمر عريض معقود على الشعر البنى المسترسل الهش الملمس ، القاتم الآن فى انعكاس النور من خلفها ، خيوط نباتية كثة دمثة . وتضع يدها لحظة فى يده ، وتضمها على أصابعه ، رخوة،دقيقة ، عصفور صغير ملموم ناعم الريش . وتشده بأهون حركة وأرقها الى داخل الفسحة ، وتسبقه ، وصيحات الأولاد يتقهقرون متوثبين الى المواقع الداخلية الحصينة وهم يتصايحون : ماما أبيه شوقى الى بيشتغل مع أبلة نعمات . ماما عندنا ضيوف .. ماما .. ماما .. يوه طيب يا ولاد أهلا وسهلا ، وحركة القيام من على مراتب الكنبة المريحة من أغوار المواقع الخفية لأداء واجب الترحيب فى سهولة وطيب قلب .

وأخذت طقوس الترحيب مجراها المعتاد ، فى غرفة الصالون الضيقة ، شهودها قطع الاثاث القديم والصور الزاعقة الألوان والمخدات السوداء المرسومة بالنخيل والجمال من ليبيا ، وشمس بعد الظهر الحامية من وراء الستارة الكريتون المنقوشة بالورد الملون ، وهو يتحدث الى الأم عن حكاية الشهادة التى تريد استخراجها من البلدية ، ويأخذ منها أوراقا مطبقة مصفرة رقيقة الأطراف فيها عطن حائل لا يكاد يحس من طول بقائها فى الظرف القديم بلا شك ، تحت الملابس فى الدرج العلوى من دولاب أو « بوريه » ، أو تحت مرتبة السرير، والخيرة فيما اختار الله ياضناى ، نعمات والله بتتشكر فيك خالص ياسى شوقى ، وتعزك زى أخوها ، قالت لى عنك كتير ودايما بتجيب سيرتك بالخير يابنى ، ربنا يرضى عليكم ياخويا ويسهلها لكم ويبعد عنكم ولاد الحرام ، والدكتور ربنا يخليه راجل طيب وابن حلال ، والثرثرة العجوز تسترسل وتطيب القلب ، وهو يستريح اليها ، راضيا ، ولكنه لا يخطىء فيها مع ذلك نغمة لعلها مقصودة ، لهجة الأم التى ترحب بعريس محتمل ، وتستكشف الطريق ، وتمهد الجو لعدل البنت التى فى سن الزواج ، فى ثقة وتمكن ومن غير اصطناع ودون اقتحام .

ونعمات تأتى له بالشاى على الصينية الزجاجية ، ويسطع له مرة أخرى وجودها فى مظهرها الجديد الحميم ، فى غير ملابس العمل

وأناقتها المصنوعة ، بأناقة جديدةمستريحة ، وذراعاها العاريتان تبدوان منعشتين ، نسمة من هواء البحر الطرى فى الحر ، وقد تكسر البطن ، واسترخى النهدان بجانبى البلوزة الواسعة ، والبنطلون البيتى الصيفى من قماش خفيف كاروهات أبيض وأسود - صغيرة ، هندسية - يستدير فى نعومة بالبطن والردفين ، فى التصاق حميم ، ويتحملها فى رفق ، يقيها من الانهمار فى الضوء ، وينتهى تحت الركبتين بقليل فيترك الساقين الفارعتين المسحوبتين رخامهما أبيض بارد · وهى ترفع ساقيها لكى تجلس على الفوتيى أمامه ، الى جنب ، فترتفع القدمان العاريتان من على الأرض ، وتدفعهما الى تحت جسمها ، فتلتصق بطن القدم الرقيقة بسمانة الساق المكشوفة المستديرة ، وتستريح فى جلستها ، وترفع فنجان الشاى لكى ترشف وتستطعم ، فى تخفف من كل عبء ، فى حسية الراحة على الفوتيى ومذاق السائل الأحمر الشفاف المنعش بسخونته ، ليعدل المزاج ، ويرطب الجسم · والاحمر على شفتيها ، من لون الشريط العريض المعقود على الشعر ، والخط الأسود الحالك السواد الذى يحيط بالعينين ، ويحددهما ، ويكسبهما سمة ذئبية نائمة الضراوة ، فى صفرتهما الباهتة وهج الشاى المشع ، وهى تبتسم فى ارتياح ، ولكن فيها شيئا مهددا كامنا ، كأنما فرغت من أمر الفريسة ، وهى تتمطى فى أدغال الأثاث الرث القديم ·

دخلت عليه فجأة وهو فى المعمل ، بعد انصراف الدكتور ، وحاول أن يفرش «الأهرام» على طبق الفنجان ، لكنها كانت أسرع من حركته ، ورأت نثار دخان السيجارة الفرط المفتت فى الطبق ، والقطعة الصغيرة المغبرة اللون بجانبه · ولم تتكلم · كان المعمل معتما فى آخر العصر ، ولم يكن قد أضاء النور وفى عزمه أن ينتهى من السيجارة قبل أن ينصرف الى ليله الطويل المثقل بالعمل · كان وجهها رخاميا فى العتمة ، أكثر شحوبا مما رآه فى أى وقت · وقالت له بصوت مضطرب انها نازلة ، فلم يسرع الى النزول معها كعادته ،



وأمل ما هو بسبيله ، وقضى ليلته يكتب مذكرات مستعجلة لأحد دكاترة الكلية . هل ثقل عليك العيار ؟ ابدا والله العظيم . لم أكن أحلم . وليس هذا كله بشيء ، هو يشرب لكي يساعده ذلك على السهر ، والعمل . هذا كل شيء . كانت عيناها تتقدان بهذا الوهج الأصفر المحرق ، نار مركزة ، وصوتها مرتفع ثاقب لايعي الا نفسه ، فيمناقشات ومشاحنات لا تنتهي الا لتبدأ من جديد ، مناقشات في العمل ، هذه المرة . هؤلاء النسوان لا يفرغ لهن ضجيج ، ورقة التحليل ، الست التخينة جاءت اليوم وفتحت عقيرتها ، لماذا لم ينته شغلها ؟ وحسن المرض حرامي ، لماذا تتركه يسلم الشهادات للمرضى بنفسه . ليس هذا عمله . ووقاحته معك . ليس هذا من شأني ولكن لماذا تسكت عن لسانه السليط ؟ أنت المسئول،لا شأن له بالشهادات ، أنت المسئول، أليس كذلك ؟ وهل تعرف ماذا يقول عنك ، من ورائك ؟ ولكن هذا يحز في نفسي ، وأنا مالي .. والشفتان الرقيقتان ترتجفان ، شفرتان حادتان لشيء قاطع ، وهو يحاول أن يناقشها ، أن يرد عليها ، بحجج عادلة ، وقد جف قلبه ، ونفسه تفور . هل العمل حقا هو مبعث هذه الهجمات التي تكاد تفقد فيها كل تحكم في نفسها ؟ أم السبب امرأته ، وحكايتها ، أم اكتشافها في المعمل ، في آخر العصر ، أم هو حبوط ما في دخيلتها يتفجر بالقشرة الساكنة البيضاء ، ويشققها ، عن هذا النفث من لهب وحميم آن ؟ وهو ينهض ، ويدور حول جثة الآلة الكاتبة السوداء ، والأوراق المتناثرة . ونور الشمس ينصب من النافذة الشرقية بزجاجها السميك العتيق ، ويسقط على كتفها . ثم يأخذ بذراعها يدعوها أن تجلس . ندت عنه لحظة ، ثم استرخت في المقعد ، كأنها قد استنفدت معين غضبتها ، والكتف المدورة الناعمة تحت القماش الأبيض الخفيف مشرقة في أشعة الشمس ، حلوة الاستدارة ، وينحسر طرف « الجيب » من أعلى الساق ، وركبتها البضة فوق ساقها الأخرى . واعدة ، متحدرة من ربوة الفخذ تحت النسيج الصيفي . بم يرد عليها ؟ وما جدوى الكلام ؟ أي شيء يحقق له ما يتوق اليه من اندماج كامل ، ووفاء كلي بالوعود التي ينبض بها الجسد ؟ ما من شيء فيه وفاء بالوعد . ما من سبيل الى الوفاء بالوعد . وعليه أن يروض نفسه ، ويسومها الصد ، وينأى . عليه أن يجاهد هذا الحريق اللاعج الذي يطوح به ، يدفعه للارتماء على أبواب هذا الهيكل الباذخ الناعم الرخام . وينحني ، وهو يرد عليها . وشفتها السفلية الداكنة الحمرة ما زالت ترتجف ، أهون رجفة ، مكتنزة بخصب لن يعرف طعمه أبدا . حتى لو عصفت الأنفاس الحارة ، ودفعت ظمأه الى الثمرة الغنية بالرحيق ، فهناك في داخله منطقة جدب كاملة لا ارتواء فيها . ذراعاه فيهما توتر كهربي مشدود ، لو أنه ضم الى صدره هذا الهيكل المنيف . هناك فيه منعة لا تطال . وبصره يقع فجأة على ثنية تحت زرين من أزرار قميصها الصيفي ، ثنية من البطن العاري تحت القماش انكشفت للضوء في انحنائتها للأمام ، وهي تضع ساقا على ساق ، عجين طري متماسك القوام تحت كنزين صغيرين يحملان وعودا أخرى مخبوءة في ضمة النسيج . ألم يعرف ، هو ، عبر محنته الطويلة خلل الوعود ؟ زم نفسه ، في عناد لا يطاق ، عن أن يحيطها بذراعيه . فهو يعرف ، يعرف أنه لن يجد شيئا . ومهما كانت النار موقدة في المحراب ، فان قدس الأقداس خاو على عروشه . وهو يعرف أنه سيبقى دائما ، دائما ، خارج الأبواب . يشرب ، ويعمل طول الليل ، ويعمى من الشرب والشغل ، هذا كل شيء . رنين الجرس المفاجيء العنيد ، فتقوم ترد على التليفون . نداءات معدنية مصمتة لابد من الرد عليها ، التليفون والباب والساعة والترام ، تحرش لا ينقطع ووخز الابر المشرعة في اللحم الحي .

صدى صلصلة الجرس تحت سماء مفتوحة باهتة صافية مخففة الزرقة بالماء ، كسف السحاب البيضاء في الشرق تخفي استدارة الشمس ، وينكسب منها ضوء رقراق طلق

صحو ، والتـرام يصعد فجـأة ، فى رحلتـه الطويلة ، على كتف من الأرض الرملية ، يتسنم متن الطريق ، بين سورين من أسلاك مشدودة على أوتاد حديدية عاليـة • وتنكشـف زرقة السماء من بين الأسـلاك ، وهما فى الترام ، فوق ، على القضبان ، فوق قمة العالم ، تحت السحاب الأبيض ، النوافذ مفتوحة يهب منها النور المبلول القادم من البحر • وهناك فجأة ، تحت ، تنفسح أمام عينيه الصحراء • ومدينة الملح فى وسـط العراء • امتدادات من ميـاه الملاحات الساكنة تتلألأ عليها طبقة بلورية من الملح اللامع • وتقوم فى وسطها أبراج عالية مخروطية ، عليها صلبان فضية تلمع وتعكس وهج النور الصباحى ، وقباب مستديرة مغبرة البياض ، ومآذن سـامقة نحيلة • وتبدو له سطوح البيوت ، والمنائر ، متلاصقة ، مربعة ومستطيلة ، مبنية بالطـوب والحجر • وقـد ثاخت البلدة كلها فى وسط مستنقعات الملح • وليس فى المدينة من حركة ، وسـط المياه الساجية المكسـوة بالملح • سهول فسـيحة حواليها ، والمـاء الملح يترقرق على طين رملى رخراخ ، أمواجـه ضحلة صـافية على قـاع الرمل ، يلعب تحتها الضوء ، فى قلب الصحراء الشاسعة المسطحة حتى الأفق • ويهبط الترام فجاة ، تغـور به الأرض ، وترتفـع حواليه السدود الرملية القديمة المغسولة بمياه الأمطار من الشـتاء ، فيها تجويفات رملية صـلبة ، والترام يشق النور الخفيف السـاكت ، فى رؤيا من حميا رائعة ، وأوراق التين الشوكى الصـلبة المشعثة ونباتات الصـبار الجافة الداكنة ، منتصبة شـائكة ، تضرب فيهـا عصارة كثيفة نزرة الماء •

وهما وحدهما ، فى الترام الخاوى • يقف على المحطات الخشـبية ، والأرصـفة خالية ، ويقوم • والسائق مندفع ، بين فجوات الصمت وضجيج القرقعة ، ويده تتلمس يدها ، وتعثر عليها ، فوق استدارة الجسـم وبين حنـاياه الطرية ، وتتداخل الأصابع فى تماسك حميم وثيق ، فى بحث ملهوف • عظامهـا الرقيقة تصـطدم بأصـابعه ، تحت جلدها الدمث الغض ، وتدفن نفسها بين ثنيات يده ، متلمسة أيضا ، تنقب عن شىء ما ، عن تواصل ما ، عن اندمـاج محمـوم ، متعجلة ، تجـوس ، وترتاد ، وتتفـحص ، فى الحـاح ، ولجج ، ولهفة • والدماء تضرب فى رجولته ، الأبراج والقباب تنبض تحت الشـمس ، فى مدينة ساحلية مهجورة فى الصحراء ، تحت طبقات الملح • والخطوط الحديدية تتشابك وتتداخل وتنفرج ، والمحطات تتوالى ، ثم تتراجع بين الرمال •

والترام يقف ، ها هى ذى المحطة ، وينتزع يده ، ونفسه ، منها ، فجأة • ويقف ، لايقول شيئا ، وانما يجب أن يجرى ، وينزل يلحق محطته ، قبل أن يقوم الترام • ويندفع ، فى غشاوة محمومة منيرة • وما تكاد قدمه تمس أرض الرصيف ، وما يكاد ناظر المحطة ، الذى يقف وحـده ، ينفخ فى صفـارته ، وما أن يستدير ليلوح لها باشارة التحية والوداع ، وينفث الترام أولى آهاته ، متأهبا للحركة ، ويصلصل الجرس ، حتى يدفعه فجأة شخص ما ، من ورائه ، دون أن يراه ، الى داخـل الترام ،بينما الترام يتحرك • وهو يقبض ، مرغما ، متشبثا ، على حاجز السـلم بخشبه اللامع القديم ، فى هذه الحمى الساطعة ، فى صمت المحطة الصحراوية الخاوية ، وهو على سلم الترام ، وقد بدأت القضبـان الحديدية تتراجع تحته ، وجسد القاطرة يتزلزل فى أول حركة • واذا بحاجز السـلم الخشبى ينخلع مرة واحدة فى يده ، ويرتفع فى الهواء • وهو يتطوح ، والتـرام قـد تجمعت طاقته واندفع الى الأمام • وهو قد تزايل ، لا يستند الآن على شىء ، وقدمـاه تتزعزعـان من على السلم ، والرصيف قـد تراجـع ، ويده قد ارتفعت قبضتهـا بالحـاجز المخلوع ، وهو يتطرح ، ويتهـاوى ، على وشـك التردى الى

الوراء ، فى سرعة انطلاق الترام · ولكن الكمسارى يمد يده فجاه ، ويجذبه ، ينتره الى الداخل ، مرة واحدة ، وهو يثب ، لا يحس شيئا ، واذا هو فى الداخل ، فى أمان مؤقت لحق لهفته ، وآواه ، وراء زجاج الواجهة ، على رقعة من أرض الترام المعدنية المنطلقة فى طريقها ·

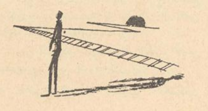
يا أخى مش تحاسب ، حصل خير على كل حال ، الحمد لله ، جت سليمه · كأنه هو المذنب ، كأن هذا الحاجز الخشبى المخلوع لم يكن هناك ، ولا ذاك الذى دفع به الى سلم الترام ، من ظهره · كأنما كان سيقع ، وتقع الحادثة ، بخطئه وذنبه · وكانت قد ظلت جالسة ، بلا حراك ، تشخص اليه ببصرها ، ثابتة النظرة ، فى عينيها ماء متموج مغرورق ، لا ينسكب ، صامت ، على قاع أصفر ذهبى باهت ، به نقاط رقيقة سوداء ·

والكمسارى يتجه اليهما ، فى قصد ، يطلب شيئا ، مهددا ، لا يتكلم ، لكنه لن يتراجع · ومن ورائه ، من الدور العلوى للترام ، نزل الاعراب ، متجهين اليهما ، يطلبون شيئا ، لن يتراجعوا · لمة من البدو ، هم من سكان العامرية ، بلا شك ، أو هذه البلدة الصحراوية ، من النازلين فى المصحة · على أكتافهم ، ورؤوسهم ، بطانيات صفراء ناصلة ، بها مربعات زرقاء باهتة ، يخفون بها جوانب وجوههم ، لا تبدو الا عيونهم السوداء الضيقة ، جامدة ، عميقة لا يسبر لها غور ، تحت اهدابها الشقراء ، على الجلد الأسود المدبوغ · وثنيات الغضون فى وجوههم تبدو خطوطا رقيقة معرجة بيضاء فى الجلود القشفة التى صوحتها شمس لا ترحم ، وصهدها حر قاس لاينى يعود يوما بعد يوم· وحول الفم تقرحات بيضاء ، كأوراق معرقة باهتة ، ممزقة من وسطها مزقا مشعثة ، يغطونها ، بأطراف البطانيات ، بأيديهم المعروقة السوداء التى تشعب البياض وتشرح فى سوادها ، بأزهار وحشية الشكل ، شائكة كالصبار · وهم يجتمعون حواليه ، وراء الكمسارى ، صامتين ، عيونهم ترى ، ولا ترى ، محترقة ، مصوبة نحوه ، مشدودة اليه ، تسطع فى غورها ، لا تطرف · ماذا ترى فيه ؟ كل منها شمس صغيرة متقدة · يتألبون عليه ، بأعوادهم القضيفة الخاسفة ، ضاوية أجسامهم تحت البطانيات ، وقد حفوا به ، كأنما يتوقعون منه الخيانة ، وينتظرونه · وقد اعتورته ، برغمه ، سحابة همومهم ، وغشته غاشيتهم ، بؤرتهم هو ، هدفهم ، ونواة احتشادهم · ويمد اليه الكمسارى أصبعه ، فى تحذير ، هؤلاء قومك ، هؤلاء ناسك ، اطلب أيا منهم تجده · تحت أمرك · أنت منهم ، وهم لك · أنت ، نعم ، أنت ·

وقد ارتمض من ذعر مفاجىء ، نفضه من شلله ، فهب يفلت من خطر محيق ·

ويندفع ، دون أن يدرى ، يجرى ، يثب ، ويسقط من الترام المنطلق بها ، بالكمسارى وبالسائق ، وبهم ، بهم جميعا · هنا محطته ، لا طريق له بعد الآن · وتتطوح الأرض تحته ، ترتفع اليه ، صلبة ، ثم تنخفض به · وهو يجرى ، تتلاحق ساقاه الى الأمام ، يكاد ينكفىء على وجهه ، ويستقيم ، لا صوت يند عنه ، يلوح بيديه · والترام قد انطلق بعيدا عنه ، أصم ، مغلقا على ما فيه ·

ويقف ، يشد قامته ، وقدماه تثبتان على الأرض الرملية ، يصدر عنها حفيف جاف فى السكون الذى يعود فيرين على كل شىء · وليس فى قلبه حس ما ، الا بأنه وحده ، وقد وصل الى آخر السكة · وحده ، فى رمل الصحراء ، ينسكب عليه ضوء رقراق من وراء السحاب الأبيض الخفيف · والهواء جاف ، طاهر ، والصمت مطبق ، تام ، فى فراغ الصحراء ، أمام الخطوط الحديدية الممتدة ، حتى النهاية ·



هل يموت الأب ..؟

بقلم : ابو المعاطى أبو النجا

ـ ماما .. لماذا تقفلين الراديو ؟

ـ تستطيع أن تفتحه حين تريد .

ـ ولكنــــك تقفلينه فى كل مرة أفتحه فيها !!

ـ رأسى تتعبنى قليلا هذا المساء .

ـ هل هى تتعبك دائما ياماما ؟

ـ نعم .. لا .. !

ويصمت « راشد » قليلا ، بينما تخطو أمه فى اتجاه حجرة النوم ، وتتوقف حين تجتذب أطراف ثوبها قبضة صغيرة ، وتلتفت الى الوراء لتجد طفلها قد ألقى بقامته الى الوراء مطمئنا الى أن الثوب قد تحول الى أنشوطة محكمة ، تنجح دائما فى أن توقف أمه حيث يريد ، وتسمح له بأن يميل بجــذعه الى الوراء ، الى أقصى الوراء ، دون أن يخشى السقوط !

وفى استسلام تعود اليه ، لتصنع له من صدرها وذراعيها أنشوطة أرق !

ـ لم تعد صـغيرا ياحبيبى .. أصبحت رجلا .. بعد شهرين يكون عمرك تسع سنوات كاملة ، فلماذا تفعل ذلك ؟

ـ ونحتفل بعيد ميلادى ؟

ـ نعم .

ـ حفلا كبـــيرا ، نفتح فيه « الراديو » وندير « البيك أب » ، ونلعب كلنا .

ـ نعم .

ـ وتصنعين « تورته » كبـيرة ، ونوقد الشموع ، ونعلق ال

ـ نعم ... نعم ... نعم .. !

ـ ما زالت رأسك تتعبك يا ماما !

ـ نعم

ويصمت « راشـد » لحظـات ، تتحفز خلالها ملامحه ، وكأنما يتحســس بصـوته الطريق الى أذنى أمـه ، وبنبرة لا يمــكن أن تكون لطفل فى التاسعة من عمره !

ـ ومن سيحضر الحفل يا ماما ؟

وتبدو الأم وهى تقيس السؤال ، وهى



تسبره ، وكأنها وقعت في أنشوطة من نوع لا فكاك منه !

وتقول في استسلام يائس هذه المرة

ـ خالك ٠٠٠ وعمك ٠٠٠ وجميع من تحبهم من أصحابك !!

ـ أريد أن يحضر بابا هذا الحفل ؟!

ـ اذا انتهت مهمته سيحضر بالتأكيد !

ـ ومتى تنتهي مهمته ؟

وبكل ما تقدر عليه من هدوء قالت :

ـ لست أعرف ٠٠٠ قلت لك كثيرا لست أعرف ٠٠ ! ثم أضافت وكأنها تعتذر له : حين تنتهي مهمة بابا سيبعث لنا برسالة يخبرنا فيها بموعد حضوره !!

ـ ولكن بابا يعرف أن عيد ميلادي بعد شهرين !

ـ نعم !

ـ سيحضر ٠٠٠ لا بد أن يحضر ، ويحضر معه ٠٠٠ و ٠٠٠ و ٠٠٠

وتنتهي مراسيم الابن حين ينام ، النوم وحده هو الذي ينقذها من تلك المطاردة التي تتكرر كل يوم بطريقة مختلفة ، ولكنها لا تنتهي أبدا !

في ضوء مصباح خافت الضوء تبدأ مراسيم الأب ، تبدأ في كل ليلة حين تتمدد في فراشها ، فتصبح صورة الأب في مواجهتها تماما ، تطل من اطار من الخشب المحفور المذهب ، منذ أكثر من عشرة أعوام وهو في وقفته تلك ، على شفتيه نفس الابتسامة الخفيفة الواثقة ، بنفس ثيابه العسكرية ، بنفس رتبته القديمة ٠٠٠ لقد حاز بعدها أرفع الأوسمة والرتب ، ولكن تلك الصورة القديمة هي أقرب صوره الى قلبها ، فهي صورة حبها الأول ، وصورة زوجها ، ومنذ أنجبا طفلهما « راشد » ، أصبحت صورة بابا ، « بابا » الأسرة كلها ، وكانت تحب أن يكون لها « بابا » صغير مثله !!

منذ شهور دعي ليشترك في تلك الحرب الأخيرة التي نشبت فجأة ، وانتهت فجأة

كذلك ، ولم يعد ، وانتظرت أياما وأسابيع وشهورا ، ولم يعد ، ولم تكن وحدها التى تنتظر عودته ، كان « راشد » ينتظر بدوره ، ولم يكن من السهل أن تقول « لراشد » كل ما يمكن أن تقوله لنفسها ، وكان عليها أن تجيد فى وقت واحد عدة لغات ، فى النهار كانت تتحدث بلغة الناس ، تتحدث الى شقيقها ، وشقيق زوجها ، الى الضيوف والأصدقاء ، والجيران ، والأهل !!

وكانت لغتهم صريحة وشبه قاطعة ، صحيح ان أحدا منهم لا يتكلم بشكل قاطع عن موت الأب ، ولكنهم جميعا كانوا يعاملونها كأرملة شهيد أدى واجبه ، والدولة بدأت تصرف معاشه الشهرى كالشهداء تماما ، ولكنهم جميعا وافقوا على أن تتحدث مع الابن بلغة مختلفة !

والمحوا الى سنه الصغيرة ، وتذكروا تعلقه الشديد بأبيه ، وأكدوا أن مصارحة الطفل بحقيقة الموقف ـ الآن على الأقل ـ قد تحدث له صدمة تؤثر على مستقبله كله !

وقال خال الطفل : مع الوقت سيألف غيبة أبيه ، وآنذاك لا تنطوى مصارحته على أية أخطار !

ولا تدرى هل قبلت نصائحهم تلك لأنها أكثر منهم خوفا عليه أم خوفا منه ، كانت تشعر بطريقة ما ، وكأنها مسئولة عن فقد الأب ـ ان أحدا لا يحملها هذه المسئولية ـ ولكنها كانت تشعر أن طفلها هو الوحيد الذى سيفعل ذلك ، وهل يملك طفلها وسيلة للحكم على الأشياء ، سوى ذلك الشعور الطفولى الذى لا يمكنه الفصل بين أمه وأبيه، كوجهين لحقيقة واحدة ، حقيقة توفر له الأمن والسلام والسعادة ، وهذه كلها لا تتوفر الا حين يكونان معا ، كما يكون جناحا الطائر ، وحين يختفى أحد هذين الوجهين ، فمن يكون مسئولا أمام شعور ابن الأعوام التسعة سوى الوجه الباقى ... وجه الأم !

وهكذا ولدت لغة الابن ، لغة المطاردة التى تتكرر كل يوم ولا تنتهى أبدا ، ولدت من الحب والخوف معا ، وتطورت لتصبح طقوسا ومراسيم تؤديها الأم كل يوم مع ابنها وتنتهى حين ينام الطفل ... لتبدأ مراسيم الأب ، لتبدأ لغة قلبها ، لغة بلا حروف ، لغة الدم الصاعد الى الرأس أحيانا ، والأطراف المثلجة أحيانا أخرى ، لغة العرق والارتجاف واللوعة، والقلب الذى لا يزال يدق بعنف ، حين يدق جرس الباب أو جرس التليفون ، حين تسمع صوتا غريبا ، أو ترى وجها لأول مرة ، حين تلمح فى عيون الأهل بريقا طارئا ، أو فى أصواتهم نبرة غريبة ، لغة الحلم الغامض ، والأمل الذى لا يختفى ولا يبين والانتظار الذى يصبح فى وقت واحد أفضل غذاء للأمل واليأس ، انتظار أن يعود الاب ، ذات صباح ، أو ذات مساء ، ان رؤية الموت أعظم تبرير له ، واعتذار عنه ، وكيف يصدق قلبها أنه مات حقا دون أن ترى موته !!

ها هو يطل عليها من اطاره الذهبى ، واقفا لا يزال ، لا يضجره الوقوف ، ولا يمل الابتسام ، ها هو شاب دائما ، طموح أبدا ، حالم بكل شىء عدا الموت ، أشد حياة من كل شىء فى هذا العالم الذى يلفه السكون ، وأكثر الناس قدرة على أن يفهم لغة قلبها ، تلك اللغة التى لا تزال ترق وتصفو حتى ليمكن أن تتبادلها مع طفلها الراقد بجوارها حين تنام حين يضمها معه فراش واحد وحلم واحد !!

فى الصباح يذهب « راشد » الى المدرسة، وفى المساء يعود ، فى كل صباح تدرك أمه وهى تودعه أمام « الفيلا » الانيقة ، أن ذراعيها قصيرتان جدا ، لن تصلا الى كل مكان يذهب اليه ، لن تكونا معه دائما ، وفى كل مساء تدرك أنها تتسلم طفلا آخر ، مختلفا بعض الشىء ، طفلا يلتقى بمن لا يشاركونها الخوف عليه أو الخوف منه ، طفلا يسمع ويتكلم لغة لا تعرف كل طقوسها ، وحين تبدأ مراسيم المطاردة اليومية ، تتعلم شيئا عن هذه اللغة. « فراشد » يدرك على نحو ما أن بلده كانت تحارب ، وأنها خسرت الحرب ، وأن الاعداء يحتلون جزءا من بلده ، وأن الحرب قد تقوم من جديد ، وأن أباه هناك ليطرد الاعداء ، ومن أسئلته التى لا تنتهى عن الحرب ،

والاعداء ، وأصوات المدافع ، وذكريات الظلام حين ينقطع النور فجأة ، وعن أبيه ، من كل هذه الأسئلة كان يفتــل حبــال أنشــوطته اليومية ، أنشوطة تتسع كل يوم ، وتلتهم فى شراهة حكايات الأم واعتذاراتها ، وتبريراتها وتوشك فى النهاية أن تلتهم صبرها !!

ذات مساء سأل « راشد » أمه :

ـ لماذا لا يجيىء بابا ؟

هكذا جاء السؤال ، بلا مقدمات ، بلهجة باترة تشى بنفاذ صبره هو الآخر ، باحساسه بأن فى المسألة سرا ، وبأنه يريد أن يعرف هذا السر ، بأن لديه هو الآخر مصادر أخرى للمعرفة وبأن أمه ليست هى أم الدنيا كلها ، وبأن اللغة التى يسمعها منها كل يوم ليست هى أصدق اللغات !

وتصرخ الأم هذه المرة ، تصرخ بعنف :

ـ لست أعرف ٠٠٠ أنا مثلك لا أعرف ٠٠ قلت لك ألف مرة لا أعرف ٠



كانت تلك هى المرة الأولى التى يرتفع فيها صوتها الى هذا الحد ، والمرة الأولى التى يخرس فيها الصبى تماما ، وكأنه فقد القــدرة على النطــق والرؤية والســماع ! وتضمــه الى صدرها بعنف بأعنف من صراخها ، وتشعر أن ذراعيها طويلتان ، وأنها تطوق بهما العالم، ويشعر هو أنهــا أم الدنيا كلها ، وكان عمر شعورها وشعوره مجرد لحظة بعدها تناسى تماما مسألة أبيه ، ليتذكر العيوب والنقائص فى كل شىء ، فى البيت والطعام والثيــاب واللعب !!

تنازل عن أبيه ليطلب كل ما يقدرون عليه، وتستحيل رغبته فى امتلاك الأشياء الى رغبة فى تدميرها ، وحــين لا يجد ما يدمره يبدو وكأنه يريد أن يدمر نفسه ، فلا يتعلق الا بأرق غصن فى أشجار الحديقة ، ولا يمشى الا فوق الحرف المدبب للسور ، وتحول مزاحــه مع الأطفال فى الشارع الى شجار ، يعود منه كل يوم ممزق الثيــاب ، والجلد ، ملطخــا بالدم والتراب ! وتفشل عشرات اللعب والزيارات والوعود التى يبذلها خاله فى أن تجعل منه

ذلك الصبى الهادىء الذى كانوا يعرفونه !

ذات مساء يقول خاله لأمه :

ـ أعتقد أن الوقت قد حان ليعرف الحقيقة!

تقبض وجه الأم ، قالت بعصبية أصبحت احدى لوازمها ·

ـ هل تظنه سوف يحتمل ؟ هل تظنه سيهدأ ؟ هل تظنه سيفهم ؟ هل تظن آلامه ستنتهى ؟

ـ أخشى أن يعرف الحقيقة من غيرنا فيفقد ثقته فينا ، وفى نفسه !

ـ أى حقيقة تعنى ؟ قالتها الأم وهى تحدق فى وجه شقيقها ، وكأنها تسمعه لأول وهلة ·

ـ موت أبيه !

قالها بذهول ثم تابع فى دهشة :

ـ ماذا قلت ؟

ولاذت الأم بصمت عميق ، صمت لم يجرؤ شقيقها على أن يخدشه مكتفيا بمواصلة التحديق فى وجهها والاشفاق عليها ·· !

ولكنه هو « راشد » فاجأهم بما لم يتوقعوه أبدا ، وقبل أن يصارحوه بأية حقيقة ·

ـ ماما ·

تطلعت اليه أمه فى لهفة ، كان يتكلم بهدوء غريب ، وكان يتحرك بنفس الهدوء ، متحدثا لأمه ، متجاهلا خاله الذى يجلس بجوارها فى تلك الليلة ·· !

ـ بابا أرسل لى خطابا !

ـ ماذا تقول ؟ أين ؟

قالتها الأم بلهفة وبلا تفكير ، واستبد القلق بشقيقها ، وبتقطيبة حادة فى وجهه حاول أن يلفتها الى خطورة الموقف !

ـ طلب منى ألا أريه لأحد !

ـ أين الخطاب ؟

وصرخ شقيقها : يا مجنونة ! ثم استرد هدوءه فى محاولة يائسة لتغيير الموضوع محاولا أن يمسك بيد الصبى ·

ـ الليلة سنسهر معا فى مدينة الملاهى ، ونركب القطار الدوار !

ـ قال لى بابا ، لا تذهب الى مدينة الملاهى !

قالها الصبى وهو يسترد يده من يد خاله·

ومن جديد حاول خاله أن يمسك بأى شىء فسأل الصبى :

ـ ماذا قال لك بابا ؟

وقبل أن يرد « راشد » واصل خاله اجتذاب الخيط الذى أمسك به

ـ سأحقق لك كل ما يقوله بابا !

وارتسمت على شفتى « راشد » ابتسامة من كسب الجولة فلم يطلب أى شىء آخر !!

ثم ان رغباته الجديدة أصبحت تتقدمها كلها هذه اللازمة

ـ بابا يريد ·

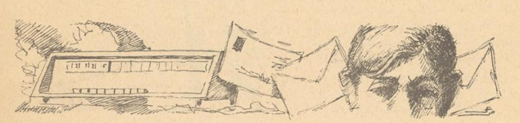
ـ بابا يقول ·

وأصبح يمارسها بهدوء أكثر ، بهدوء صاحب الحق !

وقال لهم الطبيب : ليس ثمة ما يدعو للقلق ! ثم سأل :

ـ هل تغيرت مطالبه التى أصبح يفرضها باسم أبيه ؟

قال خاله : لم تتغير ، لا يزال يسودها العنف والقلق والحدة !



وقالت أمه : اتسع نطاقها بعض الشئ ، يحاول اصلاح سور الحديقة ، وسلم البيت ، وفي الجملة يقلد أباه في نزق !

قال الطبيب :

ـ لماذا لا تشاركونه في نفس اللعبة ؟

ثم أوضح كلامه قائلا :

ـ لماذا لا يرسل « بابا » خطابات أخرى لكم ، بحيث تصبح نصائحكم له ، بل وأوامركم هي أوامر « بابا » نفسه !!

ولم تكن الأم مستريحة لهذه اللعبة ، ولا راضية ، كانت أسطورة « بابا » تتضخم ، وتصبح حقيقة غريبة غير متجانسة فبابا الطفل جسور عنيد مغامر ، وبابا الأم عاقل وهادىء متردد ، بابا الطفل يطارد اللصوص والأعداء ويتكلم بلغة الشارع والمدرسة والنادى ، وبابا الأم يذاكر دروسه ، وينام مبكرا ويحافظ على ثيابه ولا يستقر على لغة واحدة !!

وبات واضحا أن البيت الواحد لن يتسع لرجلين كليهما من طراز مختلف ، وأن لحظة الصدام بين الرجلين تقترب لا محالة !

ذات مساء ، كانا وحيدين ، الأم والصبي ، وكان المذياع مفتوحا على نشرة الأخبار

قالت الأم في تخاذل :

ـ بابا يريدك أن تنام مبكرا !

ـ لا أريد أن أنام الآن !

كان المذيع يصف في تلك اللحظة ، اشتباكا عسكريا حدث بيننا وبين الأعداء ، سقط فيه عدد من الضحايا

ـ بابا قال في رسالته لا بد أن ينام « راشد » مبكرا

ـ أين رسالة بابا ؟

دهمها السؤال ، كان ينصت الى المذياع ويحدق فيها ، قالت في يأس :

ـ ألا تصدق ماما ؟

ـ لا !

ضمته الى صدرها بقوة لتخفي وجهها عن عينيه ، كانت تسمعه في وضوح وهو يقول خلال شهقاتها :

ـ بابا قال لي : انه مات في الحرب !

وارتجفت يداها حول جسده ، لم تكن تدرى أهي تسنده أم تستند اليه ، كل ما تدريه انه لم يتأكد لديها قبل هذه اللحظة موت الأب ، أو ربما أنه لا يموت أبدا !!

في الصباح ذهب « راشد » الى المدرسة ، في المساء عاد . خلع ثياب المدرسة ، أمسك بفأسه ليواصل اصلاح الجزء المهدم من سور الحديقة ، كانت تلك أول مرة يفعل فيها ذلك دون أن يقول

ـ بابا يريد !

وقفت أمه ترقبه من بعيد ، ترقب الفأس وهي تسقط بجوار قدمه ، فلا تشعر بالخوف عليه أو منه !

حين دق جرس الباب الخارجي ، لم يختلج قلبها ، ولم تتقدم لتفتحه « راشد » سبقها الى الباب ليتسلم بيده خطابا من موزع البريد .

ـ المدرسة تدعوك لحضور الحفل التمثيلي الذي تقيمه ، ثم أوضح ، ألعب دورا هاما في الرواية الجديدة التي تقدمها المدرسة !

في صالة المسرح كانت الأم تجلس بين النظارة ، على المسرح كان « راشد » يلعب دور البطولة ، وكان الممثلون الصغار يتكلمون جميعا لغة واحدة ، وكانت الأم وكل الأمهات في الصالة يفهمن نفس اللغة !!

قضية الشاويش صقر

بقلم: د. نعيم عطية



اغلق باب غرفة الاستاذ شكرى وراءه .

لم يفهم كثيرا مما قاله له. تلاطمت العبارات فى عقله ، وتردد فى أعماقه هديرها .

خرج الى الردهة . سأله مرافقه الذى كان فى انتظاره :

ــ خير . قال لك ايه ؟

طرفت عيناه رغما عنه . كيف يحدث هذا ، وهو المعروف بنظراته التى لم يكن يقوى أى سائق عربة كارو ان يواجهها اكثر من ثوان ؟ !

تناثر الزبائن على المقاعد ينتظرون دورهم . غض البصر . كان الحاضرون يحملقون فى وجهه . رفع كفه ، ومسح شفتيه ببطء ، كما لو كان يرد العيون عن وجهه ، كما لو كان يحجب سوءة . وخرجت الكلمات من حلقه بصعوبة :

ــ مافيش .

ــ يعنى ماقالش حاجه ؟ ! امال كل الوقت ده كان بيقول لك ايه ؟ كان بيسالك عن صحتك ؟

ــ لا . كلام كتير .

ــ يا أخى ، ماتقول !

لكنه لم يجد رغبة فى ان يقول شيئا . كانت شفتاه ثقيلتين . تذكر ما قاله له معاون الادارة يوم الأربعاء فى لهجة الواثق :

ــ ليس هذا من الأوامر الادارية التى تختص المحكمة بها الغاء أو تعويضا، ياشاويش صقر .

طلب المعاون فى الغرفة المجاورة ، ولما عاد سأله :

ــ كنا بنقول ايه ؟

جلس الى مكتبه ، ثم مضى يقول موضحا :

ــ آه ، شوف . . ليس هذا افصاحا من الجهة الادارية عن ارادتها الملزمة بقصد احداث اثر قانونى .

سأله الشاويش صقر :

ــ امال يبقى ايه ؟

دق جرس التليفون . رفع سليم افندى السماعة . النمرة غلط .

عاود الشاويش صقر السؤال :

ــ امال يبقى ايه ؟ !

اخرج معاون الادارة منديلا رماديا من جيبه ، وازاح الطربوش عن جبينه ، ومسح عرقه :

ــ يبقى ايه ؟ عاوز تعرف يبقى ايه ؟ حاضر انا اقول لك .

واردف سليم افندى قائلا ، كمن يقرأ فى كتاب « التعليمات الادارية » الذى جمع بنوده وصنفها سلجق بك خورشيد :

ــ يبقى من التدابير التنظيمية التى تتخذها السلطات الرياسية لتحديد اسلوب الحياة الوظيفية بين مرؤسيها ، وجريانها على نمط معين حرصا على استيفائهم للمظهر اللائق ورعاية لمقتضيات النظام .

منذ ذلك الوقت والعبارات تطن فى عقله. « المظهر اللائق . . مقتضيات النظام . . المظهر اللائق . . مقتضيات النظام » .

« المظهر اللائق . . مقتضيات النظام »

ثم كانت الكلمات تختلط ، كسرب من الهاموش أو الذباب ، وتطارده حتى فى نومه .

أول الأمر لم يكن يفكر فى ان يلجأ الى محام ، الا ان الهم اشتد عليه . ليلة امس هب من نومه يصيح :

ــ مقتضيات النظام ! المظهر اللائق !

فى البداية لم تتحرك المرأة البدينة التى تغط الى جواره على الفراش ، لكن التكرار يوقظ الحمار . استيقظت ببطء كقطار بضاعة يشرع فى التحرك ، ثم هبت تتلفت حولها :

ــ ايه ، ياصقر ، حرامى فى البيت ؟ !

حاول ان يخفى عليها ، لكنه مع التكرار لم يعد يقوى على الاخفاء . وركل اللحاف

الرمادى بقـدميه العـاريتين . هاله مرأى الكالو فى أصبعه من فرط الوقوف ، كمـا لو لم يكن قد رآه من قبل . وجد ان من المتعذر ان يخفى . كانت روحه يطؤها طابور من الاقدام الثقيلة . لو قالت له هانم كلمـة طيبة ، لو واسته ، ربما كانت الدنيا تغيرت لكنها لم تفعل ضغطت على رأسها بيديهـــــا وصاحت فيه لائمة :

ـ ايه الواقعة المهببة دى ؟ هواحنا اللى نصبح فيه نبات فيه ؟ !

صحيح . هواحنا اللى نصبح فيه نبات فيه ؟ !

لابد من مخرج .

وجاء المخرج فى الصباح . اول من التقى به عند باب الحارة كان صديقه شلبى الذى اقترض منه ثلاثة جنيهات الشهر الذى فات وردها اليه . من ذلك اليوم وهـو يكبره ويحترمه . وعندما قال له « ماتشوف لك محامى » قرر ان يبحث عن محام ، ولما كان لا يعرف محاميا معينا سـأل العرضـحلجى الواقف عند اول قسـم مر عليه . حـاول العرضحلجى ان يعرض عليه خدماته ، لكنه كان يريد اختصاصيا فى حالته لا مجرد طبيب صغير .

ضغط مرافقه على ذراعه ، ولوح له بيده معاتبا :

ـ يا أخى ماتقول بقى ، الاستاذ شكرى قال لك ايه ؟

أجل . قال له كلاما من ذات الصنف الذى قاله معاون الادارة من قبل . الكلام يتلاطم مثل الموج :

ـ لا جـدال فى أن التنظيم الذى تجريه الجهات الرياسية بين موظفيها فى اسـلوب حياتهم الوظيفية ، وتخضعـهم لحكمه باوامر تصـدرها يجمع عنـاصر الأمر الادارى وخصـائصه ، لما يردهم اليه من اوضـاع يلتزمونها ، ويكون النكول عنها مخالفة تملك عليهم فيها الجزاء .

الكلام يتلاطم مثل الموج . يصفح بعضه بعضا . يعلو فى صخب . ويهبط فى انين .

الاستاذ شكرى شعلة من النشاط . دائب الحركة بيديه ، ورقبته ، وعينيه ، وشفتيه ، على الأخص بشفتيه . وعندما تتحرك هاتان الشـفتان القرمزيتان الرقيقتان يتحرك من فوقهما شارب كث غير منظم .

والله ، ان هذا الشـاب النحيل الضـئيل ليس فيه سوى شاربه . بدت كلماته كمـا لو كانت تتناثر من شـاربه ، مثلمـا تتناثر حبات التوت من اغصان شجرة التوت عندما تهزها .

نهض الاستاذ من مكتبه فى خفة القط ، واتجه الى مكتبته ، وفتحها . ركع امامها واخرج كتابا ذا غلاف اسود . نفض عنـه التراب ، وعاد به مسرعا الى مكتبه . نظر فى صفحاته الأخيرة ، ثم بلل ثلاثة من اصابعه. واخذ يتصـفح الصفحات على عجل . ثم صاح وقد مد ذراعه فوق رأسه منتصرا :

ـ آه ، الم اقل لك ؟ اسمع ..

تنحنح الاستاذ شـكرى ثم مضى يقرا فى صوت مهيب :

ـ ان الدعوى حسـبما هى مكيفة به ، وماتهـدف اليه من غاية ، وتبنى عليه من اسانيد ، تتعلق بوجه اصيل هو الذى جعله المدعى مناط الحـكم فى طلبه وهو حـريته الشخصية التى كفلها له الدستور .

توقف الاستاذ شكرى لحظة عن القراءة ، كما لو كان قد تعثر فى حجر ، ومد اصابعه النحيلة الى شاربه ، ثم اكتشف ما فى الامر .

ـ آه ، لا يهم ، لابد انها غلطة مطبعية فى الكتاب .

لوى شفتيه فى ازدراء ، وقال :

ـ الكتب مليئة بالاخطاء المطبعيـة هـذه الايام .

ثم ضحك متظارفا واردف :

ـ الحياة ايضا مليئة بالاخطاء . سمها مفارقات ، مغالطات ، لا يهم .

شىء غريب . شـاربه يتلوى مع التواء شفتيه .

وكأن الاستاذ قد تنبه الى ان الموضوع

يحتاج الى مزيد من الايضاح لزبونه الذى ليس على قدر ثقافته ، فمضى يقول :

ــ آه ، هذا مؤلف الاستاذ الدكتور عز الدين خليفة . تصور انه استاذ الكرسى بكلية الحقوق .. منذ طرد الاستاذ الآخر .

قلب الاستاذ شكرى غلاف الكتاب ، واراه اسم المؤلف مكتوبا بخط عريض . واردف يقول :

ــ ماعندكش فكره المحاكم بتحترم كلامه قد ايه اصله ناقل عن استاذ فرنسى كبير . المهم نرجع لموضوعنا .

وضع المحامى اصبعه على سطر فى الكتاب ، وقال مهللا :

ــ شوف ، شوف ، بيقول ايه .. « ولامراء فى اعتباره على مقتضى هذا النظر امرا اداريا مستكملا لجميع خصائصه ومميزاته » .

والقى الجملة الأخيرة كما لو كان جزارا يهوى بسكينه على رقبة ثور عنيد :

ــ « ومن ثم يكون الدفع على غير وجه ، متعينا رفضه » . سامع ؟ متعينا رفضه !

الأمواج تتلاطم . تصفع بعضها بعضا . شعاع الفنار يكتسح السماء ويلمع بين السحب .

ــ هذه دعوى مماثلة يا اومباشى !

ثم استطرد كما لو فهم شيئا كان خافيا عليه :

ــ لعل مثار الشبهة التى تقوم لدى الحكومة ان التصرف المشكو منه هو فعل مادى تختص المحاكم المدنية دون محكمة القضاء الادارى بالتعويض عنه .

....

ــ اهذا ما قاله لك الاستاذ شكرى ؟ عال .. مبروك .. تبقى كسبت القضية !

احقا سيكسب القضية ؟ ! احقا سيعود الحال الى اصله ، كما قال المحامى ؟ ! أحقا سيضيء وجهه كما كان يضيء من قبل ؟ احقا سيقف الصقر على شاربه ، كما كان يقال له من قبل ؟ !

ياريت ! ياريت !

مازال صوت الحكمدار يدوى فى اذنيه . استدعاه فى ٧ سبتمبر الى مكتبه . عندما عاد الى بيته ليلة ٦ سبتمبر وجد ورقة مطوية على المنضدة فى الفسحة بانتظاره . قالت له هانم :

ــ جابها واحد مخصوص .

ــ ماقالش على اسمه ؟

ــ نبه انك ماتتأخرش .

فض الشاويش صقر الورقة المطوية . لم يستطع ان يكتم انفعاله . رفع يده وبرم طرف شاربه المنتصب .

« عاجل جدا وهام .. مطلوب الساعة الثامنة صباح يوم الثلاثاء .. بمكتب سعادة الحكيمدار »

ورفع يده المرتعشة الى شاربه مرة أخرى . ترى لماذا يريده سعادة الباشا ؟ ذهب الى اقرب كرسى ، وجلس عليه . الفسحة من حوله فناء سجن . اخذ يفكر ، وسرح به الفكر بعيدا .. ايام مديدة وقديمة .. ثلاثه وعشرون عاما فى فرق المرور .. اسوان ، سوهاج .. الاسماعيلية ، طنطا ، ثم القاهرة .. وقد امضى اكثر من سبع سنوات يحكم المرور فى مكان واحد ، امام «الكلوب» كان فيها موضع تقدير رواد النادى ، وهم جميعا من علية القوم . بل كان موضع العطف السامى ايضا فى كل زيارة لصاحب المقام الرفيع رئيس الوزراء للنادى . وقد تفضل رفعته فمنحه منحة كريمة على يد البكباشى سليم عزمى .

لمعت عيناه . وكان شاربه يرقص طربا . ترى اهى منحة جديدة ؟ ! وابتسم . مؤكدا ان الباشا الحكيمدار قد اطلع على الجرائد والمجلات مؤخرا . شاربه الطويل يسترعى انتباه الجماهير والتفاتهم . انه اصبح من المعالم المعروفة فى المدينة . الشهر الماضى جاء اليه احد الافندية المتعلمين ، وهو واقف ينظم المرور فى نقطته المعهودة عند تقاطع شارعى سليمان باشا والبستان . حياه بحرارة واعجاب . وقال له انه صحفى ..

واشار الى آلة التصوير على صدره . سيلتقط له صورة .

ــ هل عندك مانع ؟

ــ خذ زى ما انت عاوز .

برم شاربه بخيلاء ، واستدرك قائلا :

ــ المهم ماتعطلش المرور .

ثم ساله الصحفى عن شاربه . متى رباه ؟ آه ، ذكريات قديمة . كان ذلك منذ اربعة وعشرين عاما وكان يومئذ لازال جنديا فى الجيش المصرى . وقد جاء المغفور له صاحب الجلالة لزيارة معسكرنا .. فكان لهذه الزيارة اثر لا يمحى فى نفسى . ومنذ ذلك اليوم صممت على أن أطلق شاربى اقتداء بجلالته ، فظللت اتعهده وادهنه واحافظ عليه .. حتى صار كما تراه الآن .

كيف رباه ؟

ــ عليك « بالكوز ماتيك »

فتح الاشارة . مضى الصحفى الشاب يسأله ، وقد لمع فى عينيه طيف ابتسامة خبيثة :

ــ وكم يكلفك ؟

ــ اكثر من خمسة وعشرين قرشا فى الشهر .

ومض فى ذهن الشاويش صقر احتمال ، فاردف يقول بسرعة :

ــ اكتب ستين .

ــ اطمئن .. خير .. سنعمل ريبورتاجا ممتعا ..

وضحكا :

ــ وهل يسبب لك شاربك المتاعب ؟

قفل الاشارة :

ــ بالعكس .. أصحابى فى زيادة مستمرة، اصحاب السيارات يتمهلون حينما يمرون به . يبتسمون ويبادلونه التحية . وكثيرون منهم ينادونه باسمه . وهذا يزيده عناية واهتماما بشاربه . عندما يذهب الى الحلاق يمسك بالمرآة لمراقبته ، ويقول له : «حاسب على الشنب ، يا اسطى على » . صحيح ان كلام الناس عليه كثير . وفى الحى الذى يعيش فيه تعود الناس على مشاهدته بهذه الصورة . وفى اى مكان خارج محيط حياته اليومية عند مايتهامس شخصان يعرف فورا فى الحديث عنه .

فتح الاشارة . واوما للسيارات بيده أن تمر . ثم التفت الى صديقه الصحفى واستطرد قائلا :

ــ لكن مادمت انا رجل فى حالى واحترم نفسى ، فلا يهمنى .. ثم انه بعد أن عرفت بين اهلى واصحابى وزملائى بالشنب الطويل فعيب ان اقصه .

مر باصابعه على شاربه بحنان . واحس وهو يلمس طرفيه المدببين المنتصبين بأن لديه من القوة ما يمكنه ان يواجه كل أولئك الذين يقودون السيارات الغالية مصعرى الخد .

قطع عليه الصحفى سرحانه قائلا :

ــ وايه احرج موقف سببه لك شاربك .. يعنى شنبك ؟

ــ عندما توفى خالى حسنى افندى .. كان مدرس فى المنصورة . ذهبت لحضور الجنازة .. وكان يشترك فيها عدد كبير من الطلبة والطالبات .. وكان الكثير منهم يبكى .. لكنهم عندما راونى بطلوا بكاء ، واخذوا يتهامسون ، وهم يضحكون .

هز الصحفى راسه وقال له :

ــ هواية غريبة . تربية الشنب .

ــ وتقول ايه فى اللى بيربوا قطط وكلاب رومى .. وبغبغانات كمان ؟

وغمز له الصحفى عينه اليمنى بخبث وقال له مبتسما :

ــ والآن ، قل لى .. ما هو موقف الجنس اللطيف .. من شنبك ؟

بدا صقر كما لو لم يكن يتوقع ان يتطور الحديث فى هذا الاتجاه . قفز الى مخيلته .. وجه ست الهوانم المستدير البض مثل طبق المهلبية، عندما تكون قد نتفته بالحلاوة. انه لا يستبدل بها أحدا فى الدنيا .. صحيح انه لم ينجب منها اولادا ، لكن الذرية قسمة



ونصيب ، ولا شيء اكثر من ذلك. وارتسمت الحيرة فى مقلتيه ، فاردف الصحفى يقول :

ــ يعنى الحريم ..

قرر ان يسد عليه هذا الباب :

ــ لا يا افندى .. ده عيب .. انا راجل متزوج ٠٠ وفى حالى ٠

ــ عفارم عليك ، ياشاويش .. ياريت زيك فى البوليس عشرة .

ياريت زيك فى البوليس عشرة .. ياريت زيك فى البوليس عشرة .. ياريت زيك ...

ــ اسخن لك العشا .. واللا اقلى لك بيضتين ؟

قطعت هانم عليه افكاره ٠٠ واحس وهو يخلع حذائيه الثقيلين فى تلك الليلة بالرضاء عن نفسه .

فى الصباح ، وقف امام المرآة .. وفتح العلبة ، واطال العناية بشاربه اكثر من كل يوم .

صاحت هانم ، وهى تقفل الباب :

ــ خليك ناصح .. اطلب علاوة ..

ركب الترام من دوران شبرا . الرجال من حوله اقزام ، وهو شامخ الانف . ذلك الصباح سأله احد القرويين الغرباء عن المدينة اين مكتب التموين ، فلم يعن بالرد عليه . كان يوفر كلماته للحكيمدار . وقد اعد ترتيبات كاملة لتفاصيل مقابلته لسعادة الباشا .. كيف سيضرب تعظيما عندما يدخل عليه فى حجرته بسراى المحافظة ؟ ماذا سيقول ؟ كيف سينحنى ؟ كيف سيتلقى اطراء الباشا وثناءه بتواضع متكلف؟ كيف سيستدير خارجا ؟ كل شيء فكر فيه واعد له العدة .

....

الساعة الواحدة . خمس ساعات يقف فى الردهة فى انتظار ان يطلبه الباشا الحكيمدار للمثول بين يديه . اخرج منديله، ومسح جبينه . معلهش .. كل شيء سيهون عندما سيهش له سعادة الباشا ، ويبتسم فى وجهه .

الساعة الواحدة وعشر دقائق ، استدعاه سكرتير الحكيمدار لمقابلة الباشا . دخل الغرفة الفخمة . لم يجلس . لم يتسع الوقت. ما ان خطا ثلاث خطوات حتى انفجر سعادة الباشا صائحا فى وجهه :

ــ أنت ياولد .. الا تعرف ان النظام العسكرى يستلزم ان يظهر الجندى بمظهر لائق ؟ !

ــ حصل ايه ، لاسمح الله ، ياسعادة ..

ارتج الأثاث الثقيل فى غرفة الحكيمدار :

ــ بص شوف عاجبك ؟ !

واخرج من درج مكتبه الاوسط عددا من مجلة « آخر ساعة » ، وقذف به على المكتب ٠ فرأى صقر على الغلاف صورة نصفية له بالألوان ، وقد شمخ طرفا شاربه الى السماء .

استطرد سعادة الباشا بصوت مجلجل :

ــ ازاى تتصل بالصحف المصورة،وتسمح لها بأخذ صورتك .

ضرب الباشا المكتب بقبضته :

ــ وفى أوضاع مختلفه كمان .. مما يخل بالكرامة العسكرية !

فتح الشاويش فمه ليدافع عن نفسه . واغلقه دون ان يقول شيئا ، فقد كان صوت الباشا الثائر اسرع منه :

ــ ازاى ياولد تزعل افندينا بالشكل ده ؟ ! بتقلده ؟ ! بتنافسه ؟ ! ؟

ــ يامعالى ..

ــ موش عاوز كلمه !

ــ حاضر .

ــ من باكر انت منقول للمدبح . فاهم ؟

ــ امرك يا افندم .

ــ انت ماتستحقش غير الوقوف بين العربجية .

ــ تمام يا افندم .

وعلا صوت الباشا الحكيمدار :

ــ وكمان بترد على !

هز الشاويش صقر رأسه بالنفى :

ــ وتخرج من هنا تحلق شنبك ده اللى طالع لحواجبك . فاهم ؟ !

يحلق شاربه هذا الذى عنى بتنسيقه والمحافظة عليه معتزا به طيلة ثلاثة وعشرين عاما قضاها فى خدمة البوليس دون ان يعترض على ذلك احد من رؤسائه ، بل كان محل رضائهم واعجابهم ؟! واصدقاؤه فى المقهى ؟ ! ورفاقه فى العمل ؟ ! وجيرانه ؟ ! وهانم ؟ ! وعلى الاخص هانم ؟ ! ايفرط فى كرامته حتى يصبح موضعا لسخرية الساخرين ، وتهكم المتهكمين ؟ !

وخرجت الكلمة من فمه :

ــ لا .. موش ممكن !

ثارت ثائرة الحكيمدار . ودق جرسا على مكتبه بشدة . دخل ثلاثة جنود اشداء بلا شوارب . هرولوا . احاطوا بالشاويش صقر . واصدر الحكيمدار اليهم أمره :

ــ خدوه .

جره الجنود الثلاثة خارجا ، كأنهم على لص خرجوا . واغلقوا عليه باب الزنزانة .

أخرج احدهم موسى ، واحكم الآخران الامساك به . قاومهم ، فلطموه . دفعهم ، فالقوا به ارضا . وجثم من معه الموسى على صدره . توسل اليهم :

ــ افقأوا عينى ! انزعوا اظافرى ! هذا حرام .. حرام .. حرام ...

فاض به الألم . بعد لحظة كان الشارب حديث المجلات كومة صغيرة جدا من الشعر. بكى . اختلط نشيجه بضحكات الثلاثة الاشداء ، وتعليقاتهم .

....

ــ اليس هذا العمل مخالفا ، ياحضرات المستشارين ، لأبسط قواعد الحرية الشخصية التى كفلها الدستور ؟

جلجل صوت الاستاذ شكرى فى قاعة المحكمة .

ومضت عينا الشاويش صقر بوميض الألم والحنق المكتوم . كان هذا الفعل اساءة بالغة الى شعوره ، ومساسا شديدا بكرامته الحق به من الامتهان والزراية ما جعله موضعا للسخرية والتهكم .

لمع شعر الاستاذ شكرى ، وهو يترافع بكل ما أوتى من قوة وحمية . وسمعه صقر يقول فى حماسة :

ــ الحرية الشخصية هى عماد الحياة الانسانية كلها .. لا تخلقها الشرائع بل تنظمها .. لا توجدها القوانين بل توفق بين شتى مناحيها ، رعاية للصالح العام ، فهى لا تتقبل من القيود الا ما كان هادفا الى هذه الغاية مستوحيا تلك الأغراض .

ورد محامى سعادة الحكيمدار فى هدوء وبرود بان الباشا استدعى المدعى وكلفه بحلق شاربه فصدع للأمر ، ونفذه طائعا مختارا . راع الشاويش صقر هذا الافتراء الرخيص ، فصاح قائلا :

ــ كذب ! كذب !

اسكته رئيس الجلسه بلهجة صارمة ، وقال له :

— الباشا لا يكذب !

وانذره بتوقيع الجزاء عليه اذا عاد يخل بالنظام . ونبهه الى ان محاميه وحده هو الذى يملك الكلمة عنه .

وواصل محامى الباشا مرافعته متمسكا بما قاله وبان حلق الشارب بين رجال البوليس تدبير تنظيمى .. مثل ذلك ان يصدر مدير الجامعة امرا بان يلتزم الطلاب عدم الحضور الى قاعات الدرس عراة الرؤوس ، او ان يصدر احد الفنادق امرا الى مستخدميه بارتداء لباس معين .

وجاء دور الاستاذ شكرى . اوما اليه رئيس الجلسة ، فبادر الى الوقوف وقفة تمثيلية برداء المحاماة الاسود الفضفاض . وضع يده اليسرى فى جنبه ، ورفع يده اليمنى عاليا ثم هوى بقبضته على المنصة قائلا :

— ان لوائح البوليس ، يا حضرات المستشارين لا تتضمن ما يمنع العناية بالشارب أو تنميته. اما الزعم بان المدعى هو الذى نفذ الامر طواعية فهو افتراء تاباه ظروف الحال وتاباه. وحتى اذا صح فهو لا ينفى عن الامر بطلانه وما وصم به من جور وعدوان على هذا العسكرى الفقير الذى يعول براتبه الضئيل زوجته وأولاده التسعة .

أولاده التسعة ؟ ! صدمت هذه الحجة الشاويش صقر . لكنه مالبث ان فهم .. كانت هذه كذبة بيضاء من المحامى .. ولاباس منها ، فمثل هذه التهاويل تستدر اشفاق العدالة . اليس القضاء بشرا .. ام هم وحوش وغيلان مثل الباشا ؟ !

• • • •

بعد الجلسة طالبه الاستاذ شكرى بجزء من الاتعاب .. تحت الحساب .. قال له مبررا طلبه :

— صحيح الجلسة تأجلت .. لكن مارايك فى مرافعتى .. هائلة .. اليس كذلك ؟

اخرج الشاويش صقر حافظة نقوده ، ونقده ما طلبه عن طيب خاطر . ووقف الاستاذ شكرى حتى يضع الخمسة جنيهات فى جيب سترته الداخلى .. قال ، وهو يهز رأسه كما لو كان يتحدث فى امر جلل :

— ليست هذه الدعوى بحال دعابة أو فكاهة ، مهما بدا عليها ذلك .. بل على النقيض سيتحدث عنها كل رجل يعتز برجولته ، ويفخر بكرامته .،

وأردف عم ميلاد وكيل المكتب، وهو يهرول وراءهما :

— مؤكد . سيتحدث عنها كل رجل يعتز برجولته ، ويفخر بكرامته .

وقال الاستاذ شكرى لزبونه بلهجة آمرة :

— أعطه جنيها .. ستتحدث الأجيال المقبلة كلها عن هذه القضية .. وسيتكلم يوما عنها مؤلفات القانون الادارى ، والصحافة ، والمحاكم الاجنبية .. يوما ما.

وانضم وكيل المكتب يؤيد استاذه :

— امال ؟ هى المسألة دى شهوية ؟ حكيمدار يأمر بجز شنب عسكرى ! هذا اعتداء صارخ على الرجولة ، وعلى الحريات الشخصية !

وهز الاستاذ شكرى راسه ، وهو يخطو الى فناء المحكمة :

— واساءة لاستعمال السلطة . ومن حامى الحريات غير القضاء ؟

قفز الى رأس الشاويش صقر كلام معاون الادارة .. « على العموم خللى بالك .. لو كسبت القضية ترفد . » .. وتحرك اصبع معاون الادارة امامه كمؤشر السرعة فى سيارة . لوح باصبعه فى وجهه : « لو كسبت القضية ترفد .. حد يقف قدام الباشا ؟ ! دا الحكيمدار هو معالى الوزير .. ومعالى الوزير هو رفعة الرئيس .. والرئيس هو افندينا .. هو حد يقف قصاد افندينا ؟ .. لو كسبت القضية ترفد . ولما ترفد تعمل ايه ؟ ! »

صاح فيه الاستاذ شكرى وهو يقفز فى عربة تاكسى ، ومن خلفه وكيل المكتب :

— على العموم ماتنساش .. الجلسة اللى جايه .. تسعه ونص الصبح تكون موجود .

واغلق المحامى الباب. وانطلقت به السيارة ليلحق بمحكمة الجنح .. فقد كان موكلا هناك فى قضية هتك عرض . وبقى الشاويش

صقر يتابع بنظراته الشاردة الغبار الذى اثارته عجلات السيارة المبتعدة .

سيتحدث اذن اصحاب الضمائر الحية والرجولة الكاملة عن هذه القضية . سيتكلم عنها التاريخ الحاضر ، كما نتكلم نحن عن التاريخ الغابر ، فهذه القضية لا تؤخذ ببساطة ولا بمدأعبه ، انما هى قضية مبدأ، فاما ان يكون هذا المبدأ ثابتا لأنه مستمد من نصوص القانون ومن روح العدالة ، والا فعلى القضاء ان يوقع الجزاء الرادع . فحريات الناس لا تهدر بهذه السهولة المؤلمة ، لانها مكفولة بنص الدستور .

هذا ما قاله الاستاذ شكرى . لافض فوه. وحلال فيه الاتعاب ، بل وفى وكيل مكتبه أيضا . وخطر للشاويش صقر ان يمر على المجلة ، ويسأل عن الصحفى . لابد ان يعرض موضوعه على الراى العام ، ففى ذلك عزاء له . ومما يشد من ازره ان تقف المجلة فى صفه ، وتهب فى وجه الطغاة الجائرين ، الذين أفسدوا عليه حياته .

صعد درجات المبنى . استوقفه رجل اسمر ، وسأله من يريد . اخبره . رمقه موظف الاستعلامات وفهم . ابتسم . لماذا ابتسم ؟! ما الداعى لهذه الابتسامة ؟! اهى سخرية منه ؟ ! ام هى رثاء له واشفاق عليه ؟ ! لكنه لم يأت فى طلب الرثاء والاشفاق من احد ! احس بالدرجات تذوب تحت قدميه . وقال له العامل الاسمر :

ــ الاستاذ غير موجود .. فى اجازة .. طويلة .. غير منظور يرجع هنا .

هل طردوه بدوره ؟ هل نقلوه ؟ بسببه ؟!

ــ اترفد ؟

ــ ليس هذا بالضبط .. هو على العموم .. موقوف .. وسينقل ..

حسنا . مع السلامة .. لماذا كلما سألت عن احد فى مثل هذه الظروف .. وجدته قد تبخر من الوجود ؟ لماذا يقوم فى مثل هذه الظروف بينك وبين الناس سياج زجاجى ، تكلمهم فلا يسمعون صوتك ، تستصرخهم فلا تلقى سوى الهمسات ، والابتسامات الغامضة ، والايماءات ؟



خرج الى الطريق . احس برغبة شديدة فى ان يربت على ظهر القطة الصغيرة القابعة عند أسفل الجدار . ان يلمس باصابعه شعرها الأملس وجسمها الدافىء . كانت نظراتها اليه عطوفا مواسية . خطا نحوها خطوتين ، لكنها قفزت ، وجرت مبتعدة عنه بسرعة .

هز راسه . حتى هى ؟ ! شعر بأن من الضرورى ان يكسب القضية ، وان يرد اليه شرفه . لماذا يذوب كل شىء من حوله ؟ يجب أن تكسب القضية ، يامسكين . يجب ان تكسب القضية لازم .. لازم .. حتى ولو اترفدت ؟ ! .. ولما تترفد تعمل ايه ؟!

كانت القضية قد تأجلت الى غد . ذهب الشاويش صقر الى الاستاذ شكرى فى مكتبه . لم يجده . قيل له انه كان حاضرا فى قضية ادارة بيت للدعارة بدون ترخيص فى الاسكندرية .. وسيحضر الى مكتبه متأخرا . احس الشاويش صقر بالضيق. فضل ان ينتظره بالمقهى القريب .

جلس وطلب شايا . لمح على المنضدة المجاورة شابين ورجلا عجوزا . كان العجوز قد بسط جريدته ، ودس رأسه يقرأ فيها.. بالخط الاسود العريض فى الصفحة اليمنى « المظاهرات تجتاح الجامعة .. عشرات

الطلبة يلقون حتفهم .. » اما الشابان فقد انهمكا فى حديث سياسى. قال الشاب النحيل حليق الوجه لزميله :

— اطمئن .. عندنا دايما رجالة .. مستعدة تموت .

هز الآخر راسه ، والتفت من حوله . ثم قال :

— لكن الطريق شاق وطويل . انا موش شايف حوالى .. بصيص نور .. لمعت عينا الآخر ، وقال :

— طريق النضال مخاطر . وطريق النصر تضحيات .

واتى صوت من اغوار المقهى . كان صوت المعلم يصيح فى الجرسون :

— روح قل له موش ممكن .. البن غلى .. والسكر .. والجاز .. والا يعنى نعملها ؟

طرد الشاويش صقر هذا الصوت الاجش من اذنيه ، وارهف السمع الى حديث جاره الشاب فقد أحس بانجذاب خفى نحوه .

اردف الشاب يقول لجليسه :

— لازم مقاومة .. والمقاومة بالصمود .. انت فاكر ايه ؟! ده أحنا بنواجه غول كبير .

غول كبير ؟! غول كبير ؟! هو مين ؟!

فى هذا المساء مر الشاويش صقر من شارع شبرا الرئيسى للوصول الى بيتـه لاول مرة .. منذ القضية .. ولم يختر الأزقة الخلفية المظلمة قليلة الحركة . ولاول مرة أحس بأن كعبه يدق الارض وهو يسير ، وانه لا يجر قدميه جرا .

وفى تلك الليلة عندما جلس صقر الى زوجته على الطبلية يغمسان معا من صحن واحد . قال لها :

— المقاومة بالصمود ، ياست الهوانم .. أيوه هو انتى فاكره ايه ؟! ده احنا بنواجه غول كبير !

توقف صقر عن المضغ ولمعت عيناه ببريق غريب . اردف يقول :

— وعلينا نختار .. اما نقبل ونتهان .. واما ..

لم تطاوعه نفسه ان يكمل عبارته .. وقد مثل فى ذهنه ماقد يكون عليه الحكم فى القضية .

هبت نسمة من النافذة الصغيرة المفتوحة .. تراقصت ذبالة لمبة الجاز .. وتراقصت معها الاشباح السوداء على الحوائط .

أعدت هانم الافطار لزوجها مبكرا فى صباح يوم الجلسة . وجلست الى جواره :

— تعرف أنا حلمت بايه ؟ كنت فى بير .. وبعدين طلعت سلم ماسك رايه .

— روح .. ربنا ينصرك على مين يعاديك

ثم فتحت ذراعيها الى السماء ، ودعت لزوجها من أعماقها .

مسح الشاويش صقر فمه بيده ، وقال بلهجة جادة :

— وانا كمان تعرفى كنت باحلم بايه ؟

اخفض صوته ، وتطلع حوله :

— كنا بنضرب افندينا .

خبطت صدرها المكتنز بيدها مستنكرة :

— مولانا ؟

واستطرد الشاويش صقر بتشف :

— أنا وقعته .. وانتى بركتى على صدره .. وهات ياضرب فى نافوخه بايد الهون .

صاحت هانم جزعة :

— ياندمتى !

— والناس نزلت من العربيات واتلمت حوالينا .. والباشا الحكيمدار جيه يجرى .. والصفافير اشتغلت .

وسألته زوجته فى هلع :

— وبعدين ؟!

شرد بال الشاويش صقر ، وهبطت معنوياته :

— موش عارف حصل ايه ..

واردف يقول ببطء :

— لاقيتك باركه على صدرى أنا .. وبتضربى نافوخى بايد الهون ! .. وبتتولى لى : فين العلاوة ؟ فين ؟! فين ؟!

قطعت هانم الصمت الذى خيم برهة . وقالت تدافع عن نفسها :

— أعمل لك ايه مادمنا على الحال ده عشر سنين .. ماهيتك مازادتش مليم واحد .

طرد الشاويش صقر هذا الكابوس من امامه .

تنهدت هانم وقالت :

ــ ياحسرة ، جوز أم لواحظ ...

صاح صقر فيها مقاطعا :

ــ موش طرشجي ؟!

ردت هانم بأعجاب لزوج أم لواحظ :

ــ طورشجي .. وماله كسيب !

وضع الشاويش صقر حدا للحديث الذى بدأ يتخذ مناحى شائكة . وقال لزوجته :

ــ ماعلينا ، ادينى بريزه .. خلينى انزل أروح لحالى .

قالت هانم لزوجها بلهجة حازمة :

ــ النهارده الجلسة ، خالى بالك ، وفتح عينك .. أعدل طربوشك .. خليك تروق فى عين القاضى ويحكم لك .

لم تكن الجلسة جلسة مرافعة ، بل كانت محددة للنطق بالحكم فحسب وسيذهب ليسمع صوت رئيس المحكمة يجلجل بالحكم فى ارجاء الجلسة .. بل فى ارجاء القاهرة .. بل فى ارجاء العالم .. كما يقول له الاستاذ شكرى كلما قبض منه جزءا من الاتعاب .

سار الشاويش صقر مرفوع الرأس منتفخ الصدر فى طريقه الى المحكمة البعيدة . لم يشأ ان يركب ، فقد كان يحس بساقيه متوترتين لاتقويان على الجلوس . احس بانه يريد أن يسير الى آخر الدنيا .. أن يحمل سلاحا ، وان يصعد جبا ، ويجتاز صحراوات شاسعة

سار فى الطريق .. واجهات المحال تتتابع عن يمينه ها هو محل يبيع عصافير للزينة فى اقفاص .. كناريا .. وببغاءات ملونة .. كم كانت نظراتها بليدة وحزينة ، وكم كانت تتنافر فى عصبية . واجهات عديدة فيها دمى وارفف مزدحمة بالثياب والعطور والاثاث والحلوى . وها هى واجهة بها كتب كثيرة بعضها صغير وبعضها كبير ..كان أكبرها على أى حال مجلدا كتب عليه «الأمم المتحدة» وتحت بخط رفيع البحث الحاصل على جائزة أحسن الرسائل الجامعية . والى يمينه كتاب ذو غلاف أبيض عنوانه « تحت ظلال الزيزفون » وقد حمل الغلاف أيضا صورة فوتوغرافية للشيخ المترجم . تأمل الشاويش صقر قسمات وجهه طويلا ثم هز رأسه عجبا وتنهد متمتما « ازاى سابوه ده ؟! »

عاود سيره .. الناس من حوله اشكال والوان .. امرأة طويلة « نحيلة مخضبة » الوجه .. تدخن سيجارة فى مبسم فضى طويل ، وتسحب باليد الأخرى كلبا صغيرا قصير السيقان ممطوط البطن .. لم يتمالك الشاويش صقر نفسه والتفت يتأملها .. صدرها شبه عار وفستانها اقصر من ركبتيها . سمع أحد الشبان يقول لزميله :

ــ مابقاش فى الدنيا حيا .

فأجابه زميله ساخرا :

ــ أيه .. حرية ، ياأخى ! حرية !!

وها هو القرداتى يجر قردا وعنزة .. ابتسم الشاويش صقر وقال لنفسه هامسا « دنيا ! » ثم كاد يصطدم ببائع جوال يتشاجر مع أحد أصحاب الاكشاك الخشبية . كان البائع الجوال يريد ان يفرش بضاعته بجواره على الرصيف . سمعه صقر يصيح بصوت مبحوح :

ــ أنا دافع دم قلبى للبلدية علشان الكشك ده .. تقوم تيجى أنت بكل بساطة كده .. هى أيه .. فوضى ؟!

نزل الشاويش صقر من الرصيف وعبر الشارع الى الرصيف الآخر .. وابتلعته جموع المارة . كل منهم فى عزلة . احس كأنه يذرع الطريق وقد اسدل حوله ستار . غرق فى افكاره .. وهو يسير مع السائرين . قفز الى ذاكرته صوت هانم وهى تحدثه عن ذلك اليوم .. « موش عارفه ليه عينى طول النهار كانت بترف . كنت حاسه يوميها ان فيه حاجه ــ الشر بعيد ــ حاتحصل .. قمت بخرت البيت .. ثم رآها أمامه تعاتبه » يعنى كان لازم تتصور انت راخر .. وتتفرعن بصورتك فى الجرنان زى الشبان الصغيرين بتوع السيما .. » ثم تضحك له بدلال وتقول لكن دمك يامضروب خفيف فى الصورة .. ماتقولش ابوزيد الهلالى .. اسم النبى حارسك ؟!

ابتسم صقر ابتسامة باهتة .

مضى الشاويش صقر يسير مع الجموع .. احس بينهم بانه مجرد قشة صغيرة تجرفها الامواج .. من منهم يعرف من هو ؟ والى اين يذهب ؟ من منهم يكترث بالشرخ الذى فى قلبه ؟ . هل يوقفهم ويقول لهم انه الشاويش صقر عبد المتجلى .. وان بينه بين الباشا الحكيمدار قضية وانه ذاهب ليسمع الحكم فيها ؟ سيشير البعض اليه ويقولون مجنون .. ويهز البعض الآخر كتفيه .. ويمضى لحال سبيله .. كل فى حاله .. ولا شأن له بالغير .. بالقسوة الشعور بعدم الاكتراث .

احس الشاويش صقر بأن قدميه تثقلان .. وأن الجموع تسير وتتركه وراءها .. وحيدا .. وحيدا .. وحيدا .. وجد نفسه يغير طريقه .. ويسير فى شوارع وحوارى لم يكن ينوى ان يسير فيها .. يدور ويدور .. حول المحكمة دون ان تجسر قدماه على الدخول . هام فى الميادين والمنتزهات على غير هدى .. كان يريد أن ينزوى .. ان يختفى .. أن تنشق الارض وتبتلعه .. رأى على الحائط رسما كبيرا لرجل ذى شارب ضخم يمسك زجاجة سوداء .. عندما اقترب وقرأ .. وجده اعلانا عن دواء مقوى يعيد الشباب .. ايكون قد ولى عنه شبابه ، ولهذا اعتراه الهبوط وقله الاقدام وثبوط الهمة ؟ ! رفع بصره الى الحائط وحفظ أسم الدواء فقد يحتاج اليه .. هز راسه ، ومضى الهوينى فى تجواله الذى لا هدف له .

....

الساعة الخامسة دخل الحارة . وجد شاويشا اخر لا يعرفه يحدث الاسطى سيد السباك أمام باب محله الصغير ، ويريه مظروفا . عندما رآه السباك قال للشاويش:

– آهوه ، الشاويش صقر بنفسه .

استدار الشاويش وواجه الشاويش القادم ، واجهه بوجه صارم ووجوم . مد اليه يده بالمظروف المختوم بختم المحافظة :

– جواب علشانك ، ياشاويش صقر .

– خير .

واجاب بكل صرامة وكانه يريد ان يقطع كل استرسال فى الحديث . كانه يريد أن ينجز مهمة ثقيلة على النفس .. كما لو كان ساعيا فى التلغراف يسلم برقية بنبأ وفاة :

– ما اعرفش والله !

ومد له دفترا مستطيلا ذا غلاف رمادى ، وصفحاته مقسمة الى خانات عديدة :

– تسمح . امض بالإستلام .

واخرج قلمه الكوبيا ؟

– هنا ..

وما ان فرغ صقر من التوقيع فى خانة التوقيع حتى كان الشاويش القادم من المحافظة قد القى تحية المساء ، واستدار يذرع الحارة بخطى عريضة كما لو كان يطلب النجاة .

......

فض الشاويش صقر الخطاب . اشارة جديدة . المرة السابقه كانت لتسليمه امرا بوقفه . وهذه المرة ؟ خطاب مقتضب . التاريخ فى الجانب الأيمن العلوى . وتسربت الكلمات الى ذهنه ببطء ، ثم أستقرت فى قلبه . تذكر كلمات معاون الادارة .. دقت فى عقله كالطبل .. اذن ، فقد صدق ما اخبره به . كسب القضية اذن . خفق قلبه بشده. وندت منه صرخة عالية . وجرى يخترق الزقاق مندفعا الى بيته ، وقد انتابه فرح جنونى . صعد الدرجات عدوا ، وهو يصيح مهللا :

– ابسطى ، يا ست الهوانم !

هرولت زوجته تفتح الباب . ووقفت على العتبة يزلزل بدنها الأمل واللهفة :

– الحلم اتحقق ياصقر ؟!

انكب عليها يعانقها . انبهرت انفاس المسكينة . وصاحت فيه مستوضحة :

– ماتقول امال ؟ !

قبل وجنتيها وعنقها وذراعيها وصاح فيها لاهثا ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

– مبروك ياهانم .. مبروك .. اترفدت!



ضحى

بقلم : اسماعيل البنهاوى

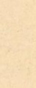
كنا خمسة ، ابراهيم ، فؤاد ، نادر ، وجيه ، وانا، اجتمعنا في شقة فؤاد ـ الصغيرة اللطيفة لنحتفل معا بليلة راس السنة . ولما كان هو الأعزب الوحيد فينا ، فقد كانت الحفلة (والتضحية من جانبه هو ، كما قال) خالية من النساء .

تركنا أنفسنا على سجيتنا ـ تبادلنا الآراء فى الأدب والفن والفلسفة دون تعمق أو احتداد . وتناثرت منا النكات اللحظية تافهة أو ذكية ، نضحك منها أو عليها ، من قلوبنا على أى حال .. بينما نتبادل السلاطة والخس ، ونتبادل الأنخاب ساخرين طول الوقت .. الى أن التفت فؤاد أمامه نحو ساعة الحائط ، فارتفعت أبصارنا جميعا معه اليها ، وهى تعلن ـ في اصرار وبلا شعور ـ ذهاب سنة عن الحياة وحلول سنة جديدة فيها .

اعتدلنا في جلستنا . صمتنا معا وكأننا على اتفاق، والساعة تدق وسط السكون . وبقينا واجمين حتى قطع فؤاد صمتنا فى قسوة ، بقهقهة خفيفة وقال : « نطفىء النور ؟ » .

أجابه نادر بسؤال آخر : « ولم ؟! » وهو يبتسم مستخفا يتلفت حوله كأنه يبحث عن أنثى ، دون جدوى . ضحكنا جميعا برفق ، في مجاملة سريعة مصنوعه .

وتجاهل فؤاد الاجابة المضمنة في سؤال نادر ،





فرد عليه في سخرية جادة : « لنفتحه مرة أخرى ». فهقهنا ثانية في نبرات مثقلة من تأثير الخمر .

لكن فؤاد انقلب جادا فجأة : « طيب لا داعي لاطفاء النور وفتحه . ما رأيكم لو غيرنا أسلوب سهرتنا تماما ؟ » . وابتسم في ثقة عندما لمس في وجوهنا التجاوب السريع وحب الاستطلاع «نقدم برنامجا جديدا ممتعا نكون نحن جمهوره ونجومه ؟ » .

هممت أن أساله : « كيف » ؟ ، عندما نطق ابراهيم قبلى ، وكأنه لم يسمع ما قال فؤاد ، وبدا كأنه يحدث نفسه ، لكن فى حماس غضوب : « الواقع أن اطفاء النور ثم فتحه عملية وهمية أصلا » .. !

سألته هو بدلا من فؤاد : « كيف ؟ » ..

أجابنى في ضيق ـ من نفسه ـ وكأنه يخفى ندمه على نطق تفكيره : « عملية وهمية وخلاص . كلمة قلتها لارتاح لا لنتناقش » . وبدا كأنما كان يعنى شيئا يدركه وحده . وابتسم في وجهي معتذرا . ثم لفت رأسه بسرعة الى فؤاد وأومأله بذقنه : « هيم » ..

فأكمل فؤاد : « يخيل الى أننا في حاجة الى أن نفتتح السنة الجديدة بوقار ، نقول كلاما مفيدا »، وضحك « لقد تكلمنا الأورديفر في العام الماضي » ، وهو يشير بسبابته الى الزجاجات الفارغة والسلاطات ، « والآن ، جاء دور حديث العشاء » ، وبارك بيده الأخرى الديك الرومى الرابض وسط المائدة أمامنا وزجاجتى الويسكى على جنبيه ، لم يقربهما أحد بعد. وراح يفرغ لنا الويسكى في كؤوسنا ، ونحن نتسابق فى مد أيدينا لتمزيق الديك . « اليكم مشروع الجزء الثانى من البرنامج ، يحكى لنا بالتفصيل كل واحد منا قصة حبه الأول ، لا . لا يجوز أن ينتقى الحب الذى يروقه، لكن ، ليرجع كل منا الى الماضي ، فيفتش في ذاكرته عن حبه الاول ـ الاول بالذات ، والحب بالذات ، وليست أى علاقة عابرة . فاهمون »

« موافقون ! » هتفتها مسرورا والتفت فورا نحو ابراهيم .. ! فقد خيل لى أن فؤاد ربما يكون قد دبر هذا البرنامج من أجل أن يستمع الى ابراهيم بالذات.

كان ابراهيم دائما ـ كما يبدو لى ـ حريصا بالارادة على تجنب الحديث عن عواطفه، كنا كلنا نتحدث دون تحفظ عن « غرامياتنا » ومشكلاتنا ونفتخر أحيانا « بانتصاراتنا » . أما هو ، فكان يكتفى بالتعليق السطحى على « مغامراتنا » نحن ، بطريقته الخاصة ، في مداعبة رقيقة ، ودون أن يقحم نفسه في محاولة أن يعرف أكثر مما يقال .

قبل زواجه ، كنا نعرف أن له علاقات بفتيات كثيرات . لم يكن يجمع بين اثنتين مطلقا : كل واحدة وحدها لفترة طويلة ، وفجأة تحل محلها غيرها . كنا

نصل الى النتائج الخاصة به بتجميع القرائن والشواهد .. في كل مرة ، كان يراه أحدنا مع واحدة بالصدفة ، لم يكن يجرؤ على تحيته ..! وحين تلتقى مجموعتنا كلها ، لا يسمح ابراهيم لنفسه بالرد على أى تلميح مشبع بالرغبة في معرفة قصته مع الفتاة التى صادفه معها واحد منا منذ ساعات ، ورآهما كل منا في أوقات أخرى ، وفي أماكن مختلفة ، أو داخلا معه بيته أو بيتا آخر ، أو خارجا منه .. الخ .. الغريب انه وكل فتاة معه ، كانا يبدوان حبيبين سعيدين ، لا أقل من عشيقين متفاهمين لن يفترقا أبدا !

حتى فاجأنا عصر يوم ، وهو جالس معنا يشرب القهوة : « يا جماعة ، أنا تزوجت أمس » كأنه يقول : « أنا تغديت اليوم »

وقبل أن نطلق عليه ما ينبغى أن تتيحه جملته التقريرية من أسئلة واستنكار ودهشة وعتاب ، سبقنا هو فأعطانا عنوانه الجديد ، وفوقه تعقيبه بأنه سيسعده هو وزوجته أن يستقبلانا في اليوم التالى .

زرناه في الميعاد وعرفنا بعروسه . من أول نظرة، تبدو هذه السيدة الصغيرة جميلة جذابة ، لكنها تزداد جمالا باستمرار كلما فاض مرحها الهادىء الحزين ! نعم لست أدرى لم كنت أشعر أن مرحها يستقى من ألم مستقر في قلبها .. انتابنى اشفاق عليها ، منه ، فقد كان مظهرهما .. في هذه المرة أيضا .. ينم عن الوفاق والحب ! نظرة سريعة يتبادلانها كانت كافية للتعبير والتفاهم عن أشياء كثيرة . بدأ على الفور بالاعتذار لنا بأن « المسألة » كلها جاءت فجأة .. فلم يحضر قرانهما سوى أقرب الأقارب لأن أمها قد توفيت حديثا .. ولا شك أنه قد خطر لبعضنا أن يسألها : « من أنت ؟ ، وكيف التقيتما ؟! وما هى علاقتك به قبل الزواج ؟ » لكن السؤال ظل محبوسا ، بالطبع ! ، ولهذا شعرنا كأنها متوطئة معه فيما بدا لنا « مؤامرة » علينا أثارت غيرتنا منها ! وبقى هذا السؤال معلقا في الرءوس كسابقيه . وان كان هناك اختلاف واضح في هذه الحال . فهذه زوجته . ثم هو لم يعد بعد ذلك « يتجنب » ذكرها اذا كانت هناك مناسبة . لكنه من ناحيته ، لم يجب على ذلك السؤال قط .

لهذا ، وافقنى الجميع في شغف ، حينما قلت ، « يفتتح ابراهيم البرنامج » .

لكن ابراهيم التفت الى فاقتحم عينى بعينين فاهمتين مستنكرتين تلمعان من خلال ضباب الخمر فوق حافة كأسه التى رفعها الى فمه . فاستدركت « لأن اسمك يبدأ بالألف »

كنت أتوقع منه أن يرفض مباشرة . لكنه أجابنى مداعبا ومبتسما في بساطة ، وهو يعيد كأسه الى المائدة : « خلونى للآخر ، لو سمحتم . أريد أن أكون أمينا فأنفذ شرط فؤاد : حبى الأول » وضحك « الذى لا أول قبله .. أرجو أن يكون لدى الوقت الكافي للبحث في ذاكرتى بعناية ودقة ، بينما أستمع الى قصصكم التى أحس انها ستكون مثيرة للخيال ، رائعة » .

لم يعترض احد على تأجيل دور ابراهيم للنهاية .. بدأ فؤاد .

***

كان في السادسة عشرة وكانت « فتاته » فى مثل سنه تقريبا . كانت صديقة لأخته ، تأتى لتزورها في بيتهم ، وقد تعرف عليها هناك . حلوة ، رقيقة نقية كمريم العذراء . كانا يسترقان وقتهما من البيت أو المدرسة ، يتفسحان في قارب ساعة في النيل أو في الحدائق أو السينما ، يتناجيان في شاعرية ، وهما ينسجان المستقبل معا من الاحلام . كان يسعده أن يرى وجنتيها النضيرتين الناعمتين كاللبن وهما تتضرجان بغتة بحمرة الورد ، حينما يختلس أحيانا قبلة ولهى من ظهر يدها . ثم اذا هى تلقف يده براحتيها الصغيرتين وتضمها بينهما في امتنان متوتر جياش . ظلا على هذه الحال حوالى ثلاثة اشهر ، حتى وجد نفسه يصحو في ظلام ليلة بين أحضان خادمة جميلة ومتمرسة ، جاءت عندهم حديثا وقد اضطرت للعمل فى بيتهم « كمربية » بعد ما خرجت من عيادة الطبيب الذى كانت تعمل عنده كممرضة . كانت في الخامسة والعشرين تقريبا .. وسيطرت عليه بجسمها في عنف جعله لا يطيق ـ بعد تلك الليلة ـ أن يبتعد عنها بالليل أو يفوت فرصة للانفراد بها أثناء النهار . انقطعت عنه فتاته الصغيرة لأنه لم يعد يسأل عنها ، بل وانقطعت عن زيارة أخته رغم أن البيتين متقاربان . لقد كف عن مقابلة حبيبته الصغيرة ، دون أن تطلب منه فاتنته الجديدة ذلك ، ودون ندم . لكنه ، بعد فترة ، تلقى من الفتاة على مدرسته خطابا يكاد يحترق بما فيه من العتاب واللوم .. كان أول ما فعله عند رجوعه ، أن قرأ هذا الخطاب على حبيبته الجديدة متفاخرا ومحاولا أن يشعرها بتضحيته من أجلها ، فمزقت هذه الخطاب أمامه ، وهو يضحك راضيا بهذه الغيرة المشبعة بالحب ودفء الدلال وسرعان ما تحلل الندم الخفيف الذى كان يشوب ـ في السر ـ رضاه .

تكررت خطابات الفتاة ، وهو لا يستجيب لها ، حتى تحول العتاب فيها الى استعطاف خيالى أليم ينزف من ولاء مجروح . ولما وجدت الحبيبة البريئة ـ والحرمان يحرقها والمهانة تجذبها ـ أنه لم يعد هناك ما يمنعها من أن تنحدر درجة أخرى ، مادامت رسائلها تتساقط مخذولة بلا رحمة عند قدمى حبيبها كطيور ميتة ، كتبت له رسالة جديدة وذهبت «لتزور أخته».

فتح هو الباب . ارتبكت واصفر وجهها ، حتى خيل اليه أنها على وشك أن تسقط مغمى عليها ، ثم ما لبثت أن تضرجت وجنتاها بالدم ، وهى تفتح حقيبتها بسرعة وتخرج منها في لهفة رسالتها ، وكانت يدها



تنتفض بشدة وهى تدسها في راحة يده . خطفها بنفس السرعة ووضعها في جيبه ، وسار أمامها صامتا في تؤدة حتى حجرة الجلوس ، ((تفضــلى)) ! .. أعطاها ظهره وخرج .. ! لم يجلس معها بصحبة أخته يضحك معهما كما كان يفعل . فقط ، مر أمامها في الردهة مرة ثانية دون أن يلتفت اليها . ودخلت عليها أخته .

لم تكد ترحب بها ، ثم تسالها عن سبب غيبتها الطويلة حتى انهارت الفتاة . ســمعها من الردهــة تجهش بنشيج واضح ، حاولت بكل قوتها كتم صوته. لم تعترف لأخته بشيء ، طبعا . كل ما قالته تبريرا لبكائها هو أنها مجهدة من أثر الاســتعداد للامتحــان ولا شك أن الفتاة الخجول المجروحة الكرامة قد خيل اليها أن أخته ـ حينما ضحكت في بساطة مســتخفة لترفه عنها ـ كانت تخفى سخريتها منها لأن مشاعرها السرية الحميمة قد تعرت أمام عين صديقتها . وربما لم تكن مخطئة في تخيلها تماما . ثم دخلت غريمتها لتأخذ شيئا من الحجرة . وتلاقت عيونهما . ترى أفهمت الفتاة من نظرتها اليها أنها عشيقة حبيبها ؟ الى الآن ـ كما يقول ـ لا يدرى .

وعشيقته تجنبت الحديث معه عن الفتاة بعد هذا اليوم ، بل وأرغمته على ذلك . أكانت تغار منها ، أم تشفق عليها ؟ ... المهم أنه لم يذهب لمقابلة الفتاة في الموعد الذى ضربته له في تلك الرسالة الأخيرة ، ولا يعرف ان كانت هى نفسها قد ذهبت للقائه أم لا ، لأنها كفت بعد هذا عن الاتصال به ، في المدرسة أو البيت .

حتى كان عصر ذلك اليوم الذى كان جالسا فيه يتناول الغداء مع كل أسرته ، عندما أخبرتهم الخادمة، دون أن تنظر في وجهه هو ، وكأنها تحكى ببساطة عن حادثة مؤلمة ، لكنها لا تؤثر في أحـد منهم مباشرة ، بصفة خاصة ، أن الفتاة ـ صديقة أخته ـ قد اكتشفت أسرتها صباح ذلك اليوم أنها قد ماتت منتحرة باقراص منومة . لم انتحرت ؟ ولماذا في ذلك اليوم بالذات ؟ لا أحد يدرى .

كان ذلك الخبر صدمة قوية أفاقته بفظاظة من أحلامه الخدرة .. كره الخادمة وصمم على ألا يمس ابدا جسمها المشؤوم كالكوليرا)) .

كان يقفل باب حجرته عليه ويروح في بكاء طويل لا ينتهى ، حتى في نومه . الحنين الى فتاته كان يوجع عظامه ، وبسمتها الوضيئة وأحلامهما الضــائعة تملأ صدرة بالحسرة واليأس .

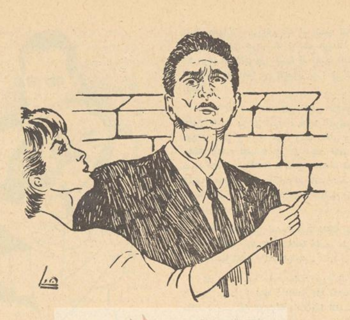
أما الخادمة فقد يسرت المحنة عليه بقدر طاقتها ، تجنبته وحاولت أن تجنبه حتى رؤيتها . لكنه بمرور الوقت ، بدأ يتساءل : لم لم تحاول الاتصال به هذه الخادمة المقيتة . ولعن نفســه اذ وجد رغبته فيهــا تعاوده ، أقوى مما كانت .. كان يغالبها بارادة كان هو نفسه يعجب لها . لكن مقاومته كانت تخور يوما بعد يوم . وعرف أنها لن تصمد طويلا ، فانقلب بصراحة وفي ضراوة ضد الخادمة . ولم يندهش اذ لقى أخته هى الأخرى تتساق في اهانتها عن عمد ـ وكأنهما على اتفاق صامت فيما بينهما ـ بل راحت تحرض أمها على طردها .

وذات يوم فوجيء بأنها هى التى قررت الخروج، من تلقائها .. وأصرت رغم محاولة أمه ، التى كانت تحبها ، أن تبقيها . ذهبت وهى تودعه بعينين فيهما عتاب ، ودموع ترتعش دون كلمة .

لم يكد ينفرد بنفسه حتى ترك دموعه تنساب . أحس أنه يحبها بقوة . هى لم تخطيء ولم تسيء الى أحد . كانت كريمة معه وحنونا ، منها أحب نفســه وعرف معنى دمه . وكان شوقه اليها حارا ومعذبا بحيث طغى على حزنه العميق على حبيبته المنتحرة . وهو الآن ، لا يعلم بالضبط لأى الفتاتين كان أول حب له ، وان كانت كل منهما قد تركت في قلبه أثرا باقيا كالندبة حتى الآن .

●●●

استمعنا لقصة فؤاد ساكتين . أما أنا فرغم الخمر التى كانت تســـلل بهـدوء الى رأسي فقد تذكرت



كالوميض ، بمجرد أن بدأ في حكايتها ، ان فؤاد نفسه كان قد حكى لى هذه القصة ذاتها بمواقفها وعواطفها (كما سردتها هنا) منذ سنتين ، وأكد لى أنها قد حدثت لابراهيم، وكان يبدو مزهوا وقتها لأنه قد استطاع ان يكتشف بنفسه ـ ودونا عنا كلنا ـ سرا خفيا عن حياة ابراهيم وهو يحملنى جميل ايثاره لى بافضاء هذا السر المكتشف . عرف هذه القصة بلباقة من أخته، روتها لها صديقتها أخت ابراهيم ... وفخورا لأنه استطاع أن يلم شعثها بعضه الى بعض فيصيغها متكاملة ويرويها !

على أى حال ، ما كان لى أن أتدخل وأحرجه الآن ، اذ ، مهما يكن ، سواء كانت قد حدثت لابراهيم، ورواها فؤاد الآن ليظهر بها « بطلا » (فقد كان واضحا أنه يلذ له أن يتقمص شخصية من تنتحر فتاة من أجله، ناسيا أنه كان قد حكاها لى منســوبة لابراهيم) ومحاولا في نفس الوقت أن يقوم بلعبة سوداء ، فيثير ابراهيم مواجهة وبغتة ... وسواء أكان قد فكر في هذه القصة وعاشها زمنا جعله يقتنع أنها قد حدثت له فعلا ، أم أنها قد وقعت له حقا ، أم أنه يلعب بى أنا الآخر (وهو مالا أستبعده أيضا) فان اللهجة المؤثرة التى كان يرويها بها لم تشغلنى عن مراقبة انعكاس الرواية باستمرار على وجه ابراهيم . ظلت ملامحه جامدة . وبقيت عيناه مركزتين دون تعبير على شفتى فؤاد حتى انتهى . واستمر هو سادرا في صمته يرفع الكاس الى فمه بين الحين والحين .

وجاء دورى أنا بعد فؤاد ... وقصتى تافهة كان يجب على أن أحكيها وقتها ، ولكنها لا تستحق أن تعاد هنا .

وتلانى نادر . لست أذكر الآن قصته كاملة وان كنت أتذكر ضحكنا خلالها للمساته المرحة ، وهى قصة حبه لزوجته الذى أصر ـ رغم اعتراضنا ـ على أنه أول حب له ..

أما وجيه ، فكانت حبيبته الاولى بنت الجيران ، نفس القصة العادية القديمة . أحبها وأحبته في حمى لا تخلو أحيانا من فجور ـ هكذا قال . ثم زوجها أهلها رغما عنها وأنجبت .. قابلها أخيرا في الطريق وحدها ، بعد هذا الزمن الطويل . حاول أن يكلمها فأعرضت عنه ، ظنها نسيته وهو يعجب من ذلك ، فاضطر مكرها أن يذكرها بنفسه . لكنها « لوت بوزها » وأسرعت في السير ، تبعها . واذا هى تتوقف فجـــاة فتواجهــه وعينـــاها تشـــتعلان . لوحت بســـبابة يمناها في عينه : « اسمع ياافندى . بلا قلة أدب . امش في حالك أحسن لك ، والا أنادى لك البوليس » ! وكان صوتها مرتفعا « وغدارا » بحيث جعله يمشي في حاله فورا ! .. وضحك على نفسه فشاركناه ضحكه فترة ثم صمتنا جميعا مرة واحدة والتفتنـــا مترقبين الى ابراهيم .

●●●

صب لنفسه كاسا ، ورفعها الى فمه . بدا كأنه لا يدرى أن الدور قد حل عليه أخيرا ، وأنه الآن ملتزم

مثلنا ـ وقد سـمع « اعترافات » كل منا ـ أن يحكى لنا قصته هو الآخر .. وربما كان يزيد من توتر رغبتنا في الاستماع اليه أنه يكره أن يكذب لانه يعتبر الكذب اعترافا اختياريا بالضعف أمام الأخرين وبالتالى تملقا لهم.خيل الينا أنه سيتهرب منا ، خصوصا وأن نظرته ظلت جامدة التعبير طوال حـكاياتنا . ولم يشاركنا ضحكة ، بل لا أقل تعبير . أكاد أجزم بأن نادر ووجيه ماكانا ـ وهما سكرانان ـ ليتراجعا عن ضربه ، لو كان قد أبى أن يتكلم ! . لكنه أعاد كأسه الى المائدة في هدوء ثم اتكأ في كرسيه الى الوراء . وتنهدنا نحن في راحة ، عندما فتح فمه وراح الكلام ينساب من شفتيه على الفور . بدأ يسترسل كأنه يتحـدث في موضوع منفصل عنه بصوت هادىء ، غير متلعثم رغـم شربه الكثير ، كعادته في المرات التى يشرب فيها :

●●●

« قصتى التى سأحاول أن أرويها لكم حية كما عشتها وقتها ، رغم بعدها الشديد ،كانت منزوية عن وعيى تماما عبر عمر طويل . الحقيقة أنها انتفضت خارجة بالصدفة . لقد بدأ عقلى بحثه متراجعا من الحاضر الى الوراء ، ثم عدلت مسراه .رأيت أن يبدأ مباشرة من بداية مراهقتى،السن التى يبدأ فيها عادة حب الانسان الاول.ركزت تفكيرى في نقطة حسبتها البداية. وفجاة ، وأنا أزيح عن ذكرياتى ركام السنين ، طفت هذه الذكرى وحدها الى السطح قوية واضحة بكل تفاصيلها فتملكتنى . أعترف أنى أشعر الآن بهذا الحنين اللاهب الذى ينتاب الانسان حينما يسترجع بعد زمن حبا قديما وضائعا ،

ارجوكم لا تتوقعوا من قصتى البسيطة ما يثير ، اريد أن أكون أمينا معكم ، فكل ما أستطيعه هو أن أعبر عن نفسي ، دون أن أضطر الى زيف قد يبدينى في نظركم صدقا لأنه يلذكم . لكنى لا أحبه فهو زيف على أى حال » .

توهمت لحظة أنه يلمح الى فؤاد ، لكن ابراهيم كان يمضي دون أن يبدو عليه أى ظل يوحى بأنه يعنى أو يفكر في غير ما تعنيه كلماته . « انى أدهش من نفسي لهذا الحنين الغريب ينتشر في نفسي وبحسرة . نعم ! بينما كانت هذه الذكرى ملقاة مهملة في قاع نسيانى تماما لمدة أكثر من ربع قرن .. » .

قاطعه وجيه بحدة : « ماذا تقصد ؟ .. تعنى أنك ستحدثنا عن حب طفل في الخامسة . ؟ ! »

أجابه ابراهيم في هدوء : « هذا هو حبى الاول ».
فالتفت فؤاد الى وجيه وقال كأنه يمثلنا كلنـا « اسكت انت يانادر » .

وتدخلت أنا : « أظنـــه مثلنا جميعا .. أدرى بمشاعره» ... والواقع انى كنت متلهفا الى معرفة الام يرمى ابراهيم في النهاية . انفعالاته هو هى التى كانت تهمنى فى المحل الاول قبل قصته ذاتها ، مهمـا تكن . ولهذا ضايقتنى مقاطعة وجيه له .

رد وجيه وهو يهز كتفيه كأنه يسـتسلم لحـكم أغلبية ظالمة : « سكت ! » .

استرسل ابراهيم ـ مبتسما فى مـرارة ـ وكان واضحا أن مقاطعته لم تعق جريان أفكاره : « خمس وعشرون سنة مرت . والآن ! ..» ، وضحك سـاخرا من نفسه فى نبرات حزينة ممزقة من أثر الشرب ، «كأنه يجوز لى أن آسى على ضياع ماكان ينبغى أن يستمر!» وضحك مرة ثانية . ثم قطب ..

« كنت وقتـذاك فى حـوالى الخامسة » وسكت لحظة . « وكانت ضـحى فى العشرين » . هنـا رفعت بصرى لأرقب عيون الآخرين ، فاذا كلنا نتبادل نظرات سريعة تنطق بالدهشة والاستنكار ، لكنا بقينا جميعا ساكتين . « أيستطيع أحدكم أن يصف الضوء ؟! .. هكذا أعجز عن وصف ضحى . أسمعها الآن تحدثنى . صوتها يتنفس حيا داخـل صـدرى . الآن ! .. كأنه ترجيع صريح لموسيقى كانت تملأ الوجود حولى، وسكتت فقط منذ لحظات . نبرات أنغامها اليمة فى مرحهـا الرقيق . دائما تتردد السين نافذة من تحت سنتيها العلويتين لتخرج مارة فوق شفتها السفلى ، كنغمـة رقيقة من فلوت .

كنا نسكن فى منزل واحد ، بمنيل الروضـة . أسرتى فى الدور الاول ، أما أسرتها فتسكن فوقنا . كانت ضحى تعيش مع أبيها وزوجته واختها منهما ، لان أمها كانت متزوجة برجل آخر يقيم فى طنطا على ماأذكر وكان أبوها موظفـا فى شركة ، ان لم يخطئنى الظن ، فقد كان يلبس قبعة صفراء جافة مستديرة الاطـار ، يذهب لعمله فى الصباح الباكر قبل أن أذهب أنا الى المدرسة ، ويعود العصر متعبا متجهما ؛ يخلع نظارته السوداء ، يلقى بجسمه فى كرسى بالصالة . كان يسره أن يرانى أحيانا ، يحاول مداعبتى فيعبث فى شعرى ، لكنى كنت أهرب من تحت يده الغليظة وأجرى الى تحته.ورغم أنى لم أكن أكرهه،فقد كنت أهابه ولا أرتاح لرؤيته لأن عينيه لم تكن لهما سماحة عينى أبى .

أما زوجته فكانت ناصعة البياض صفراء الشعر، سمينة جدا ، فى حوالى الاربعين . أنجبت منه أختـا لضحى ، كانت فى مثل سنى تقريبا .

أما أنا فلم يكن لى فى ذلك الوقت سوى أختى التى تصغرنى بعـام . كانت طبيعتانا مختلفتين ، فهى تميل الى السـكون ، بحيث لم نكن نشترك فى شيىء اطلاقا ، وملتصقة دائما بأمها ، تقلدها وتتبعها حيثما تروح . ولهذا كنت كأنى وحيد ..

كانت ضحى تنزل عندنا فى الصباح وتقول لأمى : « جيت بنفسي لأفطر ابراهيم بيدى » . تقعدنى على

حجرها وتطعمنى . وحينما أخرج ، تطل على من شرفتنا باسمة وتقول أحيانا : «بسرعة . الحق المدرسة قبل مايضرب الجرس » .. وأنا أمضى راضيا ، أظل طول الشارع ألتفت خلفى نحوها ، حتى أصل الى المدرسة ... كنت أترقب تلك الايام القليلة التى تنزل من أجلى فيها . أبقى كل صباح انتظرها ، أتلكأ فى تناول فطورى، وحينما لاتنزل وترى أمى أنى لابد أن أذهب الى المدرسة حتى لاأتأخر ، أكبت فى صدرى بكائى وعتابى ، وحينما أصعد اليها فيما بعد ، أنفس عنهما بضم صدرى بقوة الى صدرها الحانى .

وعند انصراف المدرسة ظهرا ، كنت أجرى راجعا الى البيت ، وان لم أجد أمى واقفة فى الشرفة ، أصعد مباشرة الى شقة ضحى .

وقد اعتادت أمى هذا ، فكانت تزور جاراتها نهارا دون ان تحمل هم عودتى وهى غائبة ، وحين تعود تنادينى لاتغدى ثم أنام . وبمجرد أن أصحو ، أصعد مرة أخرى عند ضحى ، وأشعر بأنى على سجيتى بعدما ينزل أبوها عند المغرب ذاهبا الى القهوة . وعندما يحل الليل كانت ضحى أحيانا تحملنى بنفسها وتنزل بى الى شقتنا سواء كنت نائما أو صاحيا وقد تبقى عندنا بعض الوقت ، فينتهز أبى الفرصة ويجلسنى معه يلاعبنى ويسألنى عما تعلمته فى المدرسة . ثم يأمرنى ، بطريقته الخاصة : «الزم السرير» . ويضيف ضاحكا مستخفا بمشاعرى وناظرا الى أمى : « وضحى ياسيدى لن تضيع ، فستراها الصبح على أى حال » .

وأحيانا ، كنت أتعلق بضحى فأرفض النزول . فترجو هى أمى أن تسمح لى بأن أتغدى معها وأنام عندها حتى يرجع أبوها .

لم يكن هذا يحدث برضى أمى بل على غضب منها، وغيرة ـ يمكن أن تقول ـ أحيانا . كما لم يكن يحدث أيضا برضى زوجة أبى ضحى : «تانت» كما اعتدت أن أناديها . كما أذكر ، هى التى رحبت بى أول الامر فى حرارة ، بل كان يسرها أن ترانى . أكانت تشتهى أن يكون لها ولد مثلى ؟ ربما ..

لم تبخل هذه السيدة على بنتها بأى لعبة تعجبها . عروس تتكلم ، قطار يجرى على البلاط ، طائرة تقذفها نحو السقف فترتد مخبوطة على الارض.. ولم تبخل على بألعاب بنتها بل كانت تستحثنى على اللعب بها . لكنى كنت أترك ـ لبنتها لعبى أنا التى كانت أمى تحملنى اياها لألعب بها معها ، وألجأ الى ضحى ، يسعدنى الاحتماء بجنبها على الكنبة فتحيط عنقى وكتفى بذراعها الطيبة ، تسترجع معى دروسى البسيطة . أذكر الآن حكاية جعلتها تضحك طويلا ، وهى أن مدرستى التى كانت تعلمنا الانجليزية علمتنا كيف ننطق حرف بأن شبهته برجل كان يسير فى الشارع فى حاله ، وفجأة سقطت فوق رأسه طوبة

(النقطة) فصرخ : «آى» ! وكان يلذ لها أن تروى لى بعض الحكايات الخرافية ، كان صوتها يتسلل داخل صدرى ، يمتد الى قلبى ، يربت عليه ، أو يضمه ، والسنين تعزفها طول الوقت ، فيلتصق رأسى الصغير مطمئنا بجنب صدرها الناهد فى تأثر وحب .

كان فى امكانى ـ رغم ايثارى البقاء معها دائما ـ أن أكرس بعض وقتى للعب مع تلك السميجة ، لكنها كانت طفلة غبية ، فضلا عن كونها بيضاء وسمينة جدا كأمها ، أنانية ، ومقبضة الخلقة ، لاتبتسم الا قليلا ، وحين تبتسم تبدو ملامحها كريهة سمجة ، فأنفر من مجرد الجلوس معها دقيقة واحدة على الارض ، وعلى مضض . وربما كان يزيد من ضيقى بها أنى كنت أحس أن أمها كانت تحبها جدا بينما تكره ضحى .

بالتدريج كانت «تانت» تزداد ضيقا بى ، لكنها لم تكن وقحة ، كانت متزنة تميل الى الهدوء . ولم تخف غيظها من ضحى لانها كانت تقضى وقتها معى وهى راضية ، « فى حين أنك لاتهتمين بأختك ولو قليلا ، هى أولى ، أظن !، أم انك شايفة غير هذا ؟ » ، كما سمعتها مرة تقول لضحى على جنب .

لكن ذلك لم يغير من سلوك ضحى معى بل ربما زادها ارتباطا بى ، دون أن يكون فى تصرفها أى أثر لحقد أو رغبة فى اغاظة زوجة أبيها ، فما كان للمشاعر الدنيئة أن تحيا فى نفس ضحى اطلاقا . صحيح أنها لم تكن تتبادل الحديث مع تلك المرأة كثيرا ، لكنى واثق أنها لم تكن تكرهها .

وحينما تأخذنى معها فى حجرتها لأنام فى حضنها كانت تغمرنى بقبلاتها على وجنتى وفمى وجبينى ، تحكى لى مايحدث لها فى يومها حتى وهى تطبخ . حينئذ كانت تنقلب جادة كطفل عابس تشيع فى وجهها غمامة تحجب بسمته الدائمة ، تكلمنى كأنى من سنها أحيانا، حتى كان ذلك اليوم الذى عرفت هى فيه شعورى :

●●●

كنت راقدا جنبها . قالت وهى تضمنى الى صدرها متنهدة :

« آه لو كنت أخى يا ابراهيم .. ! لو كنت كبيرا ! » . أبعدت وجهى عن صدرها لأستطيع أن أنظر فى عينيها ، وسألتها :

« لماذا ياضحى ؟ » . نفثت زفراتها فى جبينى وهى تعيد وجهى الى مكانه من كتفها بذراعها . بدا أن فكرها راح فى تأمل بعيد ، ولم تجبنى . استدرت اليها وقلت لها فى حرارة :

« أنا الذى كثيرا ماتمنيت أن أكون كبيرا .. » . قاطعتنى ضاحكة :

« لم يا ابراهيم ؟ » .. أجبتها بلهفة وسعيدا :

« كنت أتزوجك .. ! مثل بابا وماما ، وكما

تزوج أبوك تانت » : قالت ولهجة جـــادة تتسلل فى ضحكتها الرفيقة :

« وماذا كنت تفعل بى لو تزوجتنى ياابراهيم ».

« كنت أسكن معك فى شقة وحدنا لاتكون معنا فيها تانت وسميحة .. ولا تناديني ماما ، فاضطر أن أبيت بعيدا عنك » فسألتنى مشاكسة :

« أنت لاتحب سميحة !؟ »

« ولا تانت » .

« لم يا ابراهيم ؟ »

« لأنها لا تحبانك » .. نطقت عيناها بالدهشة فجاة ، ثم قبلتنى وهى تحضننى .. ابتعدت عنها وقلت في حماس غضوب :

« أنا صغير ، لكنى أعرف كل شيىء .. ! أنت وحيدة لأن أمك متزوجة غير أبيك وأباك متزوج تانت. لقد سمعت ماما تتحدث عنك مع بابا .. ماما تحبك ، وكانت تقول عنك انك وحيدة وغلبانة .. »

تقلبت على الفراش ثم قهقهت بعصبية وهى تقول:

« غلبانة » ! واسترسلت في ضحكها ، فقاطعتها :

« آ ! وأنا أحبك من أجل هذا . أحبك جـدا ياضحى ! » وحضـنتها أنا بعطف جائش . توقفت ضحكتها وهى فى صدرى . بقينا ساكتين فترة ، حتى شعرت بدموعها تسـقط دافئة على خدى .. تراجعت قليلا ونظرت في عينيها . صعبت على الى درجة انى تمنيت أن أموت من أجلها ، فاجهشت بالبكاء ! بكيت لأول مرة أمامها !

مسحت دموعها بأناملها وقبلت دموعى بشفتيها ، ثم قالت لى وهى تعيد ابتسـامتها « الدائمة » الى وجهها :

« أنا أيضا أحبك يا ابراهيم ، وأنت عارف ، أحبك أكثر من أى انسان في الوجود ! .. » كانت تتكلم بحرارة ، وفجاة سكتت .. ثم قطبت ناظرة خلال الهواء. وبعد قليل سمعت صوتها جادا خفيضا حزينا :

« أنت الوحيد الذى يحبنى باخلاص في هـذه الدنيا » . وسكتت مرة أخرى . وبعد لحظات ، نطقت من جديد وهى لا تزال تنظر في الهواء : « أتعرف لم اتمنى الآن اكثر من قبل أن تكون كبيرا يا ابراهيم ؟ ». سألتها في لهفة :

« لماذا » ؟

« لأنه لا ينقصك سوى أن تفهمنى ! » ، وضمتنى في حب مشوب بالغيظ ، « لو أنى أتحدث معك فتستطيع أن تفهمنى ! » . فهتفت (وربما يصعب عليكم تخيل هذا ، لكنه هو ما حدث) :

« لقـد تمنيت أنا أن تفهمينى أنت ! .. » . فانطلقت منها ضحكة ، لكنى قطعتها :

« أنت لا تعرفين انى بكيت كثيرا بســـببك . تعرفين ؟ » . فتساءلت مستنكرة في حنو : « بسببى انا ؟ ! أنا يا ابراهيم ؟ »

« اذا لم تنزلى من أجلى في الصباح ، أحيانا ، كنت أبكى في المدرسة . كنت أفضل أن أبكى وحدى على أن أشكو لك فيما بعد أو أن أبكى أمامك .. وفى هذه الأوقات ، كنت أقول لنفسي وأنا أبكى : « ربمـا تحسين وأنت هناك انى أبكى هنا . لكنى كنت ألقاك بعد ذلك فأراك تضـــحكين في وجهى ، فأعلم أنك لم تعرفي ! » . قالت حانية ، وفي تشوف : « يا حبيبى يا ابراهيم ! .. ولماذا لا تريد أن تبكى أمامى ؟ »

« لأنى .. لأنى .. لا أدرى لماذا . لأنى .. أخجل منك .. » . أبعدتنى قليلا عن صدرها ، تتأمل الحمرة التى شاعت في وجنتى .. وقالت مداعبة :

« تعرف أنك ولد شقى ! الآن أنا لا أستغرب قول تانت : احترسي في كلامك أمام هذا الولد . صحيح هو صغير ، لكنه نبيه . »

« لا .. هى لم تقل هذا ! سمعتها تهمس لك خلف باب حجرة النوم .. لم تقل انى نبيه ، بل خبيث ، لئيم كرجل عجوز ! لكن والله ياضحى انى لا أقول كلمة لأحد ! وماما لا تسألنى .. هى التى علمتنى ألا أنقـل الكلام . » وسكت لحظة ثم قلت منفعلا :

« حتى لم أقل لها ، ولا لأحد ، انى أحبك ! » قالت مبتسمة في تخابث :

« ماما عارفة من نفسها انك تحبنى ، طبعا ، وأنى أحبك أيضا يا ابراهيم . أليس كذلك ؟ » . قلت لها في وجل :

« أنا أحبك كما في السينما ياضحى ! وماما لا تعرف ذلك أبدا ! » : غارت عيناها في عينى ، تفحصنى وهى تسألنى ، كأنها تعذبنى ، وهى تبتسم برفق :

« ولم لا تقول لها ذلك ؟ » . تدفق الدم مؤلمـا في وجنتى ، وأبعدت عينى عن نظرتها المسـلطة على قاعهما . تأملت قماش كيس المخدة بين وجهينا وأنـا أجيبها :

« لأنى .. لأنى أخجل ! .. » وشعرت بالضيق . « أنا لا أحب أن أقول لها ! » . حوطتنى بذراعها من جديد ، وهى تسألنى فى دلال :

« وتحب أن تقولى لى أنا ؟ » . لم أجبها . وربما حبست لسانى مشاعرى الفائضة التى كادت تبكينى. وبقيت هى تتأمل وجهى بعينين مبتسمتين فترة.وفجاة، قبلتنى في خدى بحنان قوى ثم انقلبت على ظهرها .

وظلت شاردة تحملق في السقف ، وانا – على جنبي – أرقب تكوين جانب وجهها وشعرها الفاحم ينساب عطرا من تحت راسها الى صدرها وانفى ، حتى رحت في النوم .

●●●

« خطا وتنكر لماضينا أن نجرد الطفل من المشاعر التى يحسها الكبار ، بل هو خطا اكبر أن نحسب الطفل يحسها مثلهم . انها – في نفسه – أعمق واقوى ، واخلص . بل يمكن أن تكون أبقى . على الأقل ، انا اتحدث عن نفسي ، وان كنت لا اظننى اختلف عن غيرى كثيرا من هذه الناحية . كل ما في الأمر ، اننا ننسى باستمرار ، كما أننا نتكبر – دائبين وعلى طول حياتنا – على مشاعر امسنا ، وكأننا نرقى اذ ندوسها في طريقنا وتتخطاها ! » . سكت لحظات وهو ينظر الينا ثم أفرغ لنفسه كأسا جديدة .

« صباح اليوم التالى ، نزلت ضحى عندنا . كانت عيناها هما اللتان تبتسمان لى ، وهى تفطرنى بيدها. وحينما ودعتنى على الباب قالت لى ملتفتة الى أمى في مرح :

« بعد اذن تانت ستتغدى معى اليوم يا ابراهيم. ساطبخ لك بنفسي الملوخية التى تحبها » . فردت أمى ضاحكة :

« اسمعى ياضحى ، الا تأخذينه على طول وتريحين قلبى ؟ » فضحكت ضحى ، وسمعتها تقول قبل أن أجرى سعيدا الى المدرسة :

« ياليت يا تانت . ترضين أن تستغنى عنه ؟!» ..

بعد الغداء ، لم أكد أستلقى جنبها على السرير حتى سالتهـا ذلك السؤال المستطيل الذى بقيت طول النهار افكر فيه :

« أين امك ؟ لماذا لا تأتى لك أبدا ؟ لماذا تركهـا أبوك وتزوج تانت ؟ وتانت ، لماذا لا تحبك ؟ » .

لم يصدمها سؤالى ·· وانى لأرى الآن بوضـوح بريق عينيها اللاهف الى التعبير عندما ردت على دون تردد :

« ستفهمنى يا ابراهيم ؟ ».شعرت كأنى أكبر منها، وأومأت برأسي مرتين في وقار رجل كبير ! لكنها عادت تكرر :

« صحيح ؟ ». هززت رأسي ثانية فى اهتمام .

«ما أقوله لك يا ابراهيم لا أحب أن تقوله لأحد». حضنتها بقوة ، على قـدر طاقة ذراعى الصـغيرتين النحيلتين . وقلت لها فى حمية واخلاص :

« لن أقول لاحد ! والله ياضحى !»

هكذا بدأت تفتح لى قلبها .

« وانا أصدقك يا ابراهيم . اتعرف أنك تشبهنى؟ كنت أفكر في كلامك امس وانا نائمة وحدى بالليل .. لقد كنت مثلك تماما ! تذكرت أيامى وانا صـغيرة في سنك . كنت أدرك كل شيىء أكثر من الكبار ، والناس حولى لا يمكنهم أن يتخيلوا ما أفكر فيه ، وانا اعرف ذلك ، واهزأ منهم بينى وبين نفسي ! » ، وضحكت من قلبها ، « وأنت ، ألا يحدث لك هذا أحيانا ؟ » وضحكت مثلها :

– « يحدث ياضحى ! »

« كانهم لم يكونوا اطفالا ابدا .. ! انظر الى ! انى كبرت في عمرى وجسمى ، لكنى مازلت في نفسي طفلة مثلك .. نفس الطفلة التى كنتها ! ربما لهذا ارتاح اليك أكثر من اى انسان » .

فرحت . وشعرت انها أقرب الى من اى وقت مضي ·· بالطبع ، انا لم أكن « مدركا » لمشاعرى كمـا أصورها لكم . لكن فهمى لها الآن لا ينفى انى شعرت بها على هذا النحو وقتذاك ··

كان كلامنا معـا هو اهم ما في حياتنا ، كاللعب بالنسبة للأطفال الآخرين ·· منذ ذلك اليوم ، راحت ضحى تحدثنى عن نفسها وحياتها ، يوما بعد يوم . لست أذكر الآن تفاصيل ما كانت ترويه لى ، وان كنت أذكر بعضها بحيث تكون صورة متكاملة عن حياتها مع أسرتها . كنت أنصت لها كالعجوز (مثلما شـبهتنى زوجة أبيها) ولكن في شغف . وانى واثق أن وعيى لما تقول ما كان ليكون أكثر لو انى أستمع اليه الآن . كنت أرى ما ترى ، أتقمص مواقفها ، كانت تبكى أحيـانا فتنساب دموعى معها ، أو تضحك ساخرة من نفسها فتتعانق ضحكتانا ، وعندما تجد فتقطب ما بين حاجبيها وهى مسترسلة في الكلام ، أستمع لها وانا أومىء برأسي على صدرى في اهتمام .

★★★

لقد طلقت أمها وهى صغيرة – لا أظنها ذكرت لى سبب طلاقها – ثم تزوجت رجلا آخر كانت تتنقل معه في عمله من بلد الى بلد . أما ضحى فقد بقيت مع أبيها بارادته دون اعتراض من أمها – ان لم تخنى ذاكرتى من هذه الناحية . كانت ضحى تذكر بوضوح وفى انفعال يوم فارقت أمها بيت أبيها . تشبثت برداء أمها ، لكن الأم دفعتها عنها بعنف وخبطت الباب وراءها وهى غضـبى . صرخت واندفعت تفتح الباب لتجرى وراءها ، لكن أباها جذبها ورماها على الكنبة بقسوة. كانت عيناه تبرقان ، فكفت عن البكاء وهى ترتجف من الرعب . ارتمى على كرسى أمام مائدة الطعام وألقى برأسه فوق ذراعيه مثنيتين على المائدة . بقى على حاله هذه زمنا طويلا . يمكن أن يكون ساعة كاملة أو أكثر، وهى في مكانها من الكنبة ترقبه . شعرت بالاشـفاق عليه لكنها لم تجرؤ على الحركة ، حتى رفع رأسـه فرآها أمامه ، وكأنه كان قد نسيها . كانت عيناه حمراوين دون دموع . قام فاتجه نحوها صامتا وأخذها

في حضنه وهو يبتسم لها ، وكان باديا عليه الذهول. انفجرت هى تنشج في صدره وهو يربت على ظهرها .

انتقلت عمتها من بلدتهم لتعيش مع اخيها المطلق وابنته الوحيدة في مصر . كانت تقوم باعمال البيت بينما الرجل في عمله وبنته في المدرسة . ظلت ضحى سنين على هذه الحال . أتمت تعليمها الابتدائي وانتقلت الى المدرسة الثانوية . كانت عمتها تدربها على الشغل في البيت بعد رجوعها من مدرستها ، حتى انتهى الأمر بان عمتها كانت تدع كل شيىء لها ، حتى تعـود ! وتضحك ضحى ـ وهى تذكر ذلك ـ في سماحة وتقول انه كان يسعدها ولم يضايقها ابدا ! ثم انه قد نفعها وهى كبيرة . هاهى الآن تقوم راضية بكل اعباء البيت وحدها ، من تلقاء نفسها ، بنشاط وسرعة بينما «تانت» نائمة او تزور جاراتها .

وبدا ابوها يعتاد ـ منذ أن طلق امها ـ ان يعود الى بيته فلا يبقى الا ليتناول غذاءه ويستريح قليلا ثم يخرج قرب المغرب مرة أخرى ولا يرجع الا وأخته وبنته نائمتان . خلال هذه السنين كان يسمح لبنته ـ دون تقييد ـ أن ترى أمها حينما تأتى هذه الى مصر فتنزل عند أمها ، كانت ضحى تذهب الى هذه الجدة لترى أمها بصحبة عمتها . كان يسعدها لقاؤها بقدر مايعذبها لأن الأم ذاتها كانت تأتى على فترات متباعدة حريصة في كل مرة على ألا تمتد اقامتها فى مصر أكثر من ليلة تبيتها ثم تغادر بعدها الى زوجها حتى لا تغضبه . لم تر ضحى هـذا الزوج اطلاقا ، ولم تر اخوتها الذين انجبتهم منه أمها !

وفجأة جاء عريس كهل لعمتها فانقطعت ضحى عن المدرسة الثانوية . وقد قالت لى ضحى في أسي تغطيه بضحكة ساخرة ، من نفسها كعادتها ، انها كانت تلميذة « نابغة » ! . الأولى دائما في الفترات ! وانها مازالت حتى الآن تحب القراءة خصوصا بالليل قبل أن تنام. استقرت في البيت وهى لم تبلغ الخامسة عشرة .. وبعد ذلك باشهر قليلة ، دخلت « تانت » حياتها : ولم يفكر أبوها ثانية في اعادتها الى المدرسة . كانت حريصـة على ارضاء أبيها حتى أن زوجته لم تجد منها ما يمكن أن تشكو منه . كانت ضحى تعلم أن اباها قد انفق شبابه على تربيتها ورعايتها دون أم لها تعينه . ومع هذا ، كانت تحب أمها كما تحبه . تظل شهورا تنتظر اليوم الذى يخبرها فيه أبوها أن تذهب الى جدتها .

حاولت زوجة أبيها أول الأمر أن تستفزها كثيرا، ولكن ضحى كانت تحاول أن تريحها حتى اسـتكانت الزوجة لهذه المعاملة المريحة ، وان بقيت ضحى تحس أن « تانت » لا تحبها . وكان أشد مايغيظ هذه المرأة منها أن ترى زوجها يهتم بابنته أمامها ، فكانت ضحى ـ دون أن يحس أحد ـ تحاول أن تجنب نفسها فرصة اهتمامه بها ، والعجيب أنها كانت تحب « تانت » هذه وتقول أنها معذورة !

لم يكن الخروج مباحا لها الا بصحبة عمتها أولا، ثم بصحبة زوجة ابيها بعد ذلك ، حتى وجدت نفسها تزهد الخروج ، وتفضل القيام باعمال البيت بالنهـار وزيارة بعض جاراتها أحيانا وخصوصا أمى لانها كانت تحبها وأمى تبادلها الشعور ..

انفقنا معا اياما طويلة تحكى عن كل شيء ونتذكر أى شيىء ، لست أدرى أو أذكر الآن طول هذه الفترة، اكانت شهورا أم أقل من شهر . لكنى ، في تلك الأيام كنت سعيدا ، لا أحسب انها ستنتهى يوما ما ، حتى كانت ليلة : نزلت عندنا ضحى ، واصرت ـ رغم معارضة أمي ـ على أن تبيتني معها . منذ تلك الليلة وعلى سرير ضحى ، انقلب حبى الى شقاء .

***

اخبرتنى أن شابا غنيا تقدم لخطبتها من أبيها في مساء ذلك اليوم وقد تم الاتفاق بينهما على أن تكون الشبكة مع كتب الكتاب ، لكنهما لم يحددا الموعد بعد. قدمت له القهوة واخبرها أبوها بعد ذلك ، قبل أن ينزل معه بأن هذا العريس مستعد لاى شيء ، غنى جدا ، سيتكفل بكل شييء ، عنده عربة وان كانت قديمة وشقة فاخرة ، يعيش مع أمه المريضة فيها ، ولن تكون العروس في حاجة الا الى الملابس اللازمة . كان يبدو عليها الرضا بهذا التغيير (وقد عرفت بعد ذلك أنهـا لم تكن راضية بالعريس نفسه) .

حكت لى هذه الواقعة ملهوفة . ثم سكتت مرة واحدة . وظلت سارحة فترة طويلة ، ثم قالت باسمة وكأنها تحدث نفسها : « يبدو انهم يستعجلون الخلاص منى » . أرى الآن ذلك البريق الغريب الذى لم تفصح به عيناها من قبل ، وعجزت عن فهمه في حينه عندما قالت : « أنا الأخرى أستعجل الخلاص من نفسي » .

قلت لها محزونا : « طبعا انت مبسوطة ياضحى؟». أجابتني وهى مستلقية على ظهرها تحملق فى السقف :

« والله يا ابراهيم ما أنا عارفة ! » . وضـحكت هازئة بنفسها . وخطر لى :

« هو موظف ، افندى مثل بابا ؟ »

« لا ، تاجر ، لكنه افندى ! » ، وضحكت وهى تتقلب على جنبها ، وقبلتنى .

« ستاخذيننى معك ياضحى ؟ » . نظرت في عينى وقالت باخلاص :

« ليته كان بيدى يا ابراهيم ! » . ثم ابتسمت « صحيح انك كبير في نظرى » ، وقطبت ، « لكنك لست كبيرا بما يكفى لأن تدرك مدى ألمى لبعدى عنك » .. فطفح الحزن من قلبى نحيبا في صدرها :

« ستنسينني ياضحى . ستنسينني » ولن تسالى عنى بعد ذلك » . ضمت رأسي بقوة الى صدرها .

« سآتي الى هنا دائما . وحينما تراني ، اعلم اني لا آتي الا من اجلك انت » . قلت وانا لا ازال أبكي :

« اريد أن أتزوجك أنا .. الا يمكنك أن تنتظريني قليلا حتى أكبر ؟ ! » . لم ترد علي ، وانما حوطت رأسي بذقنها وصدرها وذراعها معا .

بعد تلك الليلة ، لم تنزل لي في الصباح ولم أستطع انا ان أنفرد بها . وحينما كنت أصعد الى شقتها ، تفتح لي « تانتها » وتقول لي « نحن غير فاضيين ! » وقد منعتني امي نفسها « لأنهم يابني مشغولون بالفرح » . وكنت أرى ضحى من الشرفة تخرج كثيرا مع زوجة أبيها بعد الظهر .

كمت شجني ، حتى اذا انفردت بنفسي ليلا في سريري ، رحت في البكاء . كنت أمعن في تعذيب نفسي بالتفكير في « صفرى » حتى مقته . كل ليلة ، كنت أضرع الى الله في سري قبل أن أنام أن يخلصني من هذا الصفر ، فاصحو الصبح لأجد نفسي كبيرا طويلا، صوتي عريض أجش ، وموظفا أقبض الماهية أول كل شهر كأبي ، فأتقدم لخطبتها من أبيها ، أذهب اليه في عمله ، فيأتي أبوها يفاجئها بطلبي كما فاجأها بخطبة ذلك المتطفل . وعندئذ لا تطيق فرحتها ، خصوصا بمنظري الجديد ، ثم ننتقل لنعيش في بيت خاص بنا وحدنا فيدوم هناؤنا وتستمر احاديثنا وأسرارنا وأحلامنا لا يشترك معنا ثالث فيها . كنت كل ليلة قبل أن أنام، أفتح الدولاب وأنظر في شغف الى بدل أبي وكرافتاته وكأنها ذات قوة سحرية على الغد ، وأنا موقن أني سألبس بدلة وكرافتة منها في الصباح .

ولكني ، كنت أصحو فأتذكر على الفور أمنيتي بالليل ، وبسرعة أمد بصري على جسمي الصغير ، فيخيب أملي . كل صباح ، كنت أعتب على الله العظيم — الذي خلقنا من لا شيء والقادر على أن يحيينا بعد موتنا من جديد ، كما علموني — أنه لا يستجيب لطلبي البسيط الذي لن يتعبه ، وعندما يحل الليل يتجدد أملي فيه مرة أخرى .

ولما يئست من استجابته لدعائي ، استبدلت به رجاء آخر : أن يصغرها هي ، حتى نكبر معا . انتظرت يوما بعد يوم ، لكني كنت أعلم أنها مازالت على حالها . ولم أتألم كثيرا لخيبة هذا الرجاء ، فقد كنت أحبها كما هي ، ولم يكن في استطاعتي أن أتخيلها في حجم سميحة . لم يربطني بهذا الرجاء الا اليأس والعناد . ولهذا لم أعاتب الله على تخييبه له ، ولم أتشبث به طويلا .

وقد استطعت أن أرى ذلك العريس وهو طالع أو نازل . بدا لي مغرورا تافها سمجا ، أميل الى السمنة ، أطول بكثير من ضحى . وخطر لي مرة :

« هو أطول منها ، ومني ، لكنه سيء جدا ، فلماذا يتزوجها هو ؟ » . « لأنه كبير ومعه فلوس ؟ »

وأحسست — من مراقبتي وانطباعاتي — انها لن تستطيع معه بعد الآن أن تتحدث كما كانت تفعل معي، انما هو الذي سيصدع لها أذنها الرقيقة بحكاياته السمجة ينهق بها بفمه الواسع كالحمار . وكنت أثور عليها في نفسي عندما أتخيل أن وجهه الدنيء سيحتل مكاني في صدرها .

أخيرا جاءت ليلة عقد زواجها . كانت آخر ليلة انام فيها على سريرها . طلعت مع أمي الى الفرح ، الذي اقيم في صيوان فوق سطح البيت . كان العريس قد تفضل عليهم بتخت ورقاصة ، وربما — ان لم تخطئني الذاكرة — بمغنية أيضا . شغلتني ضحى عن صخب الناس وضجيج الطبل وارتجاج الرقاصة وهي تجوس وسط المدعوين . كانت جالسة جنب عريسها ، باسمة كطبيعتها تشيع البهاء حولها . الجمال الذي أضفته على ردائها الأبيض جعل ذلك العريس جنبها في بدلته السوداء كالخنفساء .

عندما لمحتني ابتسمت ومدت يدها لي . لكني لم أقدر على رد ابتسامتها ، وبقيت متجهما في مكاني . قامت وحاولت أن تجلسني جنبها ، والعريس يرقب هذا المشهد ويباركه بأسنانه المربعة الكبيرة في أبوة غبية مقيتة — كان يمني نفسه ، لا شك ، بهلا ، أما لأبناء مثلي!.. نفرت من يدها — دون تفكير — وهرعت الى أمي فجلست جنبها . بقيت أختلس النظر الى ضحى حريصا على ألا أدعها تضبط عيني ، وكأن نظرتها فيهما ستخرج للناس من قلبي — مفضوحة — تلك الدموع المحبوسة فيه . كان ذلك الأفندي يمسك يدها من وقت لآخر ، وهي لا تعترض ، ويكلمها سعيدا بنفسه لتفضله عليها بزواجه منها ، وبالفرح ! الحمار ! كان يبتسم وهو يمعن عينيه في وجهها فينطفيء نور عينيها هي على أسنانه المظلمة . قطعا كان يحدثها عن البضاعة والبيع والشراء وحذقه في السرقة والكسب . الله أعلم أي تاجر كان ! وكان الطبل يدق في رأسي ، حتى ثقل ، فخففته وقد غامت عيناي . أغمضتهما دائخا . وأرجح أن ضحى قد أحست فورا باعيائي فقد أفقت على وجهها في وجهي ويداها ترفعانني من ابطي . ألحت أمي عليها أن تدعني ولا تخاف علي من أن أنام . لكن ضحى أصرت على النزول بنفسها لتنيمني عندها ، نزلت بي وهي برداء فرحها ! ، رغم استنكار أمي والعريس والجميع دون أن يعنيها أحد !

أرقدتني على سريرها وهي صامتة . والتقت عيوننا وهي تمضي عني . أحسست في تلك اللحظة أنها بعيدة جدا عني ، وأني وحيد ، أصغر مما كنت ، هزيل، ضعيف ، فانفجرت في نشيج مرير ، وانقلبت مخزيا أعض المخدة . مدت يدها فعدلت رأسي برقة ، وانحنت فوقي تقبلني في جبيني كملكة . ثم ابتعدت عني ، يتبعها

طرف ردائها الطويل زاحفا خلفها على الأرض ، واغلقت خلفها الباب ، دون كلمة .. »

هنا ، توقف ابراهيم ـ كان وجهه محتقنا ، وصوته محترقا بانفعال يثير القلق فعلا . كانت كلماته الأخيرة قد تدافعت متلاحقة ، رغم أن نبراته كانت تبذل جهدها للتخلص من ثقل الخمر عليها ، فهو لم يكف عن الشرب طوال حديثه . وتنهد بعمق ثم تراجع في كرسيه الى الوراء . أشعل سيجارة وراح يتأمل دخانها وهو يتصاعد وينتشر فى الحجرة ولم يحاول واحد منا أن يقطع الصمت حتى سمعنا ابراهيم يأخذ نفسه بشهيق عميق واضح :

« صحوت على دموعها تبلل وجهى ، وضوء الصبح يتسرب شاحبا من شيش الشباك . كان رأسي في صدرها ، وأناملها تسوى شعرى وتفرقه . سألتها قلقا ، وفي تأثر غصبا عنى :

« أنت تبكين ياضحى ؟ ! » . لم ترد . ومسحت دموعها بأصابعها ثم تناولت منديلها من تحت المخدة فمخطت فيه . فسألتها ثانية :

« لماذا ياضحى ؟ ! » ..

« لا أدرى يا ابراهيم ! كنت أحسبنى سأكون سعيدة بهذا الزواج » وضحكت « لكننى لست سعيدة يا ابراهيم ! ! » .

« كيف ؟ ! » . أجابت في عصبية :

« لانى لا أحبه ! » ، وسكتت لحظة ، « كنت أقنع نفسي بأنى أحبه ! أترى ؟ لأنه سيكون زوجى ! حاولت! لكنى أعرف الآن .. أعرف يقينا أنى سأكون تعيسة معه ، ولن أستطيع أن أحبه أبدا ! » . قلت في حماس، وأمل مفاجىء يبرق في قلبى :

«لا تتزوجيه ياضحى ! لا تتزوجيه ! انى أكرهه..»!

قالت في مرارة ، وهى شاردة :

« أبدا يا ابراهيم ، بل ينبغى أن أتزوجه . هذا أفضل لى وللجميع .. » وطفقت مقهقهة كأنها قد تنبهت للحقيقة فجأة ، « لقد تزوجته الليلة بالفعل ! كتبوا كتابى ! » . واتتنى جرأة مفاجئة ، وقد شعرت أنها عادت قريبة منى كما كانت :

« أريد أن أتزوجك أنا ياضحى .. ! » .. مسحت براحتها جبينى الى أعلى ضاغطة شعرى الى الخلف في عطف وقوة .

« لو كنت كبيرا يا ابراهيم..! لو كنت تفهم ذلك! هناك أشياء في هذا العالم يا ابراهيم لا يمكنك أن تفهمها الا حينما تكبر » . ثم ضحكت وهى تربت على خدى بأصابعها ، « والله يا ابراهيم لو أنك كبير لكانت أمنيتىالوحيدة هى أن أتزوجك.»،وهامت عيناها وصوتها



وهى تعبث بأناملها فى شعرى ، « ما أجمل أن أكون مع زوجى على هذا النحو ! »

وانقلبت على ظهرها ، تنظر في السقف فترة ، ثم انقلبت على جنبها ثانية .

« وأمى لم تحضر ! كتبت لها ، وكان يمكنها أن تأتى ، رغم كل شيء ! » ـ وسكتت قليلا ، ثم هزت رأسها هازئة « لا ! كان مستحيلا ! ما كان لها أن تحضر فرح بنتها ! .. » وهزت كتفها على الفراش وهى تضحك بمرارة ، « فرح بنتها ! » ، ثم كررت في سـخرية ، « فرح بنتها ! » .

انتابنى عطف قوى عليها عندما قهقهت بعصبية شديدة .. جذبتها نحوى بيدى الصغيرة فاستجابت لها . طوقتها بذراعى وقبلتها ، فضمتنى . ومددت يدى أتحسس شعرها وأتخلله بأصابعى كما كانت تفعل معى. فدست وجهها بين عنقى الرفيع وصـدرى النحيل . شعرت أنى أكبر منها ، أمنحها الحنان كأنها طفلة صغيرة مستكينة . بقيت هكذا تلمس عنقى بشفتيها ، ودموعها تنسكب فى صدرى ، وأنا سعيد أبكى معها .

وبغتة ، نفضت رأسها عنى مطوحة شعرها الطويل الى الخلف . وأطلت فوق وجهى . ضغطت أذنى بكلتا راحتيها دافعة بأصابعها العشرة خلف رأسي ونظرت في عينى . كانت عيناها تشعان بريقا وهجا ترمش من قوته عيناى ، الآن ! :

« اسمع ما أقول جيدا . ربما لاتفهمه الا حينما تكبر ، لكن اياك أن تنساه ! ».انتابتها نوبة غريبة لم أعهدها من قبل ، وكأنها تريد أن تقمصنى أو أن تسرى كلماتها فى كيانى وتخترق الزمن ! «انى أعرفك كنفسى. انت نفسي يا ابراهيـم ، وان كنت أغـلى من نفسي ! اسمـــع .. ! انا لست كغيرى أبدا . أحس هـــذا ! أستطيع أحيانا أن أتذكر بوضوح وقوة أياما ماضية بعيدة جدا ، فأعيشها وحدى سرا ـ كأنها وحى ـ من جديد ! سيمر زمن طويل ، وقد تنسانى غصبا عنك. أعلم ذلك . ولكن ، حينما يحدث فجأة وتتذكرنى وانت كبير ، سوف يمكنك ـ لو أردت ـ أن تبعث أيامنـــا هذه حية فى نفسك مرة أخرى ! وقد تدرك ما لا تدركه الآن . أنى أرى ذلك اليوم ، أشوفه على بعد ! أتتخيل ذلك ؟ ـ كأنى أقرأ الغيب ... !

حينذاك يا ابراهيم سواء كان يمكن أن أعرف أنا بهذا أم لا ـ لا يهم .. ! ـ يكفينى أن تعرف أنت أن « هذا » أغلى ما خلفته ضحى في الوجود ! » ، ثم تركت رأسي وانقلبت على ظهرها ونظرت في الفضاء ، « أما أنا فاشهد الله ، بحق هذا الصبح أنى ســوف أذكرك طول حياتى . سأبقى دائما أتمنى أن تكون أسعد الناس وأن تبقى نفسك طفلة ذكية ـ مهما كبرت أنت ـ كما هى الآن ، مثلى ! .. »

وقطع ابراهيم كلماته مرة أخرى. كان صوته يتدفق من صدره حارا ، ويخرج من حنجرة كأنها جريحة تنزف! ابتلع آخر جرعة في كأسه ، ثم أخذ نفسا عميقا من ذبالة سيجارته ، ونفث دخانه ، وحملق فيه وهو يتحلل ، وعيناه تلمعان . ثم أطفأها في المنفضة. كانت يده ترتعش بوضوح. ومد بصره الى «الأباجورة» في ركن الحجرة، فثبته عليها كأنه يحاول أن ينفذ من خلال غشائها الأزرق المستدير الى «الضوء» المحتجز خلفه. انتظرنا أن ينهى قصته حتى ضقنا بالانتظار . أطرق برأسه فوق صدره، وبدا أنه متعب ولا يهتم بأحد . ثم رفع رأسه ثانية وأفرغ لنفسه كأسا أخرى ، فكانت آخر ما فى الزجاجة الأخيرة .. أشفقت عليه لأنه لم يكف عن الشرب طول الليل ، وقد بدا على وجهه العناء والعذاب وهو الذى لم يظهر أمامنا أبدا الا وهو ســيد نفســه . لكنى ـ كالآخرين ـ لم أنطق . وأشعل سيجارة جـديدة . وفجأة لمعت عيناه من خلال ضباب الخمر الذى كان يندبهما . ثم انبعث صوته مرة أخرى ، وقد صار واضحا للجميع انه يبذل جهدا بليغا يقاوم به ثقل الخمر على لسانه ، حتى يستطيع أن يتبع أفكاره وينقل حمى مشاعره :

« لقد نسيتها تماما ! بقيت ذكراها نائمة في نفسي ربع قرن ! والآن ! لماذا الآن ؟ ـ يضطرم كل شيء حيا في قلبى ، كنار أسطورية تلهبه ولا تحرقه ؟ !

الآن ، ضحى قاربت الخامســة والاربعين ... قد تكون أما لأبناء كثيرين وكبارا .

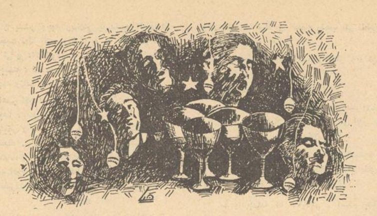
ربما ترهلت أو هزلت ، فتغضنت بشرتها. ولكنى واثق أنى سأتعرف عليها بمجرد أن أراها ، وأن تلك التغيرات الجسدية الزائلة لن تؤثر فى نفســها الطفلة « الخالدة » . لا . لا .. ان جمال جسمها لا يمكن أن يشيخ مادامت تسكنه روحها ! ..

حتى لو كانت فى السبعين بدل الخامسة والاربعين فانى واثق أنها ستبقى دائما ـ ضحى التى أحببتها ـ فى العشرين .. !

ترى ، أشعرت بالسعادة مع زوجها ؟ أكان لهـا أن تتزوج تاجرا ؟! .. ماذا فعل بها تلك السنين ذلك الأنانى الذى كان سوء نفسه ينضح القبح على وجهه ؟ أنا واثق أنها قد استمرت تمضى فى حيـاتها شـهيدة تعطى نفسها دائما دون أن تتلقى أبـدا ، وبســمتها الدافئة تنشر الرضا فى الوجود حولها ..

الآن أدرك فعـلا مالم أستطع فى ذلك الحين . فى صدر ضحى ألم حارق يشتعل دون أن تهتم به ، يتجدد دائما ـ كالعنقاء ـ فلايستحيل أبدا الى رماد .

كيف يمكننى ان أنقل الى شعوركم ضحى كمـا أحسها فى هذه اللحظة ؟ لا أدرى لمـاذا أتخيل لو أن زوجة أبيها كانت قد أصيبت واحتاجت الى نقل دم



ينقذ حياتها ، لكانت نسحى هى التى منحتها دمها حتى آخر قطرة منه .. حتى لو كان ذلك التاجر نفسه ، لما ترددت فى منحه حياته وهى راضية . لايهم من تعطيه لانها تعطى دائما ولو كان عليها أن تعطى الناس جميعا، لا أعرف ان كنت أفلح فى تقريبها من تخيلكم رغم أنى أعلم أنى عاجز عن التعبير .. !

لو قابلتها بعد هذا البعد الطويل ! ..

ماذا فعل بها تلك السنين ذلك التاجر الملعون ذو الوجه المشحون بالصفقات الدنيئة ؟ انى أفهمه الآن . أعرف جيدا أمثال هذه الخلق » .

وسكت ابراهيم ليسترد نفسه .. بعد أن تحشرج صوته .. وهامت عيناه ..

« أستطيع أن أرى نفسى الآن عندما أقابلها من جديد ! هاهى يدى ترتعش .. ! سنعيد خلق تلك الذكرى على الصورة التى نريدها نحن ..!

ستبكى نشوى اذ ترى جمالها الذى لايغيض فى عينى ! جمالها قلبها ! ، السر البسيط الذى لا يدركه أحد ! .. تحمى وجهها الطفل فى صدرى رجلا قد تعرت روحها وقلبه أمامه ، حينما أحبها وهو صغير من زمن بعيد ! ..

هانا فى الثلاثين قادر على اعطاء ماعجزت عنه فى ذلك الحين .. لو أن فى امكانى الآن أن أذيب الشجن المقيم فى قلبها !.. لو أستطيع أن أسعدها ولو فترة متأخرة من عمرها ، كما أنفقت هى عمرها فى اسعاد الآخرين !..

عجيب ..! فى هـذه اللحظة بالذات ، ضحى صاحية - والناس نيام ، والفجر يقترب - مستلقية على ظهرها ، لاتحملق فى السقف كما كانت تفعل فى ذلك الوقت ، وانما تنفرج شفتاها مبتسمة وتنظر فى عينى..! انها ترانى الآن ، تحسنى ! أنا واثق من هذا .. كيف؟ أنا نفسى لا أقدر على تفسيره أو التعبير عنه . ربما لاتستطيعون أن تتقبلوا ذلك . لكنى واثق أنه حقيقة .

انها واضحة . هى نفسها ، بوجهها وجسمها ، كما كانت ، فقط ، على وجهها آثار نبيلة من أيام حزينة . لايمكن أن يكون هذا وهما ! انها تتملكنى بقوة طاغية ، كأنها تسرى فى دمى ، أنفسها .. ! » ..

وشهق لاهثا كمن كاد يختنق . واشعل سيجارة جديدة بسرعة . ثم استرسل على نحو يشعر بانه لايكلم الا نفسه دون أن يحس بأحد حوله ، وبدأت بعض الالفاظ تخرج من فمه مترنحة :

« لست أدرى فى أى مكان هى الآن .. كيف نلتقى ؟ ..

هى متزوجة وأنا قد تزوجت .. أيكون لقاؤنا رائعا ، أم سيكون على كل واحد منا أن يهزم نفسه أمام الثانى حتى لانفسد ماأقره الزمن ، وماصنعناه بانفسنا تحت قبة هذا النظام ، « المختل » !... لماذا ولأى حكمة أنى كنت - وقتذاك - فى الخامسة ، وهى - الآن - فى الخامسة والأربعين ؟ .. لم يوجه «الزمن» مسيرنا بالمقلوب ، وحينما نلتقى تجمعنا دائما أوضاع خاطئة ؟ ! .. »

كان صوته مخنوقا ببكاء محبوس وثورة حارة مخمورة امتدت الى يده التى انقبضت ، فالقى برأسه المثقل فوقها ، وبسرعة نتر ذراعه ثانية فاردا أصابعه كأنه يلقى بشيىء فى الهواء ، ورفع رأسه . لخليت كأنه قد أمسك الزمن وضمه فى قبضته كالعجينة ثم ألقى به على الارض . بقى لاينطق مايقرب من دقيقة كاملة وعيناه مثبتتان أمامه فى الفراغ بعناد . ثم لم يعد قادرا على السيطرة على نبراته اطلاقا . « مهما يكن ، لابد أن أراها .. لن يصعب على أن أجدها فى هذا العالم الحقير الصغير .. » ، واطفأ سيجارته بدا لى وجهه فى تلك اللحظة وسط الدخان الذى كان يتصاعد من أفواهنا جميعا كأنه يفقد ملامحه حتى صار جزءا من الدخان ! وكانت هذه الصورة فى مخيلتى كالواقع ، لدرجة أنه كان يمكننى أن أتساءل مترقبا :

«أيمكن أن ينتشر وجهه ويتلاشي بعيدا،مع الدخان؟»، (وقد عجبت لهذا التصور فيما بعد ، لكنه كان طبيعيا بالنسبة لى فى ذلك الوقت) . ومال ابراهيم الى الامام وخفض جبينه ، فاحتجبت عيناه عنى ، وخرج صوته من تحت وجهه وئيدا مذبوحا :

« أحس الآن انى سألتقى بها عرضا ، دون تدبير ، وقريبا جدا . متى بالضبط ، وأين .. ؟ لا أعرف .. صوتها ينبض فى قلبى بأنين حاد .. انها تتألم بشدة وهى تضحك .. ! تنادينى ! .. وعندما نلتقى ، لا يهم ماسيحدث – !.. لن أفكر فيه الآن ، سأحاول قدر طاقتى أن أعوضها عن رضاها الاليم .. آه .. أشعر أننا لن نفترق أبدا » .

***

أكان ذلك هو نص كلام ابراهيم ؟ .. يكاد يكون كذلك ، فهو محفور فى ذهنى على هذا النحو . لم يكد ينطق كلماته الاخيرة التى خرجت من حلقه كالفهاق ، حتى نهض ومضى مسرعا – وخطواته تتأرجح نوعا – الى الحمام . وكما توقعنا ، سمعناه يقيء .. جرينا اليه. والتففنا حوله . حاول نادر أن يمسك برأسه ، لكن ابراهيم أبعده عنه بيده ، وانكفأ بجبهته على مرفقيه فوق مقبض الحنفية المفتوحة ، وراحت احشاؤه ذاتها تتدافع خارجة من فمه فى موجات متلاحقة ، مصدرة صوتا غير بشرى كصرخات مصروع ولكن متقطعة . وظل فترة طويلة لايصدر مع هذا الصوت من بطنه غير الهواء .

أخيرا ، رجع معنا الى الحجرة محاولا أن يمشى عاديا وكأنه لم يستنفد قواه . استلقى فى كرسيه الى الخلف ، وجلسنا نحن دون أن ينطق واحد منا بكلمة .



وكان فؤاد قد تركنا فى الحمام وذهب الى المطبخ ليصنع قهوة ثقيلة .

شربنا القهوة ونحن نتبادل النظر . وقطع وجيه الصمت في ود وتعاطف :

« ارتحت الآن يا ابراهيم ؟ » .

كان ابراهيم قد تغير وجهه واختفت الانفعالات منه ، وكاد – لولا الانهاك الشديد الذى أثقل ملامحه – يبدو فى حالته العادية التى كان عليها ! ..

انفرجت شفتاه عن ابتسامة شاحبة ، وقال ، وكأنه يحس أنه قد تورط فى خطأ كبير لن يغفره لنفسه ويخجل من اضطراره أن يعتذر عنه :

« يا جماعة أنا ضايقتكم . آسف جدا ! » . ثم احتمى في الصمت . انتقلنا فورا الى موضوعات بعيدة ومرحة حتى ننقل أنفسنا الى حالة أخرى ، مفتعلين الضحك . أما ابراهيم فقد رسم على فمه بسمة تجاوب خامدة ، لكنها لم تفلح في حجب الندم الطافي على عينيه وشرود نظرتهما .

لم يكد آخرنا ينتهى من شرب قهوته ، حتى وقفت أنا وقلت في لهجة خطابية مداعبة :

«شكرا عظيما يا فؤاد على هذه السهرة الخالدة»، وانحنيت له ، « أعتقد أنى أقول هذا بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن الجميع . وأرجو أن تجيء السنة القادمة عليك وأنت متزوج ، مثلنا ان شاء الله . وحينئذ ، ينبغى علينا أن نجد أعزب غيرك نحتفل عنده معا بالعيد الجديد » . نظر في عينى وقد بدا عليه أنه قد تخيل انى أعنى شيئا آخر غير ما أقول ، لكنى أضفت: « كل سنة وأنتم جميعا طيبون » . وقام الباقون ضاحكين .

اصطحبنا فؤاد حتى باب الشقة . وفي الردهة ، تبادلنا بعض المجاملات الهازلة ، شارك فيها ابراهيم في سرعة وذكاء بمقدرة ذهنية مثيرة رغم الذهول البادى في وجهه وصوته ، وبريق عينيه تحديا للندم والانهاك .

عندما استقبلنا الهواء البارد الرطيب المشبع بالضباب ، كان صبح سنة جديدة يوشك أن يطلع على الكون .. مشينا نحن الأربعة جنبا الى جنب ، أقدامنا الثقيلة تضرب أرض الرصيف بانتظام فيرتد صوتها الى آذاننا كأنه صدى ! كنا نمضي دون أن يقتحم أحد منا هذا الصوت بكلمة . حتى سمعت محمود – الذى كان يسير على يمينى – يقول ملتفتا – عبرى الى ابراهيم:

« ابراهيم ، اعتقد أن ذهاب الليل على ضوء الصباح عملية وهمية هى الأخرى كاطفاء النور وفتحه، هه ؟! » ، وقهقه .

بدا في سؤاله جد ساخر ، رغم الهزل الذى لبسته لهجته . لم يكن في نيته قطعا أن يؤذى شعور ابراهيم ،

بل ربما كان يريد بهذه المعارضة ان يداعبه . لكن ابراهيم أخذ نفسا من السيجارة المشتعلة في يده ، وهو يسير كأنه لم يسمع شيئا ، وفجأة توقف ولوح بيده مناديا : « تاكسي » . فتوقف التاكسي أمامنا .

مد يده الينا وهو يبتسم :

« آسف أن أضطر الى الاستئذان منكم الآن . كنت أحب أن نسير معا بعض الوقت في هـذا الجـو اللطيف ، لكن .. » وضحك ساخرا من نفسه ، « أظن أن جسمي البشرى الزائل الهزيل ، الذي ليس في قوة أجسامكم الجبارة ، تلزمه بعض الراحة ليعيش ! » ، وابتسمت عيناه برحابة ، ودخل العربة ولم يقفل الباب ، « حد يحب أوصله ؟ » قالها بلهجة من يرجونا أن ندعه ينفرد بنفسه . على أى حال ، كان هو الوحيد فينا الذى يسكن في جهة « بعيدة » عنا . اعتذرنا ، فقفل الباب :

« أشكركم .. على كل شيء . مع السلامة » . شعرت على الفور أنه يريد بهذا الشكر أن يقفل الباب في وجه من يخطر له بعد ذلك أن يحدثه فيما قاله الليلة .

تحركت العربة بعيـدا عنا ، واختفت في الظلام والضباب .

***

لا شك أن كلا منا نحن الثلاثة كان يقلب في رأسه المخمور كالدائخ كل ما حدث ، دون أن يتكلم فيه مع الآخرين ، لأنه لم يكن لديه ما يقوله .. ولهذا ، بعد ما تركنا ابراهيم تكلمنا في أى شيء الا عن أنفسنا .. حتى افترقنا .

اجتمعنا بعد ذلك بأيام دون أن يكون معنا ابراهيم ، ولم يكن غريبا أننا كنا متحرقين لمناقشة قصته في غيابه .

لقد شغلتني لدرجة أنى لم أكف هذه الايام عن التفكير فيها . كنت واثقا أنه سيلتقي بضحى من جديد .. ولا أخفى أنى قد اعترفت لهم بذلك ، في شيء من التهيب والخجل من نفسي ! ، فسألنى فؤاد ، وكأنه يحقق معي :

« كيف يلتقيان ؟! » ..

« لا أدرى ! . فقط ، أحس ذلك » ..

فتدخل نادر هازئا بى : « وأنت الآخر ؟ ! » . ثم أضاف ساخرا : « اسمع : لو فرضنا أن كل رواية ابراهيم صحيحة ، فعلا ، فهل نسيت أن الفرق بينهما خمسة عشر عاما ، كيف تحسب أنه سيكون شكلها الآن ، هذه « المراة » ؟ ! » .

ضقت بسؤاله ، فسكت . لكنه عاد مرة أخرى لحوحا :

« وزوجها ؟ .. لم لا تفكر فيه .. ؟ .. غير ذى موضوع .. ؟ ! » .. فعقب فؤاد باهمال مستخف :

« ربما يكون قد مات » ..

فأسرع وجيه :

« اذن ، لابد أنها تزوجت غيره ! »

وأكمل نادر الدورة :

« ولم لا تكون هى التى ماتت ؟ » ... ثم اعتدل . ونظر الى ، وقد انقلب جادا فجأة : « اسمع لا تكن ساذجا . باختصار ، هذه الحكاية لا تزيد ولا تقل عن هذيان سكران » .. وضحك ، « أنسيت أنه قضي على زجاجة ويسكى بمفرده ، ونحن قاعدون ننصت اليه كالتلاميذ ؟! » .. كل ما قاله تهيؤات . هذا كل ما في الأمر » . فلحقه وجيه :

« ممكن ! فعلا ! صحيح ، كيف يمكن أن يتذكر حوادث وتفاصيل بمثل هذا الوضوح بعد خمس وعشرين سنة ؟! ومتى حدثت له ؟ .. وهو في الخامسة ! » . والتفت الى فؤاد متوقعا منه أن يؤمن على كلامه ، لكن فؤاد اكتفى بالاستماع باهتمام . وعاد نادر يؤكد ما انتهى اليه :

« استرجعوا في أذهانكم باتزان وهدوء كل ما قال ، وستجدون أنه كان يخلط .. ! كان يسقط على نفسه وهو طفل مشاعره الآن وهو كبير . لقد انجرف مع تيار روايته الذى كان يتدفق في دمه ، من كؤوس الويسكى ، فانفعل بها ! . أرأيتم كيف كان يستلهم الزجاجة كل فترة ، فلم ينقطع الالهام عنه الا على انقاضها ؟! » ، وضحك ، « الاغرب من هذا أننا كنا جميعا متأثرين ! .. كله من الخمر ! ... هذا كل ما في الأمر ! » ..

هنا ، اندفع فؤاد ..

« ولكنكم أهملتم نقطة هامة . وهى كيف أن ابراهيم الذى كان حريصا دائما على ألا يطلع أحدا على أسرار قلبه « المقدسة » ، فجأة ينقلب خائنـا للقانون الذى سنه بنفسه لمبدئه ؟ ! .. ألم تفكروا في هذا ؟ أتعقلونه ؟!

ثم هل فاتكم أنه .. « مؤلف » ؟ .. كلنا نقرأ ، لكن دون أن نمرض .. أما هو فيظهر أن الخيال يسرى في دمه كالمخدر ، بحيث لا يقدر على فصل ذلك الخيال عن واقعه ..

ألم تلحظوا كيف كان يمزج المـاضي بالحـاضر بالمستقبل ، على هواه ! .

ياساده .. ! ابراهيم شخصية معقدة ، أنا الذى أفهمها ، قلت لكم أكثر من مرة ! .. أؤكد لكم ، هذه القصة مختلقة من أساسها ، وبوعى ، لكن بحـرارة أيضا !



لقد كان يسخر منا ، نعم ! .. وجـد نفســه محاصرا ، عليه أن يحكى قصة حب مثلنا ، وبالطبع لم يكن ليقبل أن يخرج على قانونه . فماذا يفعل ؟ ... أنشأ هذه القصة الخيالية ، المؤثرة ! » . وقهقه ، «لقد كان يؤلفها بصوت مرتفع ليخترق بها ذلك الحصـار المضروب حوله ! ، لكنه تقمصـها وهو يحكيها ، كان يحياها كأنها حقيقية ! .. هذا رأيى أنا » .

صحت فيه مستنكرا ..

« لا يافؤاد ، لا ! ليس هذا ابراهيم اطلاقا .. وانت تعرف ذلك جيدا ! تعرفه جيدا ، أتسمع ؟ . كان يمكنه أن يرفض ، أو ينسحب ، حتى قبل أن يستمع الى « اعترافات » أى منا .. » فقاطعنى نادر :

« لا ! .. ما كان يستطيع أن ينسحب .. الخمر كانت تسرى في عروقه حتى نصف الليل . أكان يقـدر عندئذ أن يتوقف عن الشرب ، والخمر تلهب عطش دمه اليها ؟! .. يرحل ، مخلفا وراءه الويسكى ، لنا ؟!..».

قال فؤاد وهو يبتسم :

« كل ما يتعبك أنت هو الويسكى ! ، أنا عارف » ثم التفت الى ، « اسمع ، ليس في كلامي أى اساءة الى ابراهيم . تأكد أن هذا رأيى وأنا واثق منه » . ثم تساءل في ثقة بقوة حجته : « فلماذا أثارك ، في حين أنك لم تنفعل ضد ما قاله نادر ؟ ! »

خطر لى في هذه اللحظة ان أواجهه بقصته هو !..

اساله : احدثت له أم حدثت لابراهيم . ولماذا كذب قطعا في احدى المرتين ، على الأقل . لكنى أمسـكت نفسي ، لاخشية ان أحرجه ـ فهو قادر على تغطية مواقفه دائمـا ، وببراعة ! ـ بل لانى أكره هـذه المواقف الصغيرة .

وكنت أعلم أن فؤاد يرتبط بابراهيم على نحـو غريب : يغار منه ، ولا يستطيع الاستغناء عنه .. ! وابراهيم لاشك كان يدرك ذلك ، ومع هذا كان يميل اليه ، يعامله بود كنت أحس أنه ينجم عن عطف خفى عليه . ربما كان هذا هو الباعث على نفورى من تعليق فؤاد .

وسمعت وجيه يفض المسأله :

« على أى حال ، راح كل شيء في الحوض » ! اجفلت ، وانقبضت فجاة . ولا أدرى لماذا تملكنى أسي عميق كاد يبكينى ..

***

حينما التقينا بابراهيم بعد ذلك ، لم يحـاول واحد منا أن يقترب من هذا الموضوع . وخيل الى من سلوك ابراهيم معنا ، أنه يكن لنا الامتنان على هـذا.

وجدت نفسي اراقب فؤاد ازاء ابراهيم ، خلسة. أعترف ـ رغم ايمانى بكل ما قاله ابراهيم ، فى أول الامر ـ بانى لم أستطع التخلص من تأثير رأى فـؤاد على . لقد أفلح في جعلى أشك ! . تساءلت : « لم لا تكون الواقعة التى رواها فؤاد عن نفسه تلك الليلة ، قد حدثت لابراهيم حقيقة ، وأراد فؤاد ، بهذه اللعبة الخبيثة ، أن يصدمه بتعرية « أسراره » أمامه فجاة ، فلم يجد ابراهيم ما يرد به عليه غير ذلك الانتقـام ، بالسخرية منا جميعا على هذا النحو ؟ ! » . لـكنى رغم ذلك كنت أحس أنه أرقى من أن يدع فؤاد يجذبه معه الى هذا المنحدر .

ثم ان ابراهيم لم يكن مولعـا اطلاقا بأن يحيط نفسه بهالة من الأسرار كما يظنون . فهو بسيط كالماء. وانما هو يحترم المشاعر ـ خصوصا مشاعره هـو ، كأنها حرمات مقدسة ـ الى درجة أنه يمقت ابتذالهـا بالتعليق والسخرية . اذن ، ما الذى جعله في ليـلة رأس السنة هذه بالذات ، يندفع في التعبير عن قلبه أمامنا ـ دون ارغام ـ بهذا الانفعـال المحموم ؟ ! .. كيف ؟ .

واذا هو لم تكن له أية علاقة بقصة الحب التى رواها فؤاد ، فلم خرج فعـلا على « قانونه » تلك الليلة ؟ ...

وهنا ، لم أستطع تجنب التفكير : « لو صـحت تلك القصة ، ماذا يمنع أن يكون فؤاد قد صدق ، وقد وقعت له حقا ، بينما هو من سنتين قد كذب على ؟ .. » وتحول فؤاد نفسه الى مشكلة بالنسـبة

لى . فعلاقاته مع النساء كلها قاصرة على البغايا . لايحب ـ كما يقول ـ أن يضيع وقته الثمين فى « الحب » ... ولهذا لم أستطع تخيل التوفيق بينه وبين قصة الحب التى رواها : بدت لى كبدلة مفصلة على قد ابراهيم . حتى وهو ينسبها لنفسه ونحن مجتمعون فى تلك الليلة ، بقيت أتخيل فى مكانه ابراهيم !..ومع هذا ، لست واثقا تماما من أنى لست مخطئا ! نعم ! فمن يدرى ماذا يبقيه الزمن أو يغيره فينا ؟ . كان فى امكانى ، بغض النظر عن كراهيتى لاحراج الناس ، أن أحاول القضاء على هذا القلق بأن أنفرد بفؤاد وأستفسر منه برفق ، لكن .. ـ لا أعرف كيف أشرح هذا الشعور ، بله التعبير عنه ـ لكنى قد استمرأت هذا القلق ! .. شعرت أنه أغلى من أن أقتله بيقين رخيص .

هكذا نجح فؤاد فى جعل مخى يمور .. حتى التقينا بابراهيم . لم يكد يجلس معنا فترة ، وأتمعن فى عينيه وهو يتحدث ، حتى ارتد الى شعورى بصدق كل ما قاله فى تلك الليلة ! ..

ولاحظت من مراقبتى الخفية لفؤاد طوال جلستنا هذه ، أن عينيه مركزتان على ابراهيم وهو يتكلم أو يتحرك كأنه يريد أن يمتصه بهما . وقلت في نفسي : « انه لا يقل عنى ايمانا بكل كلمة نطقها ابراهيم ! »

وعاد لى يقينى بأن ابراهيم سيلتقى بضحى من جديد ... حتى أنى تساءلت شغوفا : « كيف ستكون المقابلة ؟! » . فى هذه اللحظة ، وقع بصرى على نادر وكان يبتسم ، فسقط فى ذهنى غصبا عنى : « امش فى حالك أحسن لك ، والا أنادى لك البوليس » ! .. كدت أضحك ، رغم ضيقى بهذا الخاطر الذى تطفل فجاة ، فجذب ذهنى الى التساؤل رغما عنى : «أيمكن أن تكون مقابلتهما بهذا الشكل ؟! » .. لكنى رفضته فورا ، دون مناقشة ، وباستنكار ـ لنفسي .

***

لم نعد ، بعد ذلك ، نتكلم عن ضحى ابراهيم . لكنى ، كثيرا وأنا وحدى ، كنت أمعن التفكير فيها ، وأحاول أن أرسمها بخيالى كيف تكون : عيناها ، تقاسيم وجهها ، شكل جسدها ... فلا أستطيع . العجيب أنى ، فى كل مرة حاولت ، أجدنى ـ دون ارادة منى ـ أتذكر الفتاتين اللتين حكى فؤاد أنه قد أحبهما ، أتخيلهما مختلطتين «معا» على نحو لايمكننى وصفه ، ومع ذلك ، واضحتين بملامحهما ، كأنى ألمسهما ! ..

وسيطرت على عقلى « واقعة » لقاء ابراهيم بها ! صارت بالنسبة لى كموعد محدد بين اثنين ، أجهله . من هذه الناحية ، فكرة واحدة كانت تقلقنى ، فابراهيم كما كنت أعرفه ـ لايجمعه بواحدة الا الحب . ولم يكن فى طبعه أبدا أن يحب اثنتين . وهو الآن ، متزوج تلك الجميلة كالخيال « بمرحها الحزين » .

أيمكن أن يتخلى قلبه عنها ، فيتركها كالأخريات ، لو كان لقاؤه بضحى ، على النحو الذى أحسه فى تلك الليلة ؟ ... مستحيل ! ماكان لى أن أطيق هذه الفكرة ، فكنت أنفيها بأن ابراهيم نفسه قد خرج على طبيعته عندما حدثنا عن ضحى .. لكن ! ، أيمكن أن يمضى مع الاثنتين بهذا الاستثناء ... ؟

بل أنساق في اشفاقى على هذه الزوجة الى حد أن أتساءل : من يدرى كيف سيكون لقاؤه بضحى ؟! لم لا يؤثر زوجته الرائعة عليها ؟ ... ثم ما يدرينى ان كان سيلتقى بضحى على الاطلاق ؟ ...

***

لكنى حينما لا أذكر زوجته ، يحتلنى احساس غريب ، بأنه « سوف » يلقى ضحى حتما ، كالقضاء ، وكما كانت وهو صغير ! . كيف ؟ ...

تخيلت مرة ، كأن الزمن قد استحال بينهما الى مجرد مسافة ، كطريق طويل ممتدة فوق جبل . هو يقف عند نقطة فى طرف هذه المسافة هنا . وهى واقفة عند نهاية طرفها الثانى هناك . وفجأة ، ودون تدبير يلتفت فيراها .. ينزع من قلبه اليها نداء كالعواء !.. يعبر هذا الصوت المسافة كلها فى لمح البصر ، ويدخل فى قلبها ، هناك . فاذا هى تتقدم نحوه على هدى هذا النداء ، قاطعة هذه الطريق التى يمتد طولها خمسا وعشرين سنة ، ودون أن يتغير كيانها وشكلها أثناء مسيرها اليه بفعل القوة السحرية لذلك النداء . عندئذ ، خطر لى كالالهام : « أى قوة ـ غير الزمن ـ تمنعها من أن تستمر شابة، من أجله، حتى يبلغ الثلاثين). لم لا تكون تلك القوة الفجائية الهائلة ـ التى تفجرت من عروق دمه ليلة رأس السنة ـ قادرة على أن ترتد الى الوراء ، قافزة فوق ظهر الزمن بالمقلوب ، فتحل في ضحى هناك ، تحفظها ، مبقية عليها كما هى ، في العشرين ، خمسا وعشرين سنة ؟ » . وهنا خطر لى: « انه لم يحب غيرها فعلا طول حياته ! » .

قد يبدو هذا غير قابل للفهم ، وغريبا . لكنى لم أحس بغرابة فيه ، ذلك الوقت ... بل انى مازلت كذلك الى الآن ...

***

حتى الآن ، لست أعرف كيف ومتى كان أو سيكون هذا اللقاء .. فقد عرفت مقدما أننا لن «نعرف» يقينا أبدا ، ولن يتكلم « ثانية » ابراهيم ...

الآن ، لم يعد ذلك يشغلنى كثيرا ... لم يعد يقلقنى التفكير فى ابراهيم أو فؤاد . واكتفيت بشعورى. وانى لأعجز حقا عن التعبير عنه. لكنى أستطيع أن أقول أن ضحى قد استقرت فى روحى كأنها سكنتها . ولم أعد ، بعد ، أحاول تخيلها . وقنعت بالصورة التى آثرت هى أن تتراءى لى عليها .. كنجم حى ، دفء ، وبعيد جدا ، لكنه يضيء ، تغيب من أمامه جوانب الأرض وهو لا يغيب .

حكايات
حول حادث صغير

بقلم : عبد الحكيم قاسم



- الفتاة العمياء
- من عدلي إلى الإسماعيلية
- في تلك الفيلا البعيدة
- عند بائع الأكفان
- وجوه في الزحام
- لن يعود أبدًا
- عن الذباب



الفتاة العمياء

الجو مثقل بكآبة غريبة ، والشمس تؤذن بالمغيب ، والعمياء الصغيرة متربعة بجوار السور على رصيف الاسفلت يداها مبسوطتان على وركيها ذابلتان سمراوان لا عيون ، حفرتان عميقتان متآكلتا الرموش ، فمها واسع وشفتاها ممطوطتان مليئتان بالتوتر .

ترتل القرآن كفنوغراف قديم ، كل انتباهها مركز فى أذنيها وهى متصلة بأسفلت الرصيف اتصالا وثيقا ، تتربع عليه وجسدها المرهف يلتقط بسرعة فائقة كل نأمة يحبل بها باطن الشارع وينقلها بسرعة فائقة الى أذنيها فيتوتر جسدها كله وتمتلىء بالترقب .

فربما فى هذه اللحظة يختل نظام هذه الخطوات قليلا ثم تتلكأ قبالتها هنيهة ثم يسقط قرش فى حجرها ، هنا فقط تتحرك يدها لتلتقط القرش وتقذف به فى جيبها ثم تنتظم قراءتها مرة أخرى .

وهكذا ، وقت ممطوط بلا نهاية ، تقطعه لحظات الترقب تلك التى لاتلد القروش دائما ، بل غالبا ماتمضى الخطوات مصممة ، غير مبالية وتموت هذه اللحظات دون أن تعقب .

والظلام الذى يلف متسولتنا الصغيرة ساخن خانق ، التصق وركاها وردفها بالرصيف التصاقا مشوقا ملهوفا ، وأرهفت أذنيها وتطاول رأسها المفقوء العيون واضطربت ، كان ثمة خطو يخفق فى أحشاء الأسفلت واهنا مترددا لكنه يكبر مع اللحظات .. أكيدا واهنا يسير هذا الخطو لكنه وهن منتظم لايشوبه اضطراب ... يمر بها متجاوزا اياها ... وهكذا ماتت اللحظة عقيما من غير عقب .

لكن فى ذلك الظلام كان ثمة شيء يموت ، كلمات مختنقة ولهثات مريض ، ليس الخطو الذى يحبل به الرصيف هو الذى يعنيها هذه المرة ، انما تلك الكلمات المختلطة التى يحملها الهواء الى أذنيها ، ياله من عالم مبهم ، الاشياء تتحرك فى الظلام دون أن تتخذ شكلا ما ، تحدث أصواتا لكنها لاترى .

ـ أنا هموت .

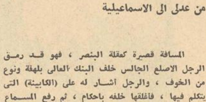
ـ الشر بعيد ياخويا .

صوت رجل لاهث مقطوع النفس ، حزين كعديد الندابة ، والمرأة ، لعلها زوجته أو أخته .. هيه .. الناس يموتون كل يوم ، لكن ... همهمة بعيدة عن أذنيها ، لكنها فشلت فى التقاط بقايا الحديث ، غرق فى ضجيج الشارع ، ازدادت شفتاها توترا وقطبت جبينها قليلا .

ثم مرة أخرى واصلت ترتيل القرآن كفنوغراف قديم وهى تهز جسدها هزا مع القراءة وتحكم اتصالها بأسفلت الرصيف لتلتقط الخطوات القادمة وتتصيد اللحظات المليئة بالترقب والتى قد تلد فى حجرها قرشا .



من عدلي الى الاسماعيلية



المسافة قصيرة كعقلة البنصر ، فهو قد رمق الرجل الاصلع الجالس خلف البنك العالى بلهفة ونوع من الخوف ، والرجل أشار له على (الكابينة) التى يتكلم فيها ، فاغلقها خلفه باحكام ، ثم رفع السماع الاسود وبمجرد وضعه على أذنه جاءه الصوت من الاسماعيلية .

ــ آلو .

وارتعد من المفاجاة .. لكنه رد بسرعة .

ــ أخوك مات .

وتفكر كيف تمت المسالة بهذه السهولة ، انتابه ارتياح ، كان يتصور نفسه سيصعد جبلا عاليا .

لكن فى الاسماعيلية كان التليفون الاسود يتقافز على المنضدة الصغيرة كطفل ملسوع ، جرى الرجل والتقط السماعة فهدأ الجهاز فى مكلنه .

ــ آلو .

ــ أخوك مات .

ــ لاحول ولا قوة الا بالله .

وضع السماعة فى مكانها وسمع (تكه) صغيرة ثم غرق كل شىء فى الصمت والعتمة ، الكراس الكبرة والمنضدة والنجفة ، المصباح الصغير الساهر يلقى ضوءا شاحبا على رؤوس الاشياء ، رجع الى غرفة نومه شريط باهت من الضوء يشق السرير ، امرأته تحكم مناماتها على نفسها حتى لايتعرى من جسدها شىء ، أغلق الحجرة ثم عاد الى الصالة ، جلس على كرسى كبير ، كان من المفروض أن يدخن الآن سيجارة ، لكنه ممتنع عن التدخين من سنين طويلة ، اولاده يغطون فى نوم عميق ، صوتهم يأتيه من غرفتهم هو وحده الذى أحس بعاصفة الضجيج تجتاح الشقة فى الليل ، ثم (تكه) صغيرة ويغرق كل شىء فى الصمت من جديد .

عليه أن يسافر مبكرا من صباح الغد ، أفلا ينام قليلا ؟ لكن كيف ؟ لقد مات ، هكذا ختم الموت هذه الحكاية ، غريب ، الموت دائما ختام غريب لكل حياة ، يصيبنا بالحيرة والخوف ، ترى هل يموت هو الآخر ؟ حقيقة باردة كالثلج ، ظلال حالكة السواد وبقع شاحبة من الضوء واقعة على السجادة ، الرسوم تتلوى والورود تتخذ أشكالا غريبة ، ترى هل نجح الموت فى دفن تلك الابتسامة والنظرة المستهجنة الرافضة ، ظلت هذه النظرة مفروسة فى أيام حياته كلها ، لكنه الآن مات ، وهاهى العتمة تفرق كل شىء ، والكراسى الكبيرة تستطيل مساندها كشواهد القبور ، وهو وحيد هامد .

يجب أن ينام ، فان عليه أن يسافر مبكرا فى الصباح ، وهناك سيكون وقورا هادئا مكتسى الوجه بالاسى ، لن يبكى ، فهذا لايليق ، لكن ربما سكب دمعة فى بعض المواقع ، على اى حال سيكون صوته عميقا متهدجا قليلا ، وسيامر كثيرا من المحيطين به ، وسوف تعلق احبال المصابيح ، وترص الكراسى ،وينطلق صوت المقرىء ، وسيدفع تكاليف كل شىء ، هو لهذه المواقف وغيرها ، من لها سواه ، من يوم أن خلقه الله، وحينما يوغل المساء سيكون جالسا فى ركن من أركان المكان ذابل العينين ثاكلا حزينا ، وهو هناك فى القبر ، ربما تكون عيناه فى ذات اللحظة تبرقان بتلك النظرة الرافضة المستهجنة وتلتوى شفتاه بتلك الابتسامة الهازئة ، ذلك الانسان الغريب الذى طمن كل لحظات انتصاره بتلك النظرة وتلك الابتسامة ، تماما مثل ذلك اليوم ، حينما جلس الجميع على الكنبات المرصوصة الى جوار الحيطان فى بيت الاسرة الكبير ، وهو يحكى كيف توسط له عند المدير وكيف حصل له على عمل مناسب رغم أنه فشل فى دراسته ولايملك شهادة ما ، ثم كيف سرق مخازن الشركة وباع المسروقات وانفق ثمنها على ملاهيه وأصحابه السيئين ، وبالرغم من ذلك لم يقدم للمحاكمة ، فقط فصل من عمله . اكراما لخاطره هو .

كان يحكى ، وله كل العيون وكل القلوب ، لكن أخاه كان يرمقه رافضا مستهجنا .

ذلك الانسان نصف المجنون الذى بدد أيام حياته، لكنه اشترى كثيرا من الكراسى ذات المساند ، ووعاءا للطبخ يصفر حينما ينضج الطعام ، وزوجة تمتلىء عيونها بالرعب حينما ينظر اليها ، وأولادا يفوزون بالجوائز فى الفصول .

لكن يبدو أنه لن يصيب شيئا من النوم تلك الليلة مع أن سفرة الصباح طويلة شاقة ، رأسه جافة ومخه يقظ بشكل يكاد يصل به الى الجنون ، ثمة خطأ بشكل أو بآخر ، لكن أين ؟ ولماذا ؟ يجب أن ينام ليسافر فى الصباح ، يجب أن ينام .



فى تلك الفيلا البعيدة

بالرغم من أن الجـــو لم يكن باردا الا انـــه كان معتادا على أن يحكم اللحاف حوله حتى أكتافه ، وبالرغم من أن الفراش كان وثيرا الا انه لم يكن ينام الا لماما ، وكان يقضى الساعات الطويلة يتامل مصراعى البــــاب المغلقين ، وفى تلك اللحظة دخلت عليه زوجته :

ـ الكاتب مات .

لم يدرك ماذا قالت ، ظل يتامل وجهها دون أن يكون فى رأسه فكرة واحدة ثم بدأ تساؤل صغير يزحف على عقله ، لماذا تضع نظارتها الطبية فى هذا الوقت من الليل ، وشغله هذا التساؤل بقوة ، ثم ثبت له انــه لايعرف للآن لماذا وضعت نظارات طبية فى حين انهـــا لاتعرف القراءة والكتابة .

ـ الصبح تروح تاخذ بخاطر مراته ... لله

ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها ، وتأمل مصراعى الباب وهما يتضامان باحكام .. مساحة بيضاء لاتوحى بشيء . وابتسم حينما رأى وجه الكاتب ، فى تلك الغرفة وسط أكداس صناديق الزجاجات الفارغة والمليئة ، وذلك المكتب الصغير وصفوف الدفاتر السوداء الاغلفة ، تلك الدفاتر تثير سخطه دائما ، الصــفحات والخـانات والارقام والكلمات . أسرار مبهمة لم يستطع طول حياته أن ينتصر عليها . صعد من الحضيض الى القمة . دار بصندوق (العـدة) فى الشـــوارع يصلح الســـخانات والثلاجات . جلس القرفصاء أمام أبواب الشــقق . نظرت اليه مئات العيون المكحولة نظرات شزراء . ثم امتلك لنفسه فيلا وسيارات ومصانع لكنه لم يستطع أبدا أن ينتصر على سر الكتابة . ذلك الكاتب الصغير كان يجلس على مكتبه فى الحجرة المكدسة بصـــناديق الزجاجات الفارغة والمليئة ، ويمد يده وتحتضن أصابعه الطويلة الرشيقة الدفتر الاسود الغلاف فى حنان وتفاهم ويفتح الصفحات . وتنتشر أمام عينيه الخانات والارقام والكلمات .. صــفوف صــفوف من الوجوه الدقيقة الممسوحة تنظـر اليك ببراءة وهى تخفى المؤامــرات والسرقة .

ـ آدى دفتر الصادر ياحج . ميت صندوق برتقان للمعلم عرفه .

انه يدرك سرها ويلعب بى ذلك الكاهن . جهـد خارق فوق طاقة البشر . ســنين ، ســنين من العمل المتواصل بلا هوادة . وهاهو ذا يقف صغيرا زريا كحذاء قديم أمام ذلك الكاتب النبيل الجبهة وخصلات من شعره الفاحم تنسدل عليها فى جمال .

ـ اطلع من مصنعى !؟

كان الصوت يرن فى داخله وتهـــزه الكلمات غير المنطوقة بعنف تحت اللحاف .

ـ اطلع من مصنعى .

ـ ليه ياحج ؟.

ـ انت كداب . ودفاترك كدابة .

ـ وديها للمحاسب .

ـ انت تضحك عالمحاسب وعالمحامى وعلى وكيــل النيابة وعلى الدنيا بحالها .

ـ أقول ايه أنا فى الكلام ده ؟

ـ ماتقولش حاجـــة . اطلع من مصنعى . روح اشتكينى . لقى أجدع محكمة واشتكينى . أشــمع المصنع . بس مش هتعتبه تانى .

ـ مش شاكيك ياحج رزق عيالى على الله .

ومشى خارجا وذيل جلبابه يخفق على كعبى حذائه المطليين باعتناء .

هكذا خرج . وبقى مصراعا باب غرفة النــوم فى تلك الفيلا البعيدة أبيضين من ورائه . ومشى الحاج فى أرجاء المصنع وداخـــله ـ تحت اللحـــاف ـ يهتز بالانتصار ـ وهو يتامل وجوه العمال المذهولة المتخبطة بالحيرة بعد أن أبعد رئيسهم ، بعد أن قطعت الرأس المدبرة ، الآن فقدوا تناغمهم القديم ، الآن يتحـركون متخبطين بلا نظام .. لم يعد الالهام يصدر لهم من حجرة المخزن .

كان يقلب صندوقا ويجلس قبالته طول النهـار يرقبه ، والعمال يدخلون ويخرجون كأسراب النمل ، لايتكلمون ، وهو جالس على مكتبه لاتصدر منه نامة ، ولكن ثمة لغة غير منطوقة ، ثمة قرون استشعار غير مرئية ، والغيظ يأكل أحشاءه كديدان قارضة سامة .

ـ الايراد صلاة النبى حلو أوى النهاردة ياحج !!

ترى ماذا يعنى هذا ؟ ماذا يدبر ضــده ؟ يتمنى لو يهب واقفا ويجرى فى كل اتجاه .. ويقيم حراســا على الابواب .. ويضبط السرقة ، ويطعنه بزجاجــة

مكسورة او ينهش فيه باسنانه ، لكنه في غمرة غضبه يهزه الانفعال من داخله ويبقى خارجه راكدا . هـذا الكيان الدقيق الزرى .

ـ سهرتوا فين امبارح .

ـ عند حميدو وكان مطاهر ابنه ، عقبال عندك فى ولاد ولادك .

ـ والقعدة بقى . بتحكم !!؟

ـ آهى بتحـكم ياحج ، المهم نـكون الصـبح فى شغلنا .

جاءته الاخبار ، كانت عزومة هائلة ، كل بضعة أيام عزومة ، وفى آخر الليل وزع كل واحد نصـيبه من السرقة . أولاد الافاعى .

ـ أخرج من مصنعى .

ومضى والمعطف الكاكى يلابس أكتافه الدقيقة .. وفصل الحاج باقى العصابة والآن يمتلك المصنع لنفسه تماما .

وضـع مكان الـكاتب ولدا مفزوع العينين ، والدفاتر تهرأت اغلفتها وتثنت أطراف صـحائفها ، والمحاسبون يشكون من الاخطاء فى الحساب ، هـؤلاء الحمقى . هذا الولد لايسرق أبدا ، كل شىء يسقمه ، المحاسب وذلك الولد المفزوع دائما ، يود لو ينتزعه من مكانه ويقذف به خارجا .

لقد مات الـكاتب ، كان يسرقنى ، وأنا أسرق الخواجة اريستون . لكننى لا أهين قـروشى أبدا . وهو يسحقها بحذائه . ذلك الانسان الغريب .

ـ يابنى كون نفسك . للزمن .
يضحك ويظهر الاستخفاف على أطراف شفتيه .

ـ خلى بكره على رب بكره ياحج .

انه يحتقر الحاج بذكائه الخارق وجبينه النبيل ـ ذلك الكلب ـ لماذا لايفهم ـ لماذا تبقى ثمة عينان تنظران اليه هكذا . ماذا يفعل ليخرس كل العيون .

انه بليد يدرك الاشياء ببطء شديد .. لكن هناك بضعة أشياء كان يجب أن يدركها ذلك الكاتب ـ الحاج يؤمن بها بقوة ـ انها حياته هو من غيرها لاشىء ، لكنه لايفهم ، لم يفهم أبداً .



عند بائع الأكفان

مشيا هما الاثنان ، الاول طويل والآخر أقصر منه قليلا ، الاول يبدو حكيما رائق الفهم ، والثانى قلقا متوترا ، فالمسائل لاتعطى نفسها بسهولة ، بل غالبـا مايكون العالم غير مفهوم .

مشيا هما الاثنان ، انتهيا من الطريق المرصوف وبدءا يوغلان فى الطريق المترب ، انتهيا الى بيت أصفر كئيب تتهدل شرفته على الواجهة فى حزن ، وأمـامه غرفة التليفون ، تليفون له (كرنك) ، خفراء ذوو بنادق ووجوه ذابلة ، قرية لمت أسمالها على نفسها ، فالقاهرة زحفت عليها وأحاطت بها .

دخلا وجلسا على أريكة مفروشة بالحصير ، كان ثمة بضعة وجوه ، عامل التليفون عاكف على أوراقه ، هنا يكتبون بانصراف تام وبقداسة ، كان رجل يتعب :

ـ البنت أنا لسة مقيدها فى دفتر المواليد مافيش يومين .

رفع عامل التليفون وجها يتهدل عليه جلد زيتونى كجلباب قديم .

ـ البطاقة بتاع المتوفى .

ومد الرجل الطويل يده بالبطاقة ، أفرغ الكاتب بعض بياناتها فى أوراقه وأعادها ، نظر فيها الرجـل الطويل وهمس لرفيقه .

ـ سنه ٤٦ سنة .

ـ ياحول الله .

وتدخل الكاتب دون أن يرفع وجهه عن الورق .

ـ لسه مقيدين عروسه سن ١٨ سـنة .. كان فاضل لها سنة وتاخد الشهادة .

وضع الخفر بندقيته بجـوار الحـائط ، ركن الجوزة بجوارها ، جلبابه لايزال رطبا من طل الليل ، وهو نحيل كعنزة مريضة .

سارا مرة أخرى فى الطـريق المترب ، ضـاق واكتنفته أكوام السباخ قال الرجل الاقصر قليلا :

ـ حاجة مقرفة .

ورد الرجل الاطول قليلا :

ـ مصيرنا كده . يوم م الايام نترمى فى حفرة أنتن من دى .

ووجدا الطريق المرصوف مرة أخرى ، سار بهما ، بدأت جوانبه تنشط بالحياة ، ثم تكتظ على الجانبين ، الحوانيت وعربات اليد ، أكداس البضائع والفواكه ، أنواع الطعام والناس ، عشرات اللافتات يعلو صياحها على صيحات الباعة ولغط الناس ، لكن اللافتة على دكان بائع الاكفان باهتة هامسة ، نظرا اليها معـا ، ربما فى نفس اللحظة ، ثم انحرفا ومشيا تجاه الدكان ثقيلى الخطى .

صعدا الى الرصيف ، الدكان عميق معتم ، يخالط العتمة أريج زيت عطرى قديم ، كان الرجل جالسا على كرسى فى قاع الدكان .

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

– عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وانتصب واقفا ، عملاق خرافى الحجم من صفحات الف ليلة وليلة ، صمت لثوان ، الوجه الهائل الملامح يطل على الرجلين فى تساؤل صامت مهيب ، وتكلم الرجل الاطول قليلا فى همس مثقل بالذنب .

– عاوزين كفن . شرعى .

وأغمض العملاق جفنيه واكتسى وجهه بسكينة جليلة ، ورفع يده الهائلة ناشرا السلام على الوجهين المتوترين .

وسحبا كرسيين ، قرصين صغيرين على أربعة قوائم هزيلة ، جلسا فى حذر بالغ ، تشبثا بالبنك أمامهما ليدعما جلستهما ، وخطا الرجل وقورا فى أرجاء الدكان وتنحيا بالكراسى ليفسحا له الطريق ، وقف على عتبة الدكان مديرا لهما ظهره ، واقتربا أكثر من البنك ، الرفوف صاعدة الى السقف وفى الخانات توجد أنواع مختلفة من أثواب القماش . عاد الرجل ومعه صبى المقهى القريب ، الصبى عجلان يخبط بالملعقة على الصينية النحاسية مضى يحمل رغبات الشاربين .

أطل بائع الاكفان عليهما ، انه ملتح معمم بشال أبيض يبقى منه عدبه تتدلى على قفاه .

– حضراتكم عاوزين الكفن الشرعى ؟ ولا هتتبحبحوا شوية ؟

– السنة ياحج . انت أدرى طبعا . فى حدود المعقول .

وجاء تساؤله عميقا حاسما .

– انتم متبرعين بشرا الكفن ؟

– لا . لا . بس أولاده أولى .

– الله مولى من لا مولى له .

وبدأ ينزل الاثواب من الخانات ، يفردها على البنك ويقص القماش ، تلك سترة ، ذلك قميص ، ومزق القماش من حيث تدخل الرأس ، والآن ثلاثة أدراج من البفتة والكتان ، ثم درج شامل من الشاهى .

طوى القماش ووضعه تحت ابطه ، وتحركت الكراسى الصغيرة والاجساد المتوترة تفسح له الطريق ، عاد ومعه رجل هزيل تتحرك عيناه بسرعة ويفرك يديه بالحاح .

– الاسطى خياط . جارنا . مسيحى . مش من ملتنا ، شافنى بدور على حد يخيط الكفن قال أنا أعمله .. فهمته على شرعنا وطريقتنا هيخيطه تبرع . من غير فلوس .

وانصرف الاسطى حاملا القماش ، وتابع الحاج .

– ولد طيب . لهم الدنيا . ومالهم فى الآخرة من نصيب .



كان وجهه حاقدا رهيبا .

فجأة انصرف بكليته الى رجل صغير يقف متلجلجا على عتبة الدكان شفتاه ترتعشان بكلمات مبهمة ، وصرخ فيه مسلطا عليه وجهه الرهيب مفعما بالقسوة والغضب

– عاوز أيه ؟

– كفن . رجل مسكين ميت . جارنا .

– كذاب .

– والله ياحج .

– كذاب فين تصريح الدفن ؟

– أجيبه .

– هاته . أديك كفن . هاته . ان كان مزور هعرفه . ياكلاب ياحرامية .

انطلق الرجل يجرى وثورة بائع الاكفان تطارده .

– بيجيبو تصاريح مزورة عشان ياخدوا أكفان . بس أنا بعرفها .

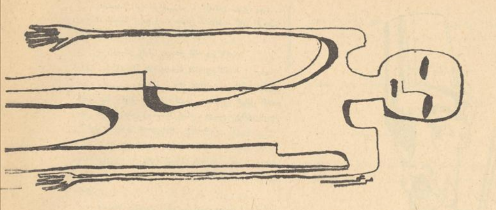
ثم بدأ وجهه يغيب وراء سحابة من السكينة .

– مادام التصريح مضبوط ياخد كفن .

ثم أصبح هادئا رقيقا خجولا كطفل مذنب .

– الحسنة اللى تيجى من ناس زى حضراتكم . ماتخشش بيتى . احنا غلابة . مالناش فى نفسنا حاجة . ربك يجيب من هنا يحط هنا .

وجاء الكفن ، فرد مخيطا على البنك ، هكذا يدرج فيه الميت ثم يطوى .



وجوه فى الزحام

جلس الولد أمام عجلة القيادة كالدجاجة المسمنة، منتفخ الأوداج متجهما ، وجلست آمه بجواره ، تحرف وجهها ملليمترات لليمين ثم تعود وتحرفه ملليمترات للشمال ، وتساؤل يطن فى أذنها أى الأوضــــاع أكثر ملائمة !!

أما الأب فكان جالسا فى المقعـــد الخلفى ، رأى وجهه فى مرآة السائق فضحك ، لم يكن الضحك ملائما لكنه ضحك .

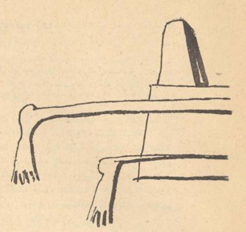
ثبت الابن بصره بقوة على بقعة من الأسفلتأمامه، تلك البقعة الطائرة ، ومقدمة السيارة طافية على ليونه الطريق ، قرر الابن بشكل حاسم ان ذلك التصرف لم يكن لائقا ، استعرض الموقف بكل دقائقه ، والحوار النقاط التى استند اليها كل من الطرفين ، صر عـلى أسنانه وأحكم يديه على عجلة القيادة ، سينتهى من ذلك العزاء على وجه السرعة ثم يعود ، وفى المســـاء سوف يعلنه بقرارة ، لن يتزوج ابنته !!

وتساءلت الام : ترى من سيكون هناك . هذا . وتلك . كلهم سيرون العربة الجديدة ، حسن أن مات فى تلك الظروف ، اليوم بالذات يوم تســـلم العربة الجديدة ، هذا احسن ما عمل فى حياته ، طول عمره نصاب سافل كاذب ، لم يعدم وسيلة لابتزاز مالهـــا، بل كلهم لم يتمنوا لها خيرا ابدا ، كلهم سفلة ادنياء ، كادت تبكى ، لكنها تحسست العربة بقـــوة وأعادت دموعها الى مآقيها ، ولفتت نظر ابنها الى انه مسرع أكثر من اللازم ، ثم ضحكت .

وضحك الأب لهذه المرآة اللعينة ، حوقل ، لكن الضحك يغلبه ، المرحوم كان (ابن حظ) ، الضحك يملأ بطنه ، المرحوم كان نصابا عالميا ، لم يصدق قط الا فى الشهادتين ، وبعد ذلك كل كلامه كذب ، والجنيه وراء عينه ، ينفقه فى قعده ، ها هو قـــد مات ذلك التلاف الخائب ، قاتل الله هذه المرآة .

أكداس الناس تضغطه من كل ناحية ، تطـــاول برأسه الى أعلى ليتنفس، لكن الهواء فى سقف العربة ساخن ، والشنطة فى يده ثقيلة ، تذهب وتجىء مــع كتلة البشر المتماوجة وتجذب يده تكاد تقلعها من كتفه، يقف على قدم واحدة والاخرى معلقة يجوس بها باحثا عن مكان يريحها عليه لكن الارض كلها أحذية متراصة، وحيثما حارت عيناه تصطدمان بعيون منذرة بالثورة ، اكتسحه احساس عارم بالقرف ، تدلت ربطة عنقـــه السوداء ، فقدت احتضانها الحميم لياقة قميصـــه ، وتهدلت ملامح وجهه ، تندى جبينه بالعرق والتـــوت شفتاه بالغضب المكظوم ، لعن الحماقات والطقوس التى تحيط بالموت ، وجلوس الناس كالدمى المضـــحكة ينصتون الى مقرىء القرآن ولا يستمعون اليه ، حماقات مقرفة تاتى بالناس من اقاصى الارض ليمثلوا أدوارا هزلية فى لعبة لا يعرفون من مقترحها .

ثم أحس بتربيت على ذراعه ، وتملص فى الزحام كدودة تتلوى فى طين ساخن ، ثم لمح رجلا يقـــدم له مكانه ، ذابت قطرة من السكينة وانتشرت فى روحـــه كلها ، صعد تنهيدة عميقة وهو يلقى بجسده كلـــه على المقعد ، وفى وجه أزواج العيون المسلطة عليه فى حسد وغضب شرع وجها مكتسيا بالحداد ، وأحكم رباط عنقه الاسود ، وذبلت عيـــونه بنوع من الاسى



مفتعل ، ثم بدا يعزل نفسه ناظرا من الشباك غارقا فى تيار المارة والزحام والواجهات واللافتات ، الاشياء تتخذ اشكالا غريبة وتوحى بأفكار مضحكة ، اليست حياتنا هذه شيئا يصعب فهمه ، بل انها لتصيب الانسان بالدوار .

***

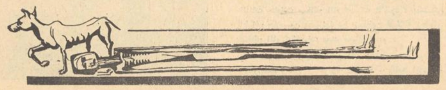
كان الترام خاليا ، ذلك الترام المتهالك الوئيد، وكان الكمسارى رجلا عجوزا طيب الوجه ، ترنح مع الاهتزاز ، ثم وقف أمامه وعيونه مبتسمة مجهدة ، أعطاه القرش ، وعلى مهل قطع الكمسارى التذكرة وأعطاها له ، ثم تلكا قليلا ، كأنما يعز عليه أن تمضى (المناسبة) دون أن يتبادلا حديثا ما ـ هذين العجوزين ـ لكنه مشى فى النهاية يترنح وينشر خبطات هينة بقلمه الحديد .

صرت العجلات فى القضبان والعربة تميل مغيرة مسارها ، ذلك الصرير المعدنى المتطاول ، ثم أعطى السائق للعربة أقصى طاقتها فانطلقت طفلة فرحة يهتز جسدها وتصدر أحشاؤها أزيزا منغما طروبا .

وأغمض الرجل عينيه ، غاب ، أشياء من الزمن القديم ، لم تكن الطرقات مزدحمة هكذا ، كان الترام يسير وسط الشارع تماما ، وزمارة الكمسارى تخلق فيها الحياة وتطلقها على القضبان ، لكن الشوارع الآن مزدحمة خانقة . ياه عربات من كل شكل ولون ، انت لاتكاد ترى الأسفلت ، وجوه فى كل شبر ، وجوه . وجوه . وجوه . وجوه . متوترة عدائية ، ياللعزلة، تداخل فى نفسه ، ترى كيف يكون الموت كيف يكون عزاء اليوم . وكيف يكون العزاء يوم موته . انه حزين حزين من أجل انسان يموت ..

انحرف الاتوبيس فجاة وبقوة ، وطار التاكسى متجنبا ثقل الاتوبيس الذى كاد يسحقه ، لحظة رهيبة تقاربت فيها كتلتا الصلب الى درجة التلامس القاتل ، ابيض وجه السيدة السمينة وتثلجت اطرافها والقت رأسها مغمضة العينين على مسند الكرسي الخلفي في التاكسى ، وأمسك رجلها يدها بقوة وبحنان عميق . وجه مكتنز شوهته السمنة . كم كانت جميلة وهى عروس ، كانت خارقة الجمال ، ماذا فعل بها خلال هذه السنين ، كان يحب جمالها ويرتعب منه ، قتله عامدا ، حولها الى شىء أبله خائف مهين ، أشفق عليها اشفاقا عميقا ، ياالقسوة الانسان الوحشية ، لماذا لا يكون الانسان رقيقا قليلا ، حتى هذا الذى مات ، كان فيه بعض الجوانب الطيبة . لم يكن ضارا على الأقل ، لم يلحق بأحد ضررا ، بل ربما ساعد شخصا ما فى وقت عصيب . من يدرى ؟

يجب ألا يراها أحد وهى تخرج الجنيهات الخمسة وتضعها فى يد زوجة المتوفى ، يجب ألا يراها أحد ، الحسنة التى يراها الناس تفقد قيمتها عند الله ، لذا يجب ألا يراها الناس . ستعمل ما وسعتها الحيطة، ستدعوها جانبا ، لكن ماذا سيقولون عن ذلك الحديث الجانبى ، سيخمنون بلا شك ، اذن طريقة أخرى ستصافحها وتترك الورقة المكورة فى يدها ، لكن ربما سقطت على الارض لان الاخرى لن تكون مدركة لما يقصد من المصافحة . لا . لا . ستقول لها ياه تصورى هذه أول مرة أرى فيها بيتك فى حياتى . ماذا يوجد هنا. غرفة النوم ؟ مسكن جميل ، وخلسة تضع النقود فى يدها ، فرحت بحيلتها وملا روحها جلال دينى رائع ، لكنها فى طريقها صدمت رجلا يحمل لوحا مرصوصا بالأرغفة ، وقال الرجل لها كلمة بذيئة ، وتمزق الجلال بلا رحمة ومشت مهينة واكتشفت أن الشارع قذر تملاه الروائح الكريهة ، وحنت بقوة الى كنبتها وفراء الخروف الناصع البياض المفروش عند قدميها . ياله من فراء جميل .



لن يعود أبدا

دخل الرجـل وفى يده ورقة صـغيرة . تصريح الدفن . الرجل عيونه ضـيقة متآكلة الرموش . لكنها تحمل حزنا غريبا .

المكان ضيق . أشكال رباعية غير منتظمة تحدها جدران قذرة مصمته . والابواب قميئة ضيقة . لكن الناس هنا يملكون دربة غريبة على بذل أكبر كمية من الحركة فى هـذه المساحة الضيقة .. دؤوبون كبناديل الساعات يروحون ويجيئون وجوههم صخرية قاتمة من العناء وسوء التغـذية ومكتسية بالحزن والصرامة .. فروات رؤوسهم مجدبة خربة . واذرعتهم طويلة تحمل فى نهاياتها أكف كبيرة صلبة .

فى الركن وقف رجل عجوز جاف كفرع سنط . لاعيون له يرى من خلال بقع ضوئية كحشوة بدائية . تحمل خطوط وجهه حيوية رسم من العصر الحجرى .

ـ مستنيين ايه ؟ عاوزين نغسل الجثة .

وانطلق من ركن قصي صراخ طويل ممطـوط .. يضج عشرات من النساء فى نفس واحد .. لابسـات الأسود .. وجوههن محتقنة بالدم ، مغسولة بالدموع .. انتشر فى الجو المعتم شىء غريب . أصبح السرير الصغير فى الغرفة الداخلية ـ حيث يسجى ـ فى بؤرة كل شعور ـ تقلصت وجوه الرجال الصلبة بمشاعر ذنبية .. زادت الحركة البندولية سرعة . أصبحت محمومة . خلع ذلك الرجل العجوز جلبـابه ـ ركن عكازه على الحائط ولوح بيده العجفاء .

ـ بنات بكر يملو ميه جديدة .

أصبحت الهمهمات والكلمات المبتسرة والأوامـر السريعة غارقة فى ولولات النسوة النائحات .

وكان ثمة بضعة وجوه ملتصقة بمقاعدها فى ركن آخر . وجوه متميزة فهى ريانة أكثر ، ولها ألوان.. ولكن حركة (أهل الجثة) النشـيطة تعزلهم رويدا رويدا ، من أول الامر ، كانوا دهشـين أكثر منهم حزانى . لقد اخذ هؤلاء الناس حزنهم كذئاب غبراء . واحتفظوا به لانفسهم ، ونظروا لهؤلاء شزرا وتجاهلوهم وعزلوهم . تلفتوا حواليهم . تداولـوا فيمـا بينهم سؤالا ـ تداولوه سرا كقطعة من المخـدر ـ أليسوا أهله ؟

لكن الحركة فى الدار ازدادت حمى .. دخـلت البنات حاملات صفائح الماء لابسات الأسود ، يمسـكن أطراف جلابيبهن يحسرنها عن سيقانهن قليلا ، ويحملن صفائح الماء كراقصات معبد مصرى قديم .

دارت البوابير لتسخين الماء وتقدم الحانـوتى . وجس الماء وأعلن أن حرارته مناسبة . وتقدم الى تلك

الغرفة ووراءه الرجال في كتلة متلاصقة . الميت ممدد على السرير ، مد يده وكشف وجهه . شاحب . نفس الجبين النبيل والشعر الأسود السبط يشوبه بعض الشيب . والعيون مسبلة فى صفاء ، بعض ساعات السرور مع الاخوان ، . ران صمت ثم انطلق صراخ النسوة الطويل المطوط . عشرات منهن في نفس واحد . المجموعات هنا تتحرك في تجانس غريب . عند راس الميت لوح الكاهن بيده :

ـ مستنيين ايه ؟ عاوزين نغسل الجثة ؟

دب اللغط .. الكلمات المبتسرة والأوامر الصارمة وعويل النسوة فى الحجرة الخلفية .

رفع الجسد الى طاولة محشورة بين السرير والحائط فى الركن كان الحذاء الذى ظل لامعا أبدا .

نشر الكاهن غطاء أبيض فوق الجسد المسجى ويداه الخبيرتان جردتاه من ثيابه وأوراق الماء على جسده من تحت الغطاء وهو يصرخ بلا انقطاع (أشهد الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ووراءه أنفاس الرجال مقطوعة ، وكلماتهم مبهورة لاهثة ، والكيزان تصك صفائح الماء فى وقع مضطرب مذعور .

وضع على الجسد ازارا يستر عورته ثم نحى عنه الغطاء الابيض ، وتبدى على الطاولة مسجى مغسول بالماء الدافي يميل وجهه الى اليمين قليلا وانهمر نشيج الرجال بلا خجل كالنساء وتجاوب صريخ النساء فاجعا مريرا .

ثم بدأ يدرجه فى الكفن ـ قميص ثم ثلاثة أدراج ثم شعار من الشاهى وربطت لفة القماش عما يجاوز الرأس ومما ينزل عن القدمين . وحزمه عند الوسط ورفع ذراعيه الى أعلى صائحا « قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » وانطلق كورس الرجال وراءه فى حمى مجنونة وصراخ النساء سياط طائرة تجلد الهواء وحمل الرجال الجسد على السواعد مملوءا بالسكينة وسط الضجة الرهيبة ، وخرجت كتلة الرجال محشورة فى الابواب والنعش رابض فى ساحة ضيقة .. مدد فيه ، وتساقطت الرؤوس على الحدث من كل شكل ذات فروات خربة ، أومغطاة بالوان من الطواقى يقبلون الراحل .

حمل النعش على الاكتاف خارجا من الباب ولجزء من الثانية حل الصمت .. لن يعود يدخل من هذا الباب أبدا .

ياله من حسم لايلائم طبيعة الانسان الهشة

انطلق صراخ كاسح .



عن الذباب

عشرات من الاقدام ، أشكال من الاحذية شوهاء غليظة تزحف على صدر الارض ـ جرجرة النعال على الحصى متهدجة .. عواصف صغيرة من التراب .. ذبابات تزعجها الجلافة المجتاحة .. تطير .. تطن فى عصبية .. تدور بضع دورات ثم تعود تربض بشراهة على صدر تنتف صغيرة من العفن .

ثمالات من صراخ النساء تتباعد والحانوتى يقود موكب الجنازة فى الشمس بلا ظلال والنعش يطفو على وجه الكتلة البشرية ثابتامستقيم الخطوط فوق انحناءات الاجساد الانسانية .

ـ استغفروا لميتكم .

ويلوح الحانوتى بعصاه فتتبعثر صرخات رجالية بين الجمع وتجفل القلوب بالاستغفار .

أكداس البيوت تتساند فى وهن والحوارى تتسرب بينها فى دهاء . وفي مقابلتها تقبع القبور مكينة متعامدة السطوح ذات أبواب حديدية تتدلى من صدورها أقفال صدئة .

وضع النعش على الارض ... وتحلق الحشد حول فوهة القبر ..

ضرب باب الحديد حتى فتح .. جوف القبر معتم .. الطرقات على الباب الحديدى كانت قد أقلقت الذباب .. طن مستاءا دائرا حول خمسة أجساد مسجاة وقد اسود نسيج أكفانها بالتراب .

ضحك رجل بلا معنى .

ـ الخمسة أبويا وعمى واخواتى .

ثم ضحك مرة أخرى مذعورا . حمل الجسد على السواعد وادخل فى القبر .. سوى التراب من تحته ثم أريح فى مكانه . اغلق الباب وسادت العتمة .. عادت الطمانينة للذباب .. طن فى عذوبة .

محمود طاهر لاشين..
وميلاد الأقصوصة المصرية

بقلم : صبري حافظ

يقترن ظهور محمود طاهر لاشين في حقل الاقصوصة المصرية بعدة ظواهر تكسبه أهمية خاصة وتجعله نقطة الانطلاق الحقيقية لدراسة هذه الأقصوصة التي عثرت على أول بلوره مصرية واضحة لملامحها في كتاباته ٠٠٠ صحيح أن محمد تيمور وعيسى عبيد كادا أن يقدما لنا - كل على حدة - عبر كتاباتهم القصصية الارهاصات الحقيقية لميلاد الملامح القومية لهذا الفن الوليد ٠ الا أن توزع اهتمام الأول بين المسرح والأقصوصه ، ومعاجلة الموت للثاني ، وهو لما يكتب لنا - أو لما ينشر - سوى تسع قصص يتسم أكثرها بالطابع الحواري أو الروائي ٠ يدفعنا الى اعتبار محمود طاهر لاشين ٠ نقطة الانطلاق الفنية في دراسة هذا الجنس الأدبي ٠ خاصة وقد اقترن ظهوره - كما قلت - بعده ظواهر تكسبه هذه الأهمية ٠

وايثارا للحقيقة فان محمود طاهر لاشين ، لم يقم بكل هذا الدور الريادي وحده ، ولكنه كان - في ذلك الوقت - أبرز أعلام مدرسة كاملة أخذت على عاتقها النهوض بهذا الفن الوليد واقاله عثراته وتسوية الطريق أمامه ٠٠

الا وهي تلك المدرسة الادبية التي سمت نفسها بالمدرسة الحديثة والتي كان عميدها أحمد خيري سعيد الذي رأس تحرير مجلتها (الفجر) - صحيفة الهدم والبناء - تلك المجلة التي صدر عددها الأول في ١٩٢٥/١/٨ واستمرت في الصدور أسبوعية حتى ١٩٢٧/١/١٣ أو هذا بمعنى أدق هو آخر أعدادها المحفوظة بدار الكتب المصرية ٠ وقد استطاعت هذه المجلة بامكانياتها الضئيلة والاعداد القليلة التي صدرت منها أن تعكس صورة حيه لما كانت تجيش به نفوس شباب هذا الجيل من توق عارم الى بلوره فن وفكر قوميين ٠ فقد نشرت الى جانب القصة والقصيدة ترجمات ودراسات عن العديد من الاتجاهات الفكرية والمذاهب الادبية ٠ كما قدمت الى القارىء عددا وفيرا من القصص القصيرة المترجمة الى جانب عدد أوفر من كتاب القصة المصرية الشبان٠٠وسوف ندرس الدور التفصيلي لهذه المدرسة ونتعرف على أهم كتابها وأبنائها بعد قليل ٠ وبعد أن نتعرف أولا على الملامح العامة للحظة الحضارية التي

● المراجع في نهاية الجزء الاخير من هذا البحث .

ظهرت فيها هـــذه المدرســة ، وعلى الظواهر العديدة التى اقترنت بظهـــورها والتى قدمت لنا فيها أبرز أبنائها محمود طاهر لاشين الذى وفد على حقل الاقصوصـــة المصرية فى فترة تكسبه أهمية خاصة ٠

فقد وفد على حقل الاقصوصة فى فترة هامة وحرجه من تاريخها٠٠فمع مطلع العقد الثالث من هذا القرن كانت الاقصوصـة المصريه قد أفلحت فى تخطى تلك الحافة المتـأرجحة التى وقفت عليها طويلا٠٠والتى نحتت أبرز ملامحها من تشتتها بين الشـكل الأوروبى الوافد مع الترجمات التى غمرت الحقل الأدبى وقتهــا ٠ وبين التنقيب فى بطون الأدب العربى عن أرض تراثيه لهذا الفن الوليد ٠ ولكنها لم تتمكن بعد تجاوز تلك الحافة من مواصلة خطوات الرحلة فتعثرت من جديد فى براثن ذلك الفهـــم التمصيرى المبتسر والذى حمل محمد لطفى جمعه لواءه فى هذا المجال مرافقا بذلك خطوات محمد عثمان جلال المسرحية المشابهة ٠ وتطلب الأمر فترة غير قصيره حتى تمكن محمـــد تيمور ثم عيسى عبيد ـ كل على حده ـ من اســـتيعاب بعض ملامح الشكل الفنى للأقصوصة الأوربية وافراغ بعض القضايا المصرية فى هذا القالب الفنى الجديد غير أن استيعاب كل منهما لابعاد فن الأقصوصة وجوهره لم يكن فوق الشبهات ولا وفقا تماما فى عقد مزاوجه حقيقية بين هذا الشـــكل الفنى الوليـــد وبين تذبذبات الحس القومى المتبلور عبر القيم التراثية ٠ لذلك لم يخلفا لنا بداية متبلورة للقصةالمصرية القصيره يمكن معها القول بأن على أيديهما ـ أحدهما أو كلاهما ـ قد ولدت القصة المصرية القصيرة ٠ وان تركا الارهاصات الحقيقية الواشية بميلاد هـــذا الفن وعن قريب ٠ وآثارا فى أعمالهما الفنية ، وفى مقـــدماتهما النثرية ـ وخاصة مقـدمتى عيسى عبيد لمجموعيته (احسان هانم) و (ثريا) ـ أكثر قضايا هذا الفن أهمية وأشدها تطلبا للعلاج ٠ وفجرا أهم العثرات التى تحول بينه وبين التبلور الواضـــح وارتداء الأثواب المصرية الاصيلة ٠٠ فلم تكد تمر سنوات قلائل حتى أنجز لنا محمود طاهر لاشين تلك البداية المتبلورة التى أرهصت بميلادها كتابات محمد تيمور وعيسى عبيد ٠

هذا من الناحية الفنية ، أما من الناحيـــة الحضارية فقد وفد محمود طاهر لاشين على فن الأقصوصة فىفترة حساسة من تاريخ هذا الفن وحرجه ٠٠ تلك الفترة النابضـــة بالحركة ، الحبلى بالثورة ، المهدهلانطلاقه طلائعها الكبرى فى أوائل مارس عـــام ١٩١٩ ٠ ثم عاش مع يفاعته سنوات الثوره ، وشربت من جذوتهـا روحه ٠ انطلق فى خضمها بكل فوره الأعوام الخمسة والعشرين وكل اندفاعها فلما انحسرت فوره هذا الانطلاق بانتكاسه الثوره ، ومجىء وزارة زيور تحت شعار «انقاذ ما يمكن انقاذه» بدأت ترسبات تلك الانطلاقه الهادره فى أعماق كاتبنا تعلن عن نفسها وتطالب بالسفور ٠٠ خاصه وقد كانت هـــذه الثوره فى جوهرها شـبقا عارما الى بلوره الشـــخصية المصرية واســـتخلاص وجههـــا من تحت ركام التبعية والاحتلال والعبودية ٠ تجلى ذلك فى صرختها الكبرى « مصر للمصريين » وفى موجه الأحياء الفنى للروحالمصرية التى انطلقت من موسيقى سيد درويش بكل جذورها الشـــعبية ، ومن تماثيل مختار بكل محاولاتها الدائبة للكشف عن الجمال المتخفى فى جســم الفلاحة المصرية وفى حركاتها ، واعلاء صوتهذا الجمال المصرى الأصيل (١) ٠ وتجلى ذلكأيضا على الصعيدين السياسى والاقتصادى فى تلك النهضة الممهدة لتباشير الاســـتقلال الســياسى والتى بلغت أوجها عندما صدر دستور ١٩٢٣ ٠ ولظهور طلعت حرب وارساله لدعائم الاقتصاد المصرى مع مطلع عام ١٩٢٠ ٠

فى هذه الفترة عاش محمود طاهر لاشين وبدأ الكتابة بعد ظهور تباشير الطرح الحقيقى لثورة مصر القومية التى اندلعت شرارتها فى مارس عام ١٩١٩ على شتى المستويات الفنية ـ سيد درويش ومختار وهيكل ـ والسياسة ـ دستور ١٩٢٣ ـ والاقتصـــادية ـ ميلاد الاقتصاد الوطنى وبداية انشاء أول مؤسساته الوطنية (بنك مصر) فى ٧ مايو ١٩٢٠ ـ فكان عليه أن يضطلع بهذا الدور فىميدان الأقصوصة بعد ما مهدت له الترجمات الأرض ثم سوتها تماما كتابات تيمور وعبيد ٠ وخلقت التيارات الفكرية التى سادت تلك المرحلة والتى عملت

على بلورة الحس القومي واعلاء شأنه ، في أعماق الفنانين تشوقا عارما مبهمـــا الى فن مصرى أصيل • او بمعنى آخر ، الى ثورة عارمه فى هذا المجال تتخطى كل هذه الاعمال التى أحلت الشخصية المصريه عبرها على استحياء • ولم تكن كتابة القصه أيامها من الاعمال المشرفه او المحترمة فقد استحى هيكل قبـل سنوات ان يضع اســـمه على (زينب) ووقعهـــا بقلـم (مصرى فلاح) •• وكان الأمر والحال كذلك في حاجة الى مجموعة من الفدائيين يحاربون لانقاذ سمعة هذا الفن التى تردت فى شباك الأعمال البوليسية والرخيصة ، ويستدعون له الاحترام •• وكانت المدرسة الحديثة هى هذه المجموعة ، وكان محمود طاهر لاشين أكثر أبناء هذه المدرسة موهبة وأرهفهم حسا •

ولد على تخوم القـــرن الماضى وفى أواخر ذيوله المنحسرة •• أو بكلمات أكثر تحديدا فى ٧ يونيو عام ١٨٩٤ فى منزل أسرته بحارة حسنى بالسيدة زينب ـ سيرد ذكر هذا الحى كثيرا فى أقاصيصه ـ وعاش طفوله مستقره نسبيا لا نســـتطيع ان نتعرف على تفاصيلها الآن • لكننا يمكن ان نقول فقط باستقرارها ، فقد كان والده حسنى لاشين ضـــابطا كبيرا بالجيش ، وكان مولعا بالكتب والقراء • بينما كان أخوه الاكبر محمد عبد الرحيم حســـنى لاشين الذى درس فى أوروبا مولعا بالمسرح • فى هذا الجو الاسرى يمكننا ان نقول أن محمود طاهر الصبى عاش حياة مستقرة واصل عبرها دراسته بانتظام فى مدرسة محمد على الابتدائية ثم الخديوية الثانوية حتى تخـرج من مدرسة الهندسة ـ المهندسخانة ـ (قسم البلديات) فى عام ١٩١٧ • ثم التحق بعد تخرجه بعام ، وعلى وجه التحديد فى ١٧ يوليو عام ١٩١٨ بمصلحة التنظيم بالقاهرة واستمر بها حتى طلب احالته الى المعاش قبـــل بلوغه الستين بشهور قليلة فى ٢٣ ديسمبر عام ١٩٥٣ • ومن هنا نجد أن طاهر لاشـــين قد عاش فى يفاعته وصـــباه تلك الســـنوات المستدفئة بحراره الرومانسيه على الصعيدين الســـياسى والأدبى ، ولا أغالى أن قلت والاقتصادى أيضا •• فعلى الصعيد السياسى كانت مصر أيامها ما زالت متيمة بتنهدات مصطفى كامل الحارقة وتأسيه على مصر المعبودة وعشـــقه الرومانسى لها وكلماته الرفافه عن التدله فى هوى أرضها وسمائها • وكانت غارقة أيضـــا فى التردد الرومانسى بين أحضان أعدائها الى الحد الذى عطف فيه قطاع كبير من بنيها على النفوذ التركى والسراى • كذلك كان الحال على الصعيد الادبى اغراق زائد فى الآداب الرومانسية سواء على نطاق التأليف أو الترجمة • مع يقين خاطىء بأن الأدب لا يعيش الا فى مستنقع المحسنات اللفظيـــة والبديعيـــة ، ســـاهم مع الرؤية الرومانســـية فى الوقوف بالأدب على هامش الحياة الاجتماعية دون الالتحام بجوهرها • أما فى المجـــال الاقتصادى فقـــد كان المحتـــوى الرومانسى لفكره العصـــامى ، والشـــعارات الكبيرة المصاحبه لصعود البرجوازيات القومية عاده ، هى المناخ السائد فى هذا الميدان ، حيث ترجمت كتب الفـــكر البرجوازى ، وهى فى الآن نفسه الأرضية التى وقفت عليهـــا شتى النشـــاطات الأدبيـــة وحاولت أن تـكون انعكاسا لها •

وسط هذا الجو المشبع بالرومانسية عاش طاهر لاشين سنوات دراسته ويفاعة شبابه • غير أنه أدرك أبان بداية التحاقه بالعمل تلك الثورة الواقعية التى تمخضت عن ثورة ١٩١٩ كما رافقت هذه المرحلة وقوعه على كنز الأدب الروسى المكتظ بالاتجـاهات الواقعيـــة التى دعمت التراث الذى أرساه فى أعمـــاقه ولعه بديكنز العظيم ، وصقلت تشـــوفه العـــارم الى الالتصـــاق بقلب البيئة المصرية والغـــوص داخل أغوارها بحثا عن جوهرها • وقد أتاحت له طبيعة عمله أن يجوس خلال الأحياء الشعبية ويخالط أولاد البلد وصغار التجار وأصحاب القهاوى ، وأن يطلع على أحوالهم ومشـــاكلهم ونوازعهم ومآتمهم وأفراحهم » (٢) •

وقد هام طاهر بتشـــيكوف الى حد كبير ، ترك معه على معظم كتاباته بصماته الواضحة • ليس فقط فى التكنيك القصصى ، ولكن أيضا فى الرؤية •• وقد دفعه هذا الهيام الشـــديد ـ ذات مرة ـ الى اقتباس واحدة من أقاصيص تشيكوف فى مجموعته الأولى (سخرية الناى)

وهى (انفجار) .. هيام نستطيع معه القول بأن طاهر لاشين كان تشيكوف مصر فى هذه الآونه ، بولعه الشديد بالفكاهه وسخريته الانسانية من أبطاله مع حبه الغامر لهم، المخطىء والمصيب فى آن .. أقول أن طاهر لاشين كان تشيكوف مصر فى هذه الآونة مع الفارق بين مصر فى العشرينات وروسيا القيصرية فى أواخر القرن الماضى .. بين مهنه الطبيب الانسانية المعطاء والتى عاشها تشيكوف بكل ذرات كيانه ، وبين مهنة مهندس التنظيم الجافة التى داخ طاهر لاشين فى سراديبها دونما جدوى . ولا أحسبنى مغاليا بقولى أن طاهر لاشين كان تشيكوف مصر فى العشرينات ، فقد قام فعلا فى تاريخ الأقصوصه المصرية بنفس الدور الذى قام به تشيكوف فى تاريخ القصة الروسية القصيره . لقد حررها من الابتذال والسطحية ومن الوقوف عند المظهر السطحى أو الوعظى للتناقضات البشرية والذى غرقت فيه أغلب المقامات العربية عند الحريرى والهمذانى وغيرهما ، فضلا عن الألاعيب اللفظية .. لقد حارب طاهر لاشين ببسالة فى ميدان كان مجرد الانتساب اليه نوعا من العار .

والحقيقة أن القاء هذا الحكم ، وبهذه الصورة المجردة ، قد يلوح وكان فيه قدرا كبيرا من المغالاة والتحيز الانفعالى . وحتى تتضح موضوعية هذا الحكم تلزمنا دراسة سريعه للمدرسة الحديثة ، وتعرف على مكان طاهر لاشين من هذه المدرسة وعلى دوره فيها . ومن الوهله الأولى سنجد أن هذه المدرسة ليست فى حقيقتها سوى تجمع ثقافى لمجموعة من الشبان فى عشرينات هذا القرن . تجمع حول فهم معين للادب ولدوره فى المجتمع . غير أن هذا التجمع لم يكن وليد المصادفة المحضه ، فلتوقيته ولظروف ميلاده دلالات على درجة كبيره من الأهميه . ذلك لأنه كان تعبيرا عن ظواهر حضارية متعددة ارتعش بها وجدان مصر فى هذه المرحلة . وجاءت هذه المدرسة لتلبى عدة احتياجات ملحه ، تقف فى مقدمتها الرغبه فى سد احتياج جمهور المتلقين الجديد . واحتضان رؤيته للعالم وتقديمها فى قالب جديد يتوائم مع درجة نضجه الفنى والفكرى ومع الأرضية الحضارية التى وقف عليها وولدت فوقها شتى الهموم والمشاكل التى التقطت بها أقاصيص كتاب هذه المدرسه الحديثه . وكذلك الخروج بهذا المتلقى الجديد من ذلك المدار التقليدى الذى أنهك أذهان الأجيال السابقه بارديته الكثيفه وعيبياته الاسطوريه الكثيره .. وتخليصه من أسار الذهنيه القديمه التى اقتصر دور الادب فى مفهومها على اللعب بالألفاظ ببراعه تبلغ حد الى البهلوانية . والخروج على تقاليدها الباليه ومواضعاتها القديمة لتحتضن الجديد بقوه وبسالة وتعبر عنه وتزود عن قضاياه مقدمة النموذج الجديد للادب الذى يعثر على وجهه الجمالى عندما يعثر على دوره الاجتماعى وليس عندما يوفق فى كتابة الجملة التى تقرأ من أولها مثلما تقرأ من آخرها الى آخر اللعب بالألفاظ الذى كان يضرب المثل بما وصل فيه الحريرى من انجازات .

فمما لا شك فيه أن تطور الادب يتحدد بدرجة ما بطبيعة المتلقين لهذا الادب والقارئين له . فقد كان ساده اليونان أيام هوميروس ومالكى العبيد فيها يحتاجون ، خلال فترات استرخائهم الطويلة وليالى السمر فى قصورهم، الى منشدى الملاحم الشعرية الطويلة التى تستنفد الليالى المتعاقبة دون أن ينفد معين أحداثها وشخصياتها من مفاجئات وخوارق . ومن هنا كان ازدهار الملحمة الشعرية فى هذا الوقت . أما قارىء القرون الوسطى الاقطاعى فقد وجهت طبيعة حياته الهادئة المسترخية الادب وجهة أخرى . فسادت الرومانس الطويلة بكل ما فيها من أحداث أسطورية متعاقبة قادرة على قتل الليالى الطوال بجوار المدفأة . أما قارىء عصر النهضة فقد تاق - بعد سيطرة الاتجاهات التجريبية والعلمية - الى رؤية واقعية جديدة ترى الاحداث والشخصيات الروائية بعين لا تهيم بالاساطير أو الخرافات ولا تهضم الاحداث الخارقة . ومن هنا ولدت الرواية الفنية القائمة على الاقناع الفنى . وكذلك الحال بالنسبة للقارىء الحديث الذى يعاصر فى أوروبا مرحلة تدهور الرأسمالية ويعانى من تمزقاتها والتى ولدت

روايات تيار الوعى ثم الرواية الجديدة تلبية لاحتياجاته وتعبيرا عن قلقه وتوتره ٠٠ هذا هو الحال مثلا بالنسبة للرواية ويمكننا أن نجده كذلك لو ضربنا المثل بالمسرح أو الاقصوصة ٠ وان خضع هذا التطور لطبيعة الشكل الفنى لكل جنس من الاجناس الادبية ولامكانياته ٠ ففى الاقصوصة ــ وهى مجال دراستنا هنا ــ سنجد أن أقاصيص ادجار ألان بو ، بكل أحداثها الغامضة والزاعقة قد ازدهرت وسادت فى مرحلة غير تلك التى سادت فيها أقاصيص تشيكوف وبيرانديللو بواقعيتها الشعرية وتناولها اللماح لأدق الموضوعات الانسانية وأكثرها حساسية ٠ كما عبرت أقاصيص همنجواى المتوترة الالفاظ الحادة الجمل البسيطة الاحداث عن مرحلة مغايرة للمرحلتين السابقتين ٠

لذلك علينا أن نبحث عن مبررات ميلاد هذا الاتجاه الجديد فى الادب المصرى ٠ وعن البناء الحضارى الذى كان هذا الاتجاه الجديد أحد الأصداء الفوقية له ٠ لأنه لو لم تكن ثمة جذور لهذا الاتجاه لما نما وازدهر بالصورة التى أنجبت فيما بعد عددا كبيرا من كتاب الاقصوصة المجيدين ٠ لان أغلب الاتجاهات والحركات الادبية التى تظهر دون أن تعبر عن حاجة حقيقية للمجتمع الانسانى الذى ظهرت فيه أو تعكس بعض وجوه حركته الماضية أو الآتية سرعان ما تنطفىء دون أن تخلف غير بعض الآثار الدارسة ٠ ومن البداية سنجد أن هذا التجمع الثقافى الذى أطلق على نفسه اسم «المدرسة الحديثة» الذى ضم عددا كبيرا من الكتاب الشبان فى هذا الوقت أبرزهم وأندريا جبريل ومحمود عزى وحبيب زحلاوى أحمد خيرى سعيد وحسن محمود ومحمود طاهر لاشين وحسين فوزى وابراهيم المصرى وسعيد عبده وأحمد شوقى حسن وفايق رياض ويحى حقى الذى لحق بهم أخيرا وكذلك التف حولهم عدد من القصاصين والشعراء الذين انصرفوا سريعا عن القصة والشعر مثل أحمد حلمى سلام وعبد العزيز الخانجى وفرج جبران ومصطفى فهمى ومحمد أحمد غنيم و ا ٠ نظمى وغيرهم من الاسماء التى انطفأت سريعا بعد ما نشرت قصة أو قصتين مثل نجيب جرجس وحسن عارف ومحمد عبد القدوس ونور الدين على طراف وأمينه أحمدطه ومحمود عطية يوسف٠ كما رافقت هذه الفوره القصصية الجامحة حركة فكرية نشيطة سارت بموازاتها تترجم لأعمال تشيكوف وموباسان وجوركى وبيرانديللو وتورجنيف ٠ فتترجم عائشة فهمى الخلفاوى أعمال عديدة لتشيكوف وتكتب دراسات سريعة عن تورجنيف وديستويفسكى ، ويكتب زكى الدين السويفى عن مدارس الادب الروسى الجديد ، وينقل عبد الحميد سالم قضايا الفكر الغربى ومفاهيمه ملخصا أعمال برناردشو ومثيرا العديد من قضايا الاشتراكيه والعداله الاجتماعية ويقدم محمد على ثروت ــ العائد لتوه من أمريكا ــ أعمال ديكنز ومغامرات أدويسيوس ويبعث حسن صبحى البرديات القديمة وما بها من أساطير ، ويترجم فى (السياسة اليومية) عددا كبيرا من الأقاصيص الاوروبية والامريكية ٠ كل هذا بالاضافة الى كتابات سلامة موسى وكامل كيلانى ٠ والدراسات الناضجة التى قدمها آنذاك حسن محمود وابراهيم المصرى ٠ صحيح أن هذه الدراسات كانت تتسم بالسرعة دون العمق وبالتعريف دون التحليل ، الى الحد الذى يجعل تسميتها بالدراسات تسمية مجازية ، غير أن هذه دائما هى حال الدراسات النقدية فى مهدها ، ولا يمكننا أن ننسى أن أولدراسة نقدية جادة قد قوبلت بضجة واستنكار شديدين ، عندما ظهرت على الناس بعد ذلك بسنوات ، وأقصد بها كتاب (الشعر الجاهلى) للدكتور طه حسين ٠

قلت أن هذا التجمع الثقافى قد بدأ أولى خطواته الجدية فى السنوات القليلة التى سبقت انفجار شرارة الثورة القومية المصرية عام ١٩١٩ ، أو على وجه التحديد فى عام ١٩١٧ وان كانوا لم ينجحوا فى اصدار مجلة خاصة بهم الا بعد ذلك بثمانية أعوام ــ عندما أصدروا (الفجر ــ صحيفة الهدم والبناء) عام ١٩٢٥ ــ وليس غريبا أن تتوافق البداية

الجادة لهؤلاء الشبان مع الخطوات الايجابية فى تناول القضية المصرية التى تراكمت فوقها لسنوات طويلة أتربه الصمت والركود • فالارضية التى أشعلت هذه الجذوة الوطنية هى نفسها التى أنبتتهذا التيار الادبى ليكون فى الحقيقة أحد وجوه هذه الجذوة الوطنية أو أحد روافدها • وليعبر عن واحدة من عشرات الرغبات التى كان يرتعش بها الوجدان القومى فى هذه المرحلة ، والتى استقطبتها رغبة عارمة كبيرة ترمى الى بلورة الشخصية المصرية وخلق ملامحها المميزة على شتى المستويات • وكانت « المدرسة الحديثة » مسئولة عن القيام بهذا الدور على الصعيد الفنى ، أو بمعنى أكثر تحديدا فى مجال الاقصوصة •

ومن هنا تجلت أبرز انجازات هذه المدرسة فى طبيعة ونوع الاعمال الفنية التى قدمتها والتى يتركز أغلبها فى ميدان الاقصوصة والاقصوصة الطويلة • فعندما وفد أبناء هذه المدرسة على حقل الاقصوصة ، كان هذا الفن يشكو من فقدان الملامح ويتشوف الى أنتتبلور له شخصيته المميزة •• وكان هذا التشوف العارم قد تحددت أهم معالمه عبر اصرار عيسى عبيد وأخيه شحاته على ارساء دعائم « القصة المصرية العصرية » • فقد كانت هذه العبارة مثبتة دائما تحت عنوان مجموعاتهما القصصية • فحددا – دون أن يدريا – باصرارهما هذا أهم ملامح ذلك التشوفالعارم الذى كان ينبض به جسد الاقصوصة فى تلك الفترة •• تشوف الى أن تتحقق لها المصرية والمعاصرة فى آن واحد • والحقيقة أن هذا التشوف ظل يرود خطوات هذا الجنس الفنى منذ أولى المحاولات البدائية فى حقله حتى اليوم • وظل جنوح هذا الفن الى مواكبه روح العصر وقضاياه ، دون التخلى عن طعمه القومى الخاص أو بمعنى آخر عن مصريته ، هو السمة الأساسية التى طبعت بميسمها الواضح هذا الفن • وتركت معالمها على كافة مراحل تطوره • لذلك فليس فى استطاعتنا القول بأن المدرسة الحديثة قد حققت للأقصوصة المصرية كل ما كانت تنشده • أو أشبعت تشوفها الظامىء ذاك • لكننا نستطيع القول بأنها قد تمكنت من السير بهذه الاقصوصة خطوة واسعة فى الطريق الصحيح •• الى الحد الذى يجعلنا نوافق أحمد خيرى سعيد على أن أدباء هذه المدرسة قد أضافوا الى الادب العربى فن القصة (٣) •• كيف ؟

فى دراسة سابقة تابعنا تصور الاقصوصة المصرية منذ ميلادها حتى وفود هذه المدرسة على حقلها • واستطعنا من خلال هذا العرض السريع لطبيعة ميلادها وتطورها أن نقف على أهم المشاكل والعثرات التى كانت تعانى منها هذه الاقصوصة حتى وفود أبناء هذه المدرسة عليها •• فالى أى حد تمكنوا من تخليص الاقصوصة من هذه المشاكل وتلك العثرات ؟ من البداية نستطيع القول بأنهم قد مضوا بمحاولات تمصير الأقصوصة الى آفاق خصبة• بدءا من محاولة الخروج بها من دائرة المقامه والاتجاهات الوعظية أو من اسار النقل الحرفى لبعض الأقاصيص الاوروبية •• ثم تطعيمها بالنماذج والشخصيات المصرية والشعبية خاصة ، والتحويم بموضوعاتها بالقرب من المشاكل والقضايا المصرية الصرفة •• حتى اكتشاف جوهر الاقصوصة شكلا ومضمونا والعثور على بداية الطريق الى لغتها الخاصة وأسلوبها الخاص •• بهذه الاضافات الكبيرة سارت المدرسة الحديثة بالاقصوصة المصرية خطوات واسعة فى الطريق الصحيح لتطورها ونموها • ساعدها على ذلك اعتناق أغلب أعضائها لحرية الفكر ، فقد كانت « المقدسات لا ترهبهم وأحيانا لا تقنعهم ، وكانوا أيضا من المغرمين بالادب الروسى ، وهو يعج بالمشكلات الروحية ، ومع ذلك فقد اقتصر اهتمامهم على الهموم المعاشية الارضية • وتصوير العلاقات الاجتماعية بين الناس • أو وصف أنماط شاذة مضحكة من البشر • فلا تجد فى انتاجهم آثار القلق ازاء لغز الوجود ، وقدر الانسان ، والصراع بين الخير والشر وحاجة النفس الى الوصول للطهر فى محراب الجمال »(٤) •• فهذه مشاكل مترفه لم تفد على حياتنا الادبية الا مع الاعمال القصصية الجيدة لمحمود البدوى فى الأربعينيات ولم تلح عليها الا مع الاعمال الروائية الاخيرة لنجيب محفوظ • وربما لتأخر

وفود التيارات العلمية والفلسفات الشكيه على حياتنا لفترات طوال • وربما لطبيعة ذلك الاستقرار الراسخ الذى توارثناه على مر القرون والذى يستبشع التفكير فى هذه القضايا ، ويضع أصحابها فى مصاف الملاحدة والزنادقة مذقر فى نفس المصرى القديم مفهوم متكامل عن الموت وحياة ما بعد الموت حتى اليوم •

لذلك انصرفت المدرسة الحديثة برغم انطلاق أغلب كتابها أصلا من الادب الروسى ، الى قطاعات حياتنا تحاول أن تقدم مسحا فنيا واجتماعيا لها • حتى تتمكن من ادخال أغلب قضايا الحياة المصرية ومشاكلها فى قلب الاقصوصة • ومن ارساء دعائم هذا الشكل الفنى الوليد وتكوين أرض تراثية تستطيع أن تحنو على البذور والمحاولات الجنينية لهذا الفن • بل لقد تمكنت من ترك بعض الاعمال الجيدة التى أرسلت اشعاعاتها الهادية لفترات طويلة مثل (حديث القرية) لطاهر لاشين وبعض أقاصيص أحمد خيرى سعيد مثل (أم شحاته) و (من الكوخ الى القصر) و (اللغز) و (الجريمة الأخيرة) و (الثائر) (٥) وغيرها من النماذج الفنية التى ظلت مثلا يحتذى لفترات طوال •• غير أننا نستطيع أن نؤكد أن مثل هذه الأعمال الفنية ماكان باستطاعتها أن تتحقق الا من خلال المجهود الجماعى لأبناء هذه المدرسة الحديثة ولمن مارس كتابة الأقصوصة معهم فى هذه الفترة وخاصة محمود تيمور الذى كان يوقع أقاصيصه فى هذه المرحلة بامضاء (موباسان المصرى) • غير أن هذه الاضافات المتعددة لا تبدو واضحة فى أعمال أى من أبناء هذه المدرسة ، بقدر ماتبدو فى أعمال طاهر لاشين •• ليس فقط لأنه أنضج أبناء هذه المدرسة فنيا وأغزرهم انتاجا خلال سنوات ازدهار هذه المدرسة فى العشرينات • ولكن أيضا لأننا نستطيع أن نعثر لديه على أعمق اثارة لأهم قضايا الاقصوصة ولكافة اضافاتها الفنية فى تلك الفترة • بدرجة لا نجدها فى أعمال أى من زملائه فى هذه المدرسة • خاصة وأن عددا كبيرا منهم لم يواصل الكتابة أيامها بنفس اصرار طاهر ولا غزارة انتاجه مثل حسين فوزى وأندريا الجميل وحسن محمود ، كما عاجل الموت بعضهم كعبيد • ومن هنا علينا أن ندرس أعمال هذا الكاتب بصورة تفصيلية باعتباره أهم أبناء هذه المدرسة وأغزر رواد الاقصوصة المصرية الاول انتاجا •

وقد نشر طاهر لاشين أغلب الاقاصيص التى ضمتها مجموعاته الثلاث (سخريه الناى) ١٩٢٦ و (يحكى أن) ١٩٣٠ و (النقاب الطائر) ١٩٤٠ وبعض الاقاصيص الاخرى التى لم ينشرها فى أى من هذه المجموعات الثلاث • فى عدة صحف ومجلات أهمها (كوكب الشرق) و (الشباب) و (السفور) و (الفجر) و (الهلال) و (السياسة) وغيرها فى السنوات العشرين الواقعة بين ١٩١٧ و ١٩٣٧ • غير أننا لن نحاول هنا أن نتتبع تواريخ نشر هذه القصص بتلك الصورة التى تتكرر دائما فى الدراسات المدرسية والتى غالبا ما تكون بلا دلالة ، ولن نقف عند القصص التى لم تظهر فى أى من المجموعات الثلاث مثل (الاستاذ س)(٦) و (قصة زواجه بسعاد)(٧) و (الأنس)(٨) و (الاستاذ)(٩) و (مكتب عبد اللطيف القطب)(١٠) و (قصة غير كاملة) (١١) الأننى أوافق طاهر لاشين على اغفالها من مجموعاته ، فهى لم تكن أكثر من مجرد صور وصفية ساخرة تبتعد كثيرا عن البناء المتكامل للأقصوصة الفنية • ولن نتتبع التغيرات التى أجراها فى بعض القصص مثل قصة (الجنية البيضاء) وهى كما يثبت تحت عنوانها — قصة العجوز المتصابية زهرة مع زوجها المحتال وما جرى لها بالتمام والكمال والحمد لله على كل حال — ألا تداعب شفتى القارىء ابتسامة ساخرة بمجرد قراءته لهذا العنوان ؟ —(١٢) والتى نشرت بعد تعديلها فى مجموعة (يحكى أن) بعنوان (الكهلة المزهوة) •

فالمهم عندنا هو دراسة الدور الذى قام به طاهر لاشين فى تاريخ الاقصوصة المصرية والتعرف على مساهماته الخلاقة فى بلورتها وانضاجها واخراج نمطها الفنى الى حيز الوجود ، ودراسة مدى التصاق هذه

الاقاصيص بالارض الحضارية التى ولدت عليها ومدى تعبيرها عن هموم المرحلة التاريخية التى صدرت عنهـا • ولن يتم التعرف على هـذه الجزئيات من خـلال التتبع الدقيق لموضوع القصة فقط ، ولكن أيضا سيأخذ فى الاعتبار مدى فنية تعبيرها ومدى قدرتها على الوصول باقناع مبرر الى هدفها• ذلك لأن درجة النضج الفنى للأقصوصة ، لا تشف عن مهارة الكاتب فحسب ولكنها تقدم لنا مدى هضمه لموضوعه وتمثله لجزئياته • وتعكس أيضـا الكثير من طبيعة فهمه لهذا الفن ، وللمنـاخ الثقـافى والفكرى الذى مارس خلاله التعبير •

من البداية نحس بأن ثمة خجلا طفيفا يستشعره طاهر لاشين من كتابة الاقصوصة• فقد كان فى ممارستها فى هذا الوقت نوع من التحدى لكثير من القيم والمواضعات الفـكرية السائدة • صحيح أن فى منطقة الوعى من تفكيره نجد اقتناعا جارفا باهمية هذا العمـل الفنى ونبالتـه • الا أنه خلف هذه القشرة الواعية الخفيفة يطل على استحياء احساسـه بالحرج من مزاولة هذا الفن ، وتأثره برؤية النـاس لكاتبيه وفكرتهم عنهم • ويشى هذا الاحساس بنفسه عبر بناء الاقصـوصة الفنى عنده ، فاغلب أقاصيصـه ، وكل الاقاصيص الاولى بوجه خاص تبدأ بتقديم جزئيه طريفـه تمهد لرواية الاقصوصة وتحبب الى القـارىء متابعتها وكأنى به يستشعر احتياجا حقيقيا الى تبرير كتابته للأقصوصة من البداية • والى تهيئة الجو المهد لسرد أحداثها • هذا فضـلا عن لجوئه الى مخاطبة القارىء ومناقشته وسط أحداث الاقصوصة ـ بشكل مباشر فى بعض جزئياتها ، مثلما نجد فى (سخرية الناى) ، و (قصة عفريت) • لكن هذا المنهج التبريرى قد أخذ ـ لا نقول فى التلاشى ، ولكن يمكننا أن نقول ـ فى النضـج على طول رحلتـه القصصية • فبعـد أن كان الحدث المهـد للاقصوصة نوعا من الطرائف الاجتماعية التى تستجلب الحـكايات ، أصبح مقدمه تمهدية تدخل أحيانا فى صلب الاسلوب البنـائى لمعمار هذه الاقصوصة ولحبكتها •وبعد أن كان هذا المنطلق التبريرى يستغرق جزءا كبيرا من اهتمام الكاتب والقارىء على السواء الى الحد الذى تتنوع فيه المحاورفى الاقصوصة الواحدة

وهو شىء مستســـاغ فى الرواية وان كان ممجوجا فى الاقصوصة وموهنا لها • كما نجد فى مجموعتى (سخرية الناى) و (يحكى أن) وخاصـــة فى أقاصيص (منزل للايجار) و (مفيستوفوليس) و (يحكى أن) و (قصة عفريت) و (منطقة الصمت) • حيث يصبح هذا المنطلق فى الاولى تزيدا لا مبرر له واطنابا يتشعب بالقصة فى مسارب لاتعود على بنائها بغير الضعف والتفكك ويتحول فى الثانية الى عبء ثقيل عليها موهن لها • ينال من فنيتها ويقلل من تاثيرها الانفعالى بهذا التمهيد الذى يعقلن الكثير من أحداثها ، بربوضه الدائم فى خلفيتها واشيا بتسلسل الاحداث كاشـــفا لتتابعها • بينا يتحول فى الثالثة الى تبرير وعظى ، أو خلاصة فى صورة حكمة مبتسره ، وكأنى به يريد أن يقول : سأحكى لـكم تلك القصة مصداقا لهذه الموعظةالحيوانية الساخرة أما فى القصة الرابعة فانه يضطر تبريرا لهذه القصة الغريبة الى تقديم هذه المقدمة الخطابية التى ما أقنعته ولا أقنعت القارىء برغم خفـة ظلها ودمائتها • وفى الاخيرة نرى أن لجوءه الى ادارة القصة ـ وهى مقتبسة ـ خلال هذا الجو المشبع بالضـحكات وكؤوس الخمر يجرح شفافيتها وشحنها • ويساهم فى تمييع الكثير من أجزائها خلال تلك التعليقات الثملة التى كانت تنطلق كثيرا أثناء روايتها •

بعد أن كانت هذه هى حال تلك المنطلقات التبريرية فى المجموعتين الاوليين ، أخذت فى مجموعته الثالثة (النقاب الطائر) فى التقلص حتى أصبحت المقدمات فى هذه المجموعة كلها برغم زيادتها ، ممهدة لموضوع القصـــة أو لمضمونها وكأنها اللحن الافتتاحى أو المقدمة فى الاعمال الموسيقية الكبيرة • ففى (النقاب الطائر) نفسها لانجد سوى حادثة صـغيرة يتذرع بها الكاتب لاسترجاع تفـاصيل هذه القصة • وفى (الحب يلهو) يعمد الىمنطلق تبريرى من نوع جديد عندما يزعم بأن القصة برمتها ليست سوى رسالة عثر عليهـا بين خطاباته من أحد الاصدقاء ، ويستميحنـا العذر فى عدم ذكر اسمه • وأما (تحت عجلة الحيـاة) فان مقدمتها التى طالت كثيرا ، استطاعت أن تمهد باسرافهـا فى الحديث عن تصاريف القـدر ، لاحداث هذه القصـــة

الميلودرامية ولجوها المشبع بالاسى • أما القصة الاخيرة فى هذه المجموعة وهى (أحرج ساعة فى حياتى المدرسية) فانهـــا تكاد أن تكون القصة الوحيدة الخالية من أية مقدمات تبريرية وان كانت من البداية تخرج من دائرة القصة بمفهومها الفنى ، الا أننا نحس بأن الكاتب قد فطن عبرها الى ضرورة حذف المقدمة التمهيدية للقصة ، والتى تبدو هنا وكأنهـــا مستترة وتقـديرها ، أن هــذه ليست سوى لوحة كاريكاتورية أطلت على فجأة من أعمــاق الذكريات •

ولقد ترك ميل طاهر لاشين الى البحث عن مقدمة تمهيدية أو منطلق تبريرى للأقصوصة - وهو ميل يحمل بصمات المرحلة التاريخية التى صدر فيها - أثاره ليس فقط على شكل الاقصوصة عنده ، ولكن أيضا على موضوعها • فنزوع الكاتب الى التمهيد لبعض أقاصيصه ، سواء أكان هذا التمهيد مستترا أو سافرا ، مندمجا فى البناء الفنى أو ناشزا عنه ، يخلق فجاة محورا اضافيا للقصة من ناحية ،ويساهم فى عقلنه أو هندسة بعض أحداثها من ناحيـة أخرى • وهما شيئان ممجوجان من الناحيـة الفنية ، خاصة وأنه يميل فى أغلب أقاصيصه الى رواية القصة على لسان شخص يتحدث الى آخر - مثل (النقاب الطائر) و (تحت عجلة الحياة) و (قصة عفريت) - أو يكتب اليه- مثل (الحب يلهو) - أو يروى عنه - مثل (لون الخجل) و (الشيخ محمد اليمانى) و (الشبح المائل فى المراة) وأغلب الأقاصـــيص - أو يتصفح مذكراته - مثل (مذكرات ســيدنا نوح) - وهذا الاسلوب فى البناء الاقصوصى يفرض على الاقاصيص أن تكون فى أغلبهـــا أقاصيص أحداث لاشخصيات • لأن التمهيـد يميل عادة الى اســـتدعاء حادثة متميزة عن مجريات الامــور المألــوفة وحافلة بالعبر والعظات • والا لما كانت ثمة ضرورة لها •••
وهذه واحدة من آثار هذه المنطلقات التبريرية على عالمه القصصى تتبـدى عبر هذا الاغراق النسبى فى الميلودرامية والاحداث اللامألوفة الزاعقة الدلالات يساهم فى ابراز هذه السمة وتضخيمها ، ميل كاتبنا - خضوعا منـــه للذهنية التقليدية فى هذه الفترة - الى الخروج بعظة أو حكمة واضحة يساهم السرد القصصى فى بلورتها والتأكيد عليهـــا • كما أن أسر الحدث أو القصة جميعهـا داخل اطار الرؤية المحدودة - الخاصـة لمن يسردها عبر المنطلق التمهيدى ، وعدم تقـديم الاحداث وحدها ، يساهم فى تعميق ميلودراميتهـــا من جهة ، ويؤدى الى تسطيحها واهمال الكثير من أبعادها من جهة ثانية وخاصة الابعاد النفســية التى نلمس غيابها تماما من أفق معظم الاقاصيص•

غير أن استسلامنا لاغراءات مثــالب هذا الاسلوب الفنى ، قد يبتعد بنا عن الموضوعية قليلا • لأن مناقشة هذه المثالب عبر حدقتى القارىء المعاصر الذى شهد تبلور الاقصوصـة ونموها الكبير خلال الســنوات الاربعين التى مضت على الفترة التى كان طاهر لاشين يمارس الكتابة فيها ، لايتوايم بأى حال مع طبيعـة المناخ الثقافى الذى صورت فيه هذه الاقاصيص والذى ما كان يرى أى غبار على انتهــاج هذا الاسلوب •• اللهم الا اذا أدى الاسراف فيه الى تعدد المحاور فى الاقصوصة، وهذا ما لم يحدث الا فى عدد محدود من أقاصيص كاتبنا•• ومن هنا علينا قبل مبارحة هذه الجزئية ألا نغمطها دورها فى اكتساب عدد كبير من القراء الجادين لميدان الاقصوصة • وفى المساهمة فى تهشيم الحواجز الصلبة بين هذا الفن الذى خرج حديثا على أصول المقامات العربية أسلوبا ومضمونا وبين القارىء المتمسك بالذهنية التقليـدية • ولا نهضمها حقها فى تطويع هذا الفن الوافد - لاحظ أن ثقافة المدرسة الحديثة كانت أوروبية فى أغلبها (١٣) - لطبيعة واقعنا المصرى دون تجاهل تقاليده وتراثه بشكل قاطع • ودون تعال على الذهنية المصرية التى تميل الى البناء السببى للحكاية حتى تستطيع أن تتجـاوب معها • خاصة وأننا قد لاحظنا أن طاهر لاشين كان حريصا على تخليص قصصه تدريجيا من هذه التزيدات والعمل على الاقتراب بها كثيرا من مواقع الفن الصحيح الكامن فى التركيز الشديد • وحتى نرى كيف حقق طاهر لاشين هذه الغاية ، أو نتعرف على حقيقة الخطـوات التى قطعها فى طريقها • علينـا أن نتلمس أبعاد عالمه الاقصوصى وأن نتعرف على بقيـة الملامح الفنية للاقصوصة عنده •

(تتمة البحث فى العدد القادم)



مكتبة المجلة

السارق و المسروق

قصص قصيرة لفتحي رضوان

نقد : د. شكري محمد عياد

«ان من يشتغل بالسياسة لايستطيع أن يكون شيئا آخر ، فهو بين رجال الدين سياسى أيضا ».

هكذا يقول «زهمو» فى مسرحية قصيرة للاستاذ فتحى رضوان «اله رغم أنفه» وليس القول بأقل انطباقا على الكاتب نفسه ، فهو قد اشتغل بالسياسة منذ فجر شبابه ، و «لم يستطع أن يكون شيئا آخر» بعدذلك وعلى الرغم من أنه كتب دراسات أدبية وقصصا ومسرحيات ، فقدكان فى كل ذلك سياسيا : أعنى مفكرا سياسيا يعبر عن أفكاره من خلال الادب ، لا مجرد «أديب ملتزم» . ولعلنا لانغلو اذا قلنا اننا نستطيع أن نتتبع تفكيره السياسى ، بوضوح تام ، من خلال أعماله الادبية .

هو تفكير سياسى ثورى ، بمعنى أن المحور الذى يدور حوله هو التغيير السريع ، بل المفاجىء . والتغيير الذى يستأثر بانتباه الكاتب المفكر هو التغيير الذى يجرى فى نفسية الفرد ، فهنا تسرع الحركة وتحتدم ، فى حين أننا اذا نظرنا الى الخلفية الاجتماعية ، بدت لنا شبه ساكنة . وقد يكون من المفيد والممتع أن نتتبع هذه الفكرة فى أعمال الاستاذ فتحى رضوان ، وأن نحاول تفسيرها بطبيعة العصر الذى نضج منه فكريا ، ولكننا هنا نكتفى بأن نسجلها اعتمادا على قراءة بعض أعماله ، لنخلص سريعا الى نظرة أكثر تفصيلا فى مجموعته القصصية «السارق والمسروق» .

واذا كان المدخل السياسى الى فن الكاتب الادبى هو المدخل الصحيح، فيحسن أن نبدأ بقصة ذات موضوع سياسى ظاهر لنرى الى أى حد يتمثل فيها تفكيره السياسى من ناحية ، ولنحاول أن نفسر على ضوئها سائر قصص المجموعة من ناحية أخرى .

لعل هذا الوصف لاينطبق على قصة من قصص المجموعة . كماينطبق على قصة «من قتله» . صفوان الاحدب أو صفوان بك الاحدب ثرى يقيم فى قصر ذى حديقة واسعة فى حى من أحياء القاهرة ، ويقول عنه أهل الحى «انه كان يخدم الانجليز فى السودان ، وأنه اقتنى ثروة هناك»، ويقولون عنه أيضا « انه مزواج مطلاق وان حرفته الاصيلة هى البحث عن أرامل تقدم بهن السن ، يملكن مالا، ليتزوجهن ، ريثما يجردهن من مالهن وان أكثرهن مات بعد عامين أو ثلاثة من بدء حياتهن الزوجية معه» ، ويلمحون الى أن الصدفة وحدها لم

تكن المسئولة عن هـــذه الوفيـات المتعاقبات ..

هو اذن رجل بغيض لدى اهـــل الحى ، وليس سور «الفقر والغنى» هو الحائل الوحيد بينـه وبينهم ، فالرجل مع ذلك فظ غليظ القلب ، وقد انطبعت فى مخيلة راوى القصـة منذ كان طفلا ، صورة من فظـاظة صفوان الاحدب ، حين دخل الصبى الى حديقة القصر الواسعة ليلتقط كرة سقطت فيها أثناء اللعب ، ومـع أن البواب سمح له بذلك فقد شتمه صاحب القصر وانتهره ، ومـع أن الصبى خرج من حديقةالقصر يحتضن كرته فقد كان يحتضن معها شـعورا بالاهانة .

واستنتج الصبى من أحاديث أهل الحى عن صفوان الاحدب انه خائن لوطنه وقاتل خسيس . وأمدتهالايام بما زاد عداوته للرجل عمقـا . رآه يوما وهو ينتزع السوط من يد سائق عربته ليهوى به على رأس نقاش كان يعمل فى طلاء بعض حجرات البيت . ورآه مرة أخرى ـ أثناء ثورة ١٩١٩ـ يطرد جماعة من الشبان كانوا يحاولون طالبا جريحا ليخفوه فى منزله .

« ولما مات طالب الطب ، بعـد هذا الحادث بأيام ، وشيعت جنازته، كان الناس يهتفون فى هذه الجنازة ، التى تحولت كـعادة تلك الايام الى مظاهرة : ليسقط الانجليز ! وكنت أهتف وحـدى ، بينى وبين نفسى : ليسقط صفوان الاحدب ! ولما كان المتظاهرون يلوحون بأيديهم فى الهواء الموت للخونة ! كانت قبضتىتجتمع فى شدة ، وترتفع فى الهواء بعصبية، صارخا : الموت للخائن !»

هكذا تركزت عداوة بطل القصـة للمستعمرين ، فى عـداوة لفـرد ، واستحالت المعركة الاجتماعية معركة نفسية :

« واخضعت الاحـــدب لمراقبتى الشديدة ، تلذذا برؤيـة قبـائحه وسقطاته ، وكم كنت أستمتع وتطيب نفسى بكشف جانب سيىء من جوانب فظاظاته ، وسوقيته ، واعتدائه على الضعفاء ، وسبه للفقراء والخدم ، وتباهيه بعربته الفـاخرة وتلويحه بمنشاته العديدة ، داخل حديقته ، وأمام داره ..

وبدات احلام اليقظة عنـدى تتلون بلون جديد ..

« بدأت أحلم بقتـــل صـفوان الاحدب ..

ولكم رأيت نفسى أكمن فى ركن من أركان الحديقة ، حتى اذا نزلالاحدب من درج السلم أسرعت اليه بسكين أخفيه فى طيات ثيابى .. وأنهلت عليه طعنا ..

وكم تسلقت جدار منزله ، ودخلت من النافذة الى حجرة نومه لاوقظه ، ثم أستهل خنجرا فيحاول أن يصرخ ولكن الفزع يكتم صرخة فى صدره ثم أجره الى الارض وأدنى الخنجر اللامع من رقبته ، فتدور عيونه فى محاجرها، وتتعلق أنفاسه بصدره ، وأتلو عليه قائمة الاتهام : لقد خدم الانجليز فى السودان ، وجمع ثروته من حرام ، وضرب الناس وآذاهم ، وطرد الجريح الوطنى ، ثم أغمد الخنجر فى صدره، وأسمع شهقة عميقة ، وأفيق من حلمى ..

« ثم لا البث حتى ارى نفسىمتعقبا حظى الاحد.. ، فى طريق خال ، وبيدى مسدس ، ثم أقترب منه ، وبرصاصة واحدة ، فى الظهر ، لا بل فى الصدر اردية ، وفيما هو يلفظ انفاسه ، أعلن . أننى يد القانون العادلة ».

ثم أســتبعد كل هذه الاحلام ، واصفا اياها بالصبيانية ، وأفكر فى مشروعات مدروسة ، تسلمنى بدورها الى أحلامى الرهيبة .

ولكن شيئا غريبا يحدث . لقد قتل صفوان الاحدب . قتله الطاهى الذى كان يعمل عنده فاجأه بسكين فى ركن من أركان المنزل ، مثلما كان يتخيل بطل القصة .

وراح البطل يسأل نفسه : هل يمكن أن يكون هذا الطاهى شـبحا تجسدته روحى ؟ .

وأصبح همه أن يرى هذا القاتل . لم يستطع أن يراه فى أثناء التحقيق، ولم تقنعه الصور الباهتة التى نشرتها له الصحف ، فراح خياله يجسد له: « انسانا نبيلا ، سواء أكان شاحبا صـامتا معتزا ، أم كان حســاسا متدفق العاطفة ، أم كان حزينا واجما، نادما على جريمته ..»

ومضى زمن ، وكادت صورة الاحدب تختفى من مخيلة بطل القصة ، الى أن وقعت المفاجأة الاخيرة ..

لقد قدمت قضية مقتل الاحدب الى المحكمة ، وسنحت الفرصة أخيرا ليرى البطل هذا الشق الآخر من نفسه ..

واقتربت أنا مـن القفص ، حتى أصبحت على قيد خطوة من القاتل .. ونظرت طويلا الى وجهه .. فماذا رأيت ؟ .

وجه ليس فيه تعبير واحد عن أى شيء .. وامتدت اليـه يد برغيف عليها ، يقضمها ، وهـو يتلمظ ، وضعت فيه قطع من اللحم ، فأهوى وطالت وقفتى أمامه ، وهو لا يشعر بى ، ولا يلتفت الى ، الا أنه أخيرا قال لى : (وحياتك يافندى تنادى لى المرة اللى هناك) وأشـار الى الى سيدة ترتدى ملاءة لف سوداء

«ولست أدرى لماذا غلى الدم فى رأسى ، حنقا على هذا الرجل ..لقد خيب ظنى تماما ، وحطم كل ما بناه خيالى ، فهو أقرب الى الحيوانات الدنيئة منه الى البشر ، فهو لم يصل حتى الى مستوى المجرمين العتاة ، الذين ماتت الرحمة فى قلوبهم ، وبدت الفاظة فى وجوههم ، واستحالوا الى وحوش كواسر ، فاذا كان هذا القاتل تافها وحقيرا الى هذه الدرجة ، فما

الذى أغراه على ارتكاب هذه الجريمة التى داعبت خيالى ، وبدت لى أملا؟ لماذا قتل صفوان الاحدب ولم يقتل سواه ؟ أقتله ليسرق نقوده ، وليقول أكثر من مرة ، وكان لعابه يسيل على صدره : وحياة شرفك يا سعادة الباشا مظلوم .. ثم ليسد الطريق على قاتل آخر ، من الطراز الذى تصورته والذى كان جديرا ان يقف في المحكمة ان هو وقع في يد الحكومة ، ليلقى خطابا رنانا يعلن فيه سيئات صفوان الاحدب وجرائمه ... أو هل يكون المتهم بريئا فعلا ، وتكون الشبهات التى أحاطت به ظالمة ، لمجرد انه كان يعمل عند القتيل ، ولان القتيل طرده ، ولان حذاء المتهم وجد ملوثا بدم ، الى آخر هذه القرائن التى لا تخلو من مثلها جناية قتل ؟ ..

فاذا كان بريئا فمن يكون القاتل؟. أأكون أنا الذى قتلت الاحدب فى لحظة أو ساعة من الساعات التى كنت أنسي فيها نفسي لفرط استغراقى في التفكير والتدبير من أجل هذه الجريمة التى أسقطت في حياتى الحواجز بين الحقيقة والخيال ..

ونظرت من جديد الى المتهم في قفص الاتهام ، وبودى أن أقول له : لا يد لك فى هذه الجريمة ، وأنا وحدى المسئول ، قل ذلك للقضاة ، وسأعترف أنا

وأحسست بأن جبينى قد تفصد بعرق بارد ، وأن الدنيا تدور بى ، وتدور أمامى فى آن واحد ..

وهمست لنفسي وأنا أكاد ألفظ أنفاسي : هذا الانسان التافه ، الذى يقضم لقمة الخبز ، كأنه فأر يقرض شيئا ، هو أنا .. هو الانسان الذى استطاع أن ينفذ في هدوء وبغير خوف ، الجريمة التى جبنت عن ارتكابها .. انه الجانب البليد ، الذى لا يكاد يحس ، ولا يهمه رأى الناس ، ولا حكم القانون ..

وأشحت بوجهى عنه ، وأحسست بمدد مفاجىء من القوة ، فذهبت أعدو من قاعة المحكمة ..

هل تؤيد هذه القصة دعوى أن الاستاذ فتحى رضوان مفكر سياسي معبر عن أفكاره من خلال الادب ، وأن تفكيره السياسى الثورى ، يرتكز على الفرد أكثر من ارتكازه على المجموع؟ قد يبدو من هذا العرض لقصة « من قتله ؟ » أن الموضوع السياسى غير جوهرى في القصة ، وأن شعور الكره والعداوة نحو صفوان الاحدب كان يمكن أن - ينمو لأى سبب آخر غير خيانته لوطنه وتعاليه على أبناء جنسه ، لتبقى العقدة الاساسية رغم ذلك هى تفكير البطل ، الذى يمكننا أن نتصوره شابا خياليا حساسا ، في الاقدام على قتله ، والمفاجاة التى - تظهر فى النهاية حين يتم القتل فعلا ولكن على يد شخص آخر خال خلوا تاما من الخيال والحساسية ، بل من الذكاء الانسانى البسيط . وهنا أحب أن أعيد القارىء الى صدر هذا المقال ، حيث قدمت قصة «من قتله ؟» - على أنها « ذات موضوع سياسى ظاهر» . فالموضوع السياسى فى هذه القصة - قتل عدو من أعداء الشعب - يمكن أن يوصف بأنه « موضوع ظاهر » ، في حين أن جوهر القصة شيء آخر . ومع ذلك : فلماذا اختار الكاتب هذه التفاصيل السياسية الكثيرة لتنمى عداوة البطل لصفوان الاحدب ؟ ألا يدل ذلك على اهتمام أصيل بالسياسة ؟

لا نكاد نضع هذا السؤال حتى يقوم أمامنا سؤال آخر : اذا كان اهتمام الكاتب سياسيا أصيلا ، فلماذا ارتكزت العقدة على جريمة القتل التى حلم بها شخص ما ، ونفذها شخص آخر مختلف كل الاختلاف عن ذلك الحالم ؟

هنا نعثر ، ان صدق ظنى ، على تناقض أساسى فى فن فتحى رضوان ، ولعل لهذا التناقض صلة بتفكيره السياسي ، ولكننى لا أريد في هذا المجال ، أن أوسع المناقشة الى أبعد من حدود التعبير الفنى ، بل حدود هذه المجموعة القصصية بالذات .

ان التفكير السياسي - بطبيعته - يهتم بمعطيات الحياة الاجتماعية أكثر مما يهتم بالمعطيات النفسية الفردية.

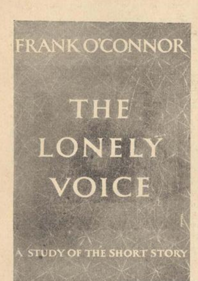
ولذلك فان مشكلة التعبير الفنى عند الفنان ذى الفكر السياسي تصبح اعقد منها عند غيره ، كما أن الالتزام السياسي يضع أمامه صعوبات فنية تفوق فى شدتها المصاعب التى يعانيها حين تكون الافكار السياسية مادة من مواد الخلق الفنى التى تدخل في عمله على غير وعى منه .

والمشكلة عند الاستاذ فتحى رضوان مضاعفة . فهو ليس مفكرا سياسيا يمارس الخلق الفنى فحسب ، ولكنه مفكر سياسي يرتكز تفكيره السياسي نفسه - وربما كان هذا هو سبب اتجاهه الى الخلق الفنى - الى تأكيد قيمة الفرد أكثر من قيمة المجموع. ولهذا يستحيل الموضوع السياسي عنده الى صراع نفسي . وفي هذا الصراع تبرز عنده فكرة « الشق الآخر » وكأنها نوع من التعويض عن غياب المجموع .

ان أبطال هذه المجموعة يعيشون في غليان نفسي . قد يستمر هذا الغليان سنين ، وقد يكون غليانا كامنا كاللابة في بطن البركان ، ولكنه ينتهى دائما الى نوع من الانفجار، لهذا، أكثر من اى موضوع سياسى ظاهر ، يمكننا أن نقول ان قصص فتحى رضوان تعبر عن تفكيره السياسي الثورى . ولكن الانفجار يتمخض عن شيء غريب : انه يتمخض عن « الشق الآخر » ، وهو أشبه بفردية موهومة ، فردية قد تكون أفضل أو أسوأ من الفردية الاولى ، ولكنها على كل حال مختلفة عنها كل الاختلاف .

هذا هو المجرى الذى تسير فيه جميع قصص هذه المجموعة ، على تفاوت بينها في مقدار البساطة أو التعقيد . وان المرء لينتهى من قراءة هذه المجموعة وهو متساءل : هل الاستاذ فتحى رضوان سياسي لم يستطع أن ينسي السياسة حين اشتغل بالخلق الفنى ، أم تراه ، آخر الامر ، فنان لم تستطيع السياسة أن تحتويه ؟

الصوت المتوحّد



دراسة فى القصة القصيرة

تأليف :
فرانك أوكونور
دار ماكميلان - لندن ١٩٦٣

عرض :
د. محمود الربيعى

من الظواهر الشائعة في المحيط الادبى ان هناك مجموعة من النقاد كانوا قد مارسوا عملية الابداع الفنى في فترة من فترات حياتهم ، ثم غلب عليهم التخصص في النقد (ولا اقول حرفة النقد) ، فانقطعوا عن عملية الخلق الفنى ، وان حاولوا استحضارها ، على اختلاف في درجات النجاح في ذلك ؛ من خلال مايقرأون. ومن الظواهر الاقل شيوعا في هذا المحيط أن بعض النقاد استطاعوا أن يستمروا فنانين مبدعين بدرجة عالية من الخصوبة ، وهذه ظاهرة ينبغى أن يسجلها الدارس بمزيد من الاهتمام ، ليرى كيف تعمل تلك الموهبة المزدوجة ، وكيف تفيد ، في جانبها الابداعى ، من النقد ، وفي جانبها النقدى ، من الابداع . وقد تجمع هذه الموهبة المزدوجة بين فن وفن . كان وليم بليك شاعرا رساما ، وقد أفاد الفن من موهبته المزدوجة تلك فائدة كبرى ، فالقت لوحاته أضواء غنية على قصائده ، كما كان العكس صحيح ، ويرى كيف تعمل ملكته كذلك شاعرا رساما ، وهو ما يزال ينتظر الدارس الذى يفسر أعماله الشعرية على ضوء لوحاته ، والعكس صحيح ويرى كيف تعمل ملكته المزدوجة في محيطى الشعر والرسم.

وصاحب الكتاب الذى اقدمه للقراء رائد من رواد القصة القصيرة في القرن العشرين ، ومن الصعب العثور على منتخب فى القصة القصيرة (على كثرة هذه المنتخبات) يخنو من عمل أو أكثر لفرانك اوكونور . وهو الى جانب ذلك ناقد نشيط ، قضى جانبا كبيرا من حياته يعلم الشباب فى الجامعة ، وخارجها ، كيف يطورون فنهم ، ويعطيهم خلاصة تجاربه الابداعية بحماس وايمان كتب من قبل كتابا في نقد الرواية

عنوانه « مرآة في الطريق » أصبح واحدا من الكتب القليلة التي ينصح بها لقراء الرواية ، وللروائيين على السواء ، وهو هنا يقدم شقيقة للدراسة السابقة في مجال القصة القصيرة .

وأول ما يلاحظه القارىء على هذا الكتاب جملة انه كتب بروح بعيدة عن روح الجو الاكاديمي المثقل بالمراجع ، والمصادر ، والاشارات ، والنظريات ، وحشد الحقائق ، أو ادعاء حشد الحقائق . ذلك الجو الذى يصل في أحيان كثيرة الى درجة الاختناق ، وحجب الرؤية . يحس القارىء أن اوكونور يتحدث أكثر مما يحاضر ، (ويدردش) أكثر مما يكتب . انه قريب جدا من تلاميذه ، ومن قرائه ، لا يصدر عن آراء الآخرين ، وانما يصدر عن آرائه الخاصة ، وتجاربه الخاصة ، وهو ، من هذه الزاوية ، فنان أصيل في نقده ، كما كان أصيلا في ابداعه .

يبدأ الكتاب بمقدمة طويلة نسبية يدير المؤلف فيها الحديث حول مجموعة من الأفكار الرئيسية التي ستردد في ثنايا الكتاب بدرجة عالية . وهو يحاول في معظم هذه الأفكار الا يقصر كلامه على القصة القصيرة ، وانما يتحدث عنها من خلال تحديد الفروق الاساسية بينها وبين بعض القوالب الفنية الاخرى ، كالفن الشعبي ، وفن المسرحية ، ولكنه يركز هذه المقارنة في أغلب الأحيان بين القصة القصيرة وبين فن قصصي آخر ، يستمد معها من نفس المنابع ، ولكنه يختلف عنها اختلافا جذريا كقالب تعبيري ، وهو فن الرواية .

يقول اوكونور ان من بين الفروق الضرورية بين القالبين أن الرواية هي « صوت المجتمع » ، أو صوت الانسان في جماعة ، ومعنى هذا أن الروائى يتعامل مع قطاع عادى كامل من المجتمع ، ينقله الى قالبه الفنى الخاص . ويترتب على ذلك أن الاحساس بالمجتمع العادى (الذى يحفل بطبيعة الحال بعديد من المتناقضات والظواهر الغريبة) لابد وأن يكون مصاحبا للروائى طول الوقت . أما القصة القصيرة فهى « الصوت المتوحد » (جعل المؤلف هذه العبارة عنوانا للكتاب كله) ، صوت الفنان الذى يجلس وحده ، يغنى أفكاره الخاصة ، ويعبر عن موقفه الخاص من المجتمع في قالب قصصى معين لهذا فان فن القصة القصيرة ، من حيث هو تجربة لا من حيث هو قالب فنى ، أقرب مايكون الى القصيدة الغنائية ، ومن أهم خصائصها هذا « الوعى الحاد بالتفرد الانسانى » .

كذلك يعتمد الروائى ، باعتباره صوت المجتمع ، على مدى جودته في تصوير الشخصيات ، ومن مقاييس هذه الجودة أن يكون القارىء للرواية قادرا على التعرف على نفسه في واحدة على الأقل من شخصياتها . وتتدرج هذه الشخصيات هرميا حتى تصل الى شخصية البطل (واضح أن المؤلف يتحدث عن الرواية في شكلها التقليدى) . وفن القصة القصيرة ، في كل تاريخها ، لم يكن لها بطل على الاطلاق . ان لها ، بدلا من ذلك ، جماعة خاصة معزولة ، لها مزاجها الخاص ، الغريب ، وهى تعانى مجموعة من الضغوط الاجتماعية ، وتسعى جاهدة الى متنفس ، أو خلاص . وليس من الضرورى أن تكون هذه الجماعة فقيرة ماديا ، مع أن الفقر المادى يشكل غالبا سمة من سماتها،فقد تكونتكون فقيرةروحيا وتختلف هذه الجماعة ، عند كتاب القصة القصيرة العظام ، من كاتب الى كاتب ، فهى جماعة الموظفين المدنيين عند جوجول ، وجماعة البغايا الى موباسان ، وجماعة الاطباء والمدرسين عند تشيكوف ، وجماعة الريفيين عند شيروود اندرسون . ويختار المؤلف لهذه الجماعات اسم « الجماعات المغمورة »

وفي مجال الاستدلال على صحة هذه النظرية يقول المؤلف اننا لو وضعنا أمامنا خريطة العالم ، ورصدنا أماكن ازدهار القصة القصيرة (وقد فعل المؤلف ذلك فعلا في المراحل الأولى من ملاحظاته قبل أن تكتمل لديه فكرة الجماعات المغمورة) للاحظنا أن أمريكا من مواطن هذا الازدهار ، وبها كثير من الجماعات المغمورة نتيجة للتعقد الاجتماعى البالغ الذى يدفع بالأفراد والجماعات الى نوع من الوحدة الملائمة لتكوين الجماعات المغمورة (جماعات الزنوج من الامثلة الجيدة على ذلك) ، وللاحظنا كذلك ازدهار القصة في روسيا القيصرية في الطرف الآخر من العالم ، وقد كان مجتمع ما قبل الثورة هناك ملائما تماما لذلك ، حيث حفل بالمتناقضات، ودفع بمجموعات كبيرة الى منطقة الجماعات المغمورة . كذلك يلاحظ أن ايرلندا ، على فقرها النسبى في مجال الرواية ، قدمت للتراث الانسانى مجموعة لا بأس بها من كتاب القصة القصيرة العظام . أما انجلترا (مهد الرواية) فانها لم تقدم شيئا ذا بال في نشأة القصة القصيرة وتطورها ، وذلك لأن المجتمع الانجليزى ، بتوازنه النسبى ، وبثقة أفراده في أنفسهم لا يتيح فرصة كبيرة ، في نظر المؤلف ، لظهور الجماعات المغمورة .

وبنفس منهج المقارنة بين قالبى الرواية والقصة القصيرة ، يحدد المؤلف الخصائص الفنية الدقيقة للقالب الآخر ، حيث يتحتم « أن تتركز حياة بأكملها ، وتزدحم ، في بضع دقائق » على العكس من الرواية . وهذا معناه أن هذه الدقائق ينبغى أن تختار بعناية فائقة : ان الرواية فن تطبيقى والقصة القصيرة فن خالص ، والمؤلف يميل ، من بينهما ، الى الفن الخالص. والفرق بين هذين القالبين ليس فرقا في الطول على الاطلاق ، وانما هو فرق في الطبيعة الفنية فوجهة النظر التى ينجح احدهما في عرضها لا يصلح الآخر لها ، وما يصلح علاجه في واحد منها لايصلح علاجه في الآخر .والطول ليس عاملا حاسما في تحديدخصائص القصة القصيرة

ان القصة القصيرة ليست قصيرة لانها صغيرة الحجم ، وانما هىصغيرة الحجم لانها عولجت علاجا معينا ،

وارتكزت على اساس معين هو اختيار المعالجة الراسية بدل الطولية للموضوع ، وتفجير طاقات الموقف الواحد بتسليط الضوء على نقط التحول فيه . ان الذى يقف على المنحنى تتاح له رؤية اتجاهى الطريق ، والذى يفجر نقط التحول فى الموقف الواحد يتاح له أن يجمع الماضى والحاضر والمستقبل فى بؤره واحدة ماثلة للعيان ، بحيث تظهر هذه الازمنة وكانها لحظات متعاصرة .

فى داخل هذه الأفكار العامة ينتقل المؤلف ، فى مقدمة الكتاب ، من القصص الامريكى ، حيث يستشهد بفن شيروود اندرسون ، وباوارز ، وسالنجر ، الى ايرالندا ، مسقط رأسه ، حيث يحلل بعض قصص ايديث سومرفيل وجورج مور ،والى روسيا ، حيث يكتب صفحات ممتعة عن ادب ليسكوف ، وتنتهى المقدمة بمناقشة القول القائل بأن الرواية ماتت ، وكذلك القصة القصيرة.ويقول المؤلف انه أكثر استعدادا للتسليم بأن الشعر والمسرح قد ماتا ، ذلك لانهما قالبان بدائيان ، أما الرواية ، والقصة القصيرة فهما تطوير جذرى لقالب فنى بدائى ئيتفق مع الحياة الحديثة بكل جوانبها . وهو لا يرى أية امكانية ، او أى سبب ، لحلول شىء آخر محلهما ، الا فى حالة واحدة هى حدوث انقلاب عام فى الثقافة ، وسيادة الفوضى .

وحين ناتى الى صلب الكتاب يزداد شعورنا بالمؤلف فنانا مبدعا أكثرمنه ناقدا محترفا ، فهو يقسم الكتاب الى أحد عشر فصلا قصيرا ، تشبه ، فى مجموعها ، احدى عشرة قصة قصيرة جميلة . يتضح ذلك فى العناوين التى يضعها لهذه الفصول ، وبعضها مأخوذ فعلا من عناوين قصص قصيرة من مثل «مكان نظيف حسن الاضاءة» لهمنجواى ويتضح بصورة أشد ، وأكثر امتاعا فى أسلوب معالجته للمادة الفنية التى اختارها للمناقشة فى هذه الفصول . ان المؤلف لا يقعد كثيرا، ولا يقنن كثيرا وهو لا يعمل على مستوى نظرى ، أو فى فراغ.انه يضع يديه ،بل يغرقهما، فى النصوص ، ويشعرك دائما بانه يعمل فى دائرة اختصاصه الضيقةالتى يعرف دروبها ومسالكها تمام المعرفة . انه ناقد متواضع ، لا ينظر الى النص من عل ، وانما يعمل دائما من خلاله. انه لا يحمل صولجانا يسيطر به . ولكنه يحمل مصباحا يضيىء به.وليس معنى هذا أنه يفسر ولايحكم ، وانما معناه فحسب أنه لايحكم الا بعد أن يفسر ، ويكون التفسير نفسه طريقه الى اقتراح الحكم .

وفى الكتاب دراسات الأدب «ترجنيف» «وموباسان» «وتشيكوف» « وكبلنج » و « جويس » و « كاترين مانسفيلد » و « اسحق بابل » و « مارى لافن »

ولقد درست أعمال هؤلاء الرواد مرة بعد مرة ، ولكن ليس معنىهذا أن كتاب فرانك اوكونور مجرددراسة اخرى تضاف الى قائمة هذه الدراسات. انه يقدم لمسة جديدة وهى لمسة شخصية فى أغلب الاحيان لفن كل واحد من هؤلاء تظهره فى ضوء جديد، وتضيف اليه بعدا،وليس هذامبالغة، لم يكن له قبل قراءة هذا الكتاب . ان المؤلف يستخدم طريقته الدقيقةفى الاختيار ، باعتباره كاتب قصةقصيرة، فى وضع يده على النقاط ذات الدلائل الغنية فى فن كل واحد من هؤلاء ، أو بعبارة أخرى يقف على منعطف الطريق لتتاح له رؤية جوانب متعددة من فن كل واحد منهم فى وقت واحد كذلك فهو يشد أبصارنا الى المحور النفسى والفنى الذى يدور عليهانتاج الفنان ، فكأننا بعد ذلك نقرأ هذا الفنان أول مرة حين نقرأه فى هذا الضوء الجديد .

ان ترجنيف يصدر عن موقفواحد متكامل ، اليه تعود كل المواقف ، وهو موقف الفنان ، الحساس ، الشاعرى ، المفكر ، الذى لا يرضى عن نفسه لكل هذه الصفات ، ويرى انه مثل هاملت الذى لم يفعل شيئا، لمدة طويلة ، سوى أنه قعد يناجى نفسه . بينما هو معجب كل الاعجاب بالناس العمليين الأقوياء ، الذين يمثلهم ، فى نظره ، كيشوت . فى قصته « خوروكالينتش » يقدم لنا الاول على أنه فظ ، وقوى ، وذكى، وعملى ، بينما كالينتش حالم، يعزف على البالاليكا ، ويقدم لنا خور على أنه لايعرف القراءةوالكتابة. ولا يرى أنه فى حاجة الى شىء يتعلمه من الكتب ، بينما كالينتش يجيد القراءة والكتابة . ومن خلال هذه النقطة ، التى يركز عليها المؤلف تركيزا بالغا ، يعرض لفن ترجنيف القصصى ، ولأعماله ذات الطول النسبى ، محددا الفروق الفكرية والفنية بين القالبين .

وموباسان ، فى نظر المؤلف ، هو أبو البغايا التعيسات ، اللائى يقدمن من التضحيات فى الواقع مالايقدمه هؤلاء الذين يقبلهم المجتمع على أنهم شرفاء ، واللائى تحفل نفوسهن بالمشاعر الدينية العميقة التى تتناقض تماما مع وظيفتهن فى المجتمع. هنا يقرر المؤلف ، بطريقة قاطعة ، وقوع موباسان تحت التأثير المباشر لفلوبير . أن عالم موباسان عالم مقبض ، والموضوعات التى يعالجها موضوعات تصل أحيانا الى حد الاقذاع ، ولكنه كان منفعلا بها ، ومن ثم تتحول على يديه ، الى قصص جميلة . لقد كان فنانا أصيلا ، وشخصية ضعيفة فى الوقت نفسه ، وكانت منابع الهامه جنسية، والجنس منبع خطر للالهام ، اذ سرعان ماتصبح القصص ، التى كانت فى أصلها احتجاجا عاطفيا على استغلال الجنس ، وامتهانه ، مجرد طريقة أخرى لاستغلاله ، وامتهانه . لكن موباسان كان مخلصا لفنه ، « وللجماعة المغمورة » التى اختارها موضوعا لذلك الفن ، وهى جماعة البغايا . وقد دعاه ذلك الاخلاص الى أن يعيش الحياة الجنسية لهذه الجماعة المغمورة فى زمنه ، ويموت موتها ، كل ذلك ليتمكن من كتابة قصتها على نحو جيد وصادق . ان الطبيب الذى اشرف على علاج موباسان فى المصحة العقلية سجل عنه العبارة التالية فى أيامه الاخيرة: « ان السيد دى موباسان يرتد الى

الحيوانية » . وهكذا يصدق الكلام القائل باننا نتفنى بالشىء حتى ننتهى الى الحلول فيه .

أما نقطة الارتكاز فى موقف تشيكوف الفنى والنفسى ، فى نظر المؤلف ، فهى انه استطاع ، وهو ابن رقيق من أرقاء الارض ، ان يعتصر من نفسه دم العبودية قطرة قطرة ، حتى أحس ، وهو يستيقظ ذات صباح ، أن الدم الذى يجرى فى عروقه دم حقيقى ، وليس دم عبد . فى هذا الفصل يعطى المؤلف عناية خاصة لأثر موباسان على تشيكوف فى مراحله الاولى ، ويحدد السنة ، التى استقل فيها تشيكوف كفنان ، بعامه السادس والعشرين ، حين استطاع أن يعمق فى نفسه الاحساس بالشقاء الانسانى . ويتضح هذا الاستقلال ، على وجه التحديد ، فى قصة كقصة «الشقاء» التى يفقد فيها سائق عربة عجوز ابناله ، ويحاول أن يشكو همه لزبائنه الاغنياء المشغولين عنه . ولما لم يمنحه أحد الوقت ، ولا المشاركة الوجدانية المطلوبة يذهب آخر الليل الى الحظيرة ليشكو الى حصانه العجوز ، أملا فى أن يجد لديه مالم يجده عند أخيه الانسان . هنا يحلل المؤلف العوامل التى حكمت تطور القالب عند تشيكوف ، وملامح فنه ، من تركيزه على الآثام الصغيرة ، باعتبار أنها هى التى تهدم الشخصية الانسانية ، وليست الآثام الكبيرة ، ومن تسلط فكرة الاحساس بالتفرد الانسانى عليه . ان تشيكوف عدو للزيف ، ومولع بكشفه ، وهو يؤمن بالحياة ايمانا وحيدا ومحزنا ، ولكنه ايمان جميل . وجماعته المغمورة التى أوصل فنه لنا من خلالها هى جماعة المثقفين الذين كانوا يعاملون بوحشية فى روسيا القيصرية كالأطباء والمدرسين .

وعندما يتقدم المؤلف لدراسة فن كبلنج يعلن حبه لبعض أعماله ، وتردده فى الوقت نفسه ، فى أن يسلكه بين الرواد من أمثال ترجنيف ، وموباسان وتشيكوف . وهو ، على الرغم من حبه له فى بعض ماكتب ، يتهمه بالزيف منذ القصة الاولى ، التى يختارها له ، وهى قصة «البستانى» . وعيب كبلنج فى نظر المؤلف ، أنه لايحتفظ بعينه مفتوحة على الموضوع الذى يعالجه ، وانما يفكر فى الجمهور ، وفى التأثير الذى يمكن أن تحدثه القصة عليه . هذا الاحساس بالجمهور ، على حساب الاحساس بالموضوع ، يورط كبلنج فى الاسلوب الخطابى الذى ينزل الى مستوى الدموع ، والضحك ، والغضب ، كما أنه يجعل قصصه أقرب الى الميلودراما الفيكتورية منها الى القصة القصيرة الحديثة . ومن العيوب الاخرى الخطيرة عند كبلنج أنه لايتحدث الى قارئه بصوت انسانى متوحد ولكنه يتحدث على أنه واحد فى مجموعة . انه عضو فى جماعة الطبقة الحاكمة فى الهند فى القرن التاسع عشر . ان كبلنج أخفق فى أن يتناول الموضوع الوحيد الذى يجب أن يتناوله كاتب القصة القصيرة ، وهو الاحساس الانسانى بالانفراد . انه لم يقل أبدا مع بسكال : « ان الصمت الابدى لهذه الآماد اللانهائية يرعبنى» .

وفى الفصل الذى يعقده المؤلف لقصص جويس القصيرة يحاول أن يجيب عن سؤال هام مؤداه لماذا توقف جويس عن كتابة القصة القصيرة بعد قصة «الميت» (ضمن مجموعة «أهل دبلن») ؟ هل كان ذلك لاحساسه بانه لم يكن كاتب قصة قصيرة ، أم كان لاحساسه بانه استنفد كل مايمكن أن يفعله فى هذا القالب بالذات ؟ . ويبدو أن المؤلف يميل الى الجزء الاول من الاجابة ، فهو يقول انه من الصعب أن نتصور قصاصا حقيقيا مثل تشيكوف يتوقف عن كتابة القصة نهائيا ، كما أنه من الصعب أن نتصور شاعرا مثل كيتس يتوقف عن الشعر الغنائى . ويستعرض المؤلف «أهل دبلن» استعراضا شبه تاريخى ليرى كيف تطورت موهبة جويس فى فن كتابة القصة القصيرة ، مركزا طول الوقت على الطاقات الغريبة التى فجرها فى اللغة ، حتى نقلها من وسيلة توصيل الى وسيلة تصوير . وأخيرا يصل بين موضوعات القصة القصيرة عند جويس ، وبين أعماله الروائية مثل «صورة الفنان فى شبابه» ، «ويوليسيس» ، مبينا أن هذا العالم ذا الموضوعات الخطرة لاصلة له بعالم القصة القصيرة الذى ينبغى أن يخلق المآسى من الاحداث الصغيرة .

ويكشف أوكونور فى الفصل التالى عن سر الاسطورة التى أحاطت بكاثرين مانسفيلد ، والتى تصورها على أنها الفنانة النارية التى تتزوج من رجل غبى محروم من قوة الخيال الخالق ، فيرى أنها أسطورة مبالغ فيها . وفى محاولة لتفسير أعمالها ، وبخاصة القصص التى تدور حول موضوع الجنس ، يذهب الى أن كاثرين مانسفيلد كانت لديها اتجاهات تدخل فى مجال «الشذوذ الجنسى» ، حيث تباهت بتجاربها الجنسية ، اعتقادا منها بان الامتياز الفكرى الذى حققه الرجال انما يعود الى الحرية التى يتمتعون بها ، دون النساء ، فى اشباع غرائزهم الجنسية . ومن هنا فهى كاتبة مصطنعة ، لم تضع قلبها فى أى من أعمالها ، وانما وضعت مكانه الافراط العاطفى . يضاف الى عنصر الاصطناع هذا عندها أنها أخفقت فى أن تتخذ لنفسها «جماعة مغمورة» ، وتلك مسألة أساسية فى فن القصة القصيرة كما سبق . لقد كانت كاثرين مانسفيلد امرأة ذكية ، وجريئة ، ومسترجلة ، ولكنها كانت على خطأ من البداية الى النهاية . وقد أدركت ذلك فى أخريات حياتها ، حين كتبت عن احدى شخصياتها تقول : « لقد عاشت ، منذ أقدم وقت يمكن أن تتذكره ، حياة هى صورة طبق الاصل للحياة المزيفة» . ويعرض المؤلف لبعض التشابه بينها وبين تشيكوف ، ولكنه يذهب الى أنها لم توفق مطلقا فى استخدام طريقة تشيكوف الفنية استخداما صحيحا . ان القصص التى تستحق الاعجاب عند كاثرين مانسفيلد هى القصص

التى كتبتها بعد موت أخيها عن حياتهما معا ، وعن طفولتهما بصفة خاصة ، حيث استطاعت أن تنفذ بطريقتها الخاصة الى عالم ماوراء الشعور نفاذا يذكرنا بما فعله بروست .

بعد هذا الفصل من النقد القاسى لفن كاثرين مانسفيلد يأتى فصل عن د. هـ. لورنس . وكنت أتصور أن يلى بعد لورنس مباشرة الفصل الذى عقده المؤلف لكوبارد ، ذلك أن بين هذين الكاتبين أرضا مشتركة يلح عليها أوكونور دائما هى انحدارهما معا من الطبقة العاملة الانجليزية ، ومحاولتهما معا التخلص من رواسب هذه الطبقة . غير أن الفصلين اللذين يتحدثان عن لورنس وكوبارد يفصل بينهما بدراسة لفن همنجواى . يقارن المؤلف فى دراسته للورنس بينه وبين كوبارد . ان الاول فنان بالفريزة يستطيع أن ينفذ الى العالم الطبيعى نفاذا لايشاركه فيه فنان آخر ، أما كوبارد فهو خجول متأن ، يقوم فنه على الملاحظة الدقيقة التى تستطيع أن تبنى منظرا طبيعيا بدقة فاحصة لايقدر عليها لورنس . ان لورنس يفقد نفسه فى المنظر الطبيعى ، أما كوبارد فانه يختزنه ليتأمله فيما بعد . ويستمر المؤلف فى تحليل فن لورنس فى القصة القصيرة ، وبحث العوامل العامة التى أثرت على فنه كتعليقه أهمية بالغة على الفريزة ، وهو فى ذلك متأثر بروسو الذى يؤمن بالرجل الطبيعى ، وكتالمه من المجتمع الطبقى ، وسعيه المتواصل للانتقام فى فنه من ذلك المجتمع عن طريق الاذلال الجنسى لافراده . وهنا يناقش المؤلف مسالة لابد أن تعرض لكل من يدرس فن د.هـ. لورنس ، وهى مسالة استخدامه للجنس . ان اوكونور يرى أن الجنس مرتبط عند لورنس ، من بعض الوجوه ، بتجربته الصوفية مع الطبيعة . وتتحقق هذه التجربة عنده بالاتصال العضوى الكامل ، وهى تمثل مرحلة تطور من عهد الطفولة ، قبل أن يتحدد الجنس تحديدا فعليا . وبهذه الطريقة وحدها يمكن أن يفسر التوهج العجيب الذى يظهر عند لورنس عندما يصور والديه اللذين يتصلان به اتصالا حتميا . كذلك يربط المؤلف بين الاتصال العضوى ، والاحساس الدينى عند لورنس ، فنحن ، من وجهة نظر لورنس ، نتقبل قذارة جارنا ، ومضايقاته ، وقسوته كما فعل السيد المسيح ، رجاء أن يغفر لنا عن هذا الطريق . ولايترك المؤلف د. هـ. لورنس قبل أن يدرس تطور الانتاج القصصى عنده . وهنا يقارن بينه وبين جويس فى التجارب اللغوية الجديدة التى ادخلها على انتاجه المتأخر ، ثم يعود الى مقارنته بكوبارد فى عدم الرضا الاجتماعى ، والحرص على الهروب من بيئته ، فيهيىء أذهاننا لكوبارد ، ولكنه ينتقل الى همنجواى . وهو فى هذا الفصل بين لورنس وكوبارد غير مبرر فى نظرى ، كما أشرت ، ولذلك فسأتحدث عن دراسة المؤلف لكوبارد أولا ، ثم أعود الى همنجواى .

كان احساس كوبارد الطبقى أشد من احساس لورنس ، وذلك لانه لم يحصل على أى قدر من التعليم . وقد مر بطفولة قاسية صورها فى بعض قصصه بنغمة رهيبة من الحزن ورثاء النفس . ومفتاح فن كوبارد ، عند المؤلف ، هو الايمان بالحرية الشخصية . ومن مميزاته الكبرى انه عرف تشيكوف وموباسان فى فترة متأخرة من حياته ، فلم يقلد طريقة أى منهما . والحق أنه لم يجعل من تقليد أى انسان هدفا له ، وانما كان هدفه الوحيد الامساك بتلابيب القارىء ، وجعله ينصت . ولذلك فهو أحيانا يذكرنا بتشيكوف ، وأحيانا بموباسان ، وأحيانا بالقصص الشعبى ، وأحيانا بالوصف الخاطف فى أدب الرحلات ، ولكنه جذاب دائما . ويمتاز فن كوبارد بالتقاط الاحداث العابرة ، التى لاتلفت نظر أحد ، وتفجيرها حتى يصنع منها شيئا ذا بال ، وهو يستفيد كذلك من الشىء الطارىء العرضى أبعد استفادة حين يحله بؤرة الاهتمام لديه . وعندما يصف أهل طبقته ، يعطى الحرية الشخصية التى نجح هو نفسه فى تحقيقها ، ادراكا جديدا ، أما حين يصف أهل الطبقة الغنية فانه يكاد يغرق فى رومانتيكية المال والجاه .

ونعود الى همنجواى لنرى أن المؤلف يبدأ الحديث عنه مؤكدا مدى تأثره بالاسلوب اللغوى الذى طوره جويس فى قصصه ، وكيف انه فاق أستاذه فى هذا المجال حين نجح فى تطبيق هذه الطريقة لا على السرد فقط ، بل على الحوار أيضا . وفى معرض التدليل على ذلك يضرب المؤلف مثلا من قصة همنجواى «تلال مثل الفيلة البيض» ، وان كان ينتقد هذا المثل لغلبة عنصر السرد عليه ، ومن ثم فان تأثيره المسرحى تأثير ضعيف . وفيما عدا ذلك ، كان همنجواى كاتبا عمليا ، ولم يكن كاتبا باحثا مثل جويس . وهو قادر على تخير آية حادثة ، مهما كانت ضئيلة ، وتحويلها الى شىء يقرأ الآن ، ومنذ ربع قرن ، باعجاب ومتعة . وتظهر قدرته هذه بصورة أوضح عندما تكون المادة جد ضئيلة ، وعندما يتحتم عليه أن يعتمد كلية على مقدرته ككاتب . لكن العيب الحقيقى فى همنجواى يكمن فى أنه كثيرا مايعتمد على فنه التكنيكى لتغطية مادة تافهة ، ويمكن أن توصف طريقته فى كثير من قصصه بانها «تكنيك يبحث عن موضوع» . والمؤلف لايوافق على أن يأخذ التكنيك زمام الامر فى القصة القصيرة حتى يتحول بها الى فن «صغير» ، وهو يرى أن أى فن حقيقى انما هو زواج بين أهمية المادة ، وطريقة المعالجة . ويعود ، مرة أخرى ، الى قصة «تلال مثل الفيلة البيض» ليقرر أن همنجواى ، فى سبيل اهتمامه بالشىء المفرد الهام الوحيد فيها ، وهو موضوع الاجهاض الذى يريده العاشق ولا تريده المعشوقة ، يهمل امداد القارىء بالاجابة عن مجموعة ضرورية من الاسئلة التى تحدد نوع رد الفعل عنده . ان الجماعة المغمورة عند

همنجواى جماعة متصلة بالترفيه أكثر مما هى متصلة بالعمل ، وهى جماعات السقاة ، ومدربى الخيول ، ومصارعى الثيران ، وما أشبه ذلك ، وحتى الحرب تؤخذ عنده على أنها تسلية وترفيه عن الطبقات الثرية التى لا عمل لها . غير أن هناك شيئا واحدا يمجده همنجواى دائما وهو الشجاعة الجسمانية . ان المؤلف ، بعد كل هذا الكلام عن أدب همنجواى يقرر فى نهاية الفصل ، أن الوقت لم يحن بعد للوصول الى آية نتائج قاطعة بالنسبة له !

ثم يبدأ المؤلف كلامه عن الكاتب الروسى بابل بمقارنته بهمنجواى فى أن كلا منهما كان رومانتيكيا عنيفا ، ولم يحدث أن حفل بالحب والرحمة والسلام . ويرد المؤلف هذا العنف الى الطفولة القاسية عند كل منهما مع اعترافه بانه لايعرف شيئا يذكر عن طفولة همنجواى !. يهتم بابل بالقالب اهتماما شديدا مثل همنجواى ولهما معا منبع مشترك فى فلوبير . وخيال بابل الجامح هو الذى ساعده كما ساعدته طفولته الذليلة المضطهدة على تصوير قطاع الطرق بكل فخر ، وبوحشية زاهية الالوان . لكن هذا التصوير أبعد مايكون عن الواقع فى نظر أوكونور ، الذى يخالف فى ذلك الناقد تريلنج كاتب مقدمة الترجمة الانجليزية لاعمال بابل . على أن المؤلف لايهتم بكون بابل رومانتيكيا أو واقعيا قدر اهتمامه بالصراع الذى عاشه بين المثالية والانطواء ، وبين المادية وشهر السلاح . هذا الصراع الذى أخصب حياة بابل الفنية ، والذى عالجه فى مجموعة من قصصه حتى انتهى عنده الى تفضيل حاسم للمادية ، وشهر السلاح . ان بابل ، فى نظر المؤلف ، كذاب عبقرى ، وقد بالغ فى وصف مظاهر العنف ، لا لانه كان يصف مارآى ، ولكن لانه كان يصف مااعتقد أنه ينبغى أن يرى . وعلى كل حال فان المؤلف يفضل قصصه المتأخر الذى يصور فيه التناقض بين الشيوعيين واليهود .

أخيرا يتحدث الكتاب عن أدب مارى لافن على وجه الخصوص ، وأدب النهضة الايرلندية على وجه العموم. ان مارى لافن لم تهتم كثيرا بالثورة الايرلندية ، وأدبها غريب على الانسان الايرلندى العادى ، من حيث أنه لايرى فيه أثرا لاسلافه ، ففى هذا القصص من طعم القصص الروسى أكثر مما فيه من طعم القصص الايرلندى . ان أفكارها مرتبطة بالافكار الاجتماعية فى العصر الفيكتورى ، ولديها حساسية دينية بالغة ككل الايرلنديين . أما طريقتها الفنية فتقترب من طريقة الروائى فى اهتمامها بالمنطق ، منطق الماضى والحاضر والمستقبل ، أكثر مما تقترب من طريقة كاتب القصة القصيرة الذى يولع بالحاضر ، ويرتفع عنه فى نفس الوقت ارتفاعا يرى منه كلا من الماضى والحاضر واضحا بنفس الدرجة .

وفى الخاتمة حديث عن بعض النصائح العملية فى فن كتابة القصة القصيرة . لابد أن يهتم الانسان بالموضوع ، ولابد لذلك من أن يسقط الموضوع الى قاع الذهن ، ولابد فى من البناء العضوى ، وهنا يعقد أوكونور مقارنة بين القصة القصيرة والمسرحية مؤكدا الروابط القوية بينهما . كذلك لابد من اطلاق السراح للخيال ، ومن التركيز ، والاستغناء عن كل ماهو غير ضرورى ، والاحتفاظ بكل ماهو ضرورى ، والحذر من الاسترسال فى الكتابة الجميلة لذاتها والتى لا علاقة لها بما يريد الكاتب أن يقول ، ثم اعادة القراءة ، واعادة الكتابة . ان الكاتب اذا لم يستطع قراءة انتاجه الخاص عشرات المرات فليس له أن يتوقع من القارىء أن يقرأه مرتين . ويعترف أوكونور بانه أعاد كتابة كثير من قصصه عشر مرات وأعاد كتابة بعضها خمسين مرة ! . وهكذا ينتهى الكتاب بعد أن رسم معالم فن القصة القصيرة من خلال التحليل الدقيق لفن مجموعة كبيرة من روادها .

ان هذا الكتاب واحد من مجموعة كتب قليلة تتناول القصة القصيرة بالدرس النظرى ، غير أنه يمتاز عنها بالبعد عن التتبع التاريخى ، والتفصيلات المرهقة عن شروط القصة القصيرة ، وخصائصها . انه أقرب الى حديث أحد محبى القصة القصيرة عنها منه الى دراسة متخصصة . وقد أحسست حين قرأته أول مرة ، ولا أزال أحس ، أن المؤلف كان قاسيا مع بعض الكتاب الذين عالجهم ، وبخاصة كبلنج وكاثرين مانسفيلد ، ولكننى لم أحس فى أية لحظة أنه كان مزيفا فى هذه الاحكام ان هذا هو مايعتقده ، وقد قدم من النصوص مايبرر رأيه ، وان كان هذا الرأى لايمكن أن يكون الكلمة الاخيرة بطبيعة الحال .

كنت أرجو الا أختتم هذا المقال بكلمة تقليدية عن مدى فائدة الكتاب للقارىء العربى ، ولكن يبدو أننى سأفعل ذلك . اننى أعتقد حقيقة أن الكتاب مفيد للقارىء العادى ، وللقارىء المتخصص ، ولكاتب القصة القصيرة . ومن الاسباب التى تزيد من اقتناعى بهذا ، علاوة على ماذكرت من قبل من أنه يقدم فى كل رائد من الرواد الذين درسهم رأيا فريدا (على كثرة ماقدم فيهم الدارسون من آراء) انه يتناول بالتحليل وبالتعريف كاتبين روسيين يخيل الى أن معرفة القارىء العربى بهما محدودة ، اذا قيست بمعرفته بترجنيف ، أو موباسان ، أو تشيكوف . هذان الكاتبان هما ليسكوف الذى تناوله فى المقدمة فأعلن أنه فنان لم يأخذ حقه خارج بلاده ، ووصل فنه بحميا الفن الشعبى ، ووضح بعض أعماله ، واسحاق بابل الذى عقد عنه فصلا سبق الحديث عنه .



قصص سكندرية .. فى المعركة

من الطبيعى أن يحرص الأدباء على مشـــاركة بلادهم فى نوائبها والاسهام فى رفع الاصر عنها .. ولكن اذا قصر فن هؤلاء الأدباء عن الارتفـاع الى مستوى الاحداث الخطيرة التى تعيشها البلاد، فمن الخير لهم ولبلادهم أن يصمتوا حتى لايزيدوا من مرارة احساسنا بالنكسة،ويكفى أن يشاركوا فى ازالة آثار العدوان بمختلف الأســاليب التى يشارك بها غيرهم من المواطنين الشرفاء العاديين، ممن لم تؤهلهم مواهبهم واستعداداتهم للتصـــدر قومهم والتعبير عن أشجانهم وآلامهم .

أقول هـذا وبين يدى كتـاب تلقيته بحب وترحيب كبيرين .. فما زال الحب هو الذى يملأ نفسى دائما نحـو الاســكندرية وكل ما يأتى من الاسكندرية .. وهذه « قصص سكندرية .. فى المعركة » كتبتهـا نخبة مختارة من أبناء مدينتى ، من الزملاء والاصدقاء ، تعبيرا عن انفعالهم بمعركتنا الاخيرة ومشاركة منهم فى معركة النصر القادمة ، فكيف لا أتلقاها بالحب والترحيب ؟!

غير أنى ماكدت أمضى فى قراءة الكتـاب حتى بـدأ الحب يختفى والحمـــاسة تفتر ، والانزعاج الشديد يسيطر على مشاعرى ، فلم أنته منه الاوفى نفسى خيبـــة أمل كبــيرة كادت تدفعنى الى تجاهل الكتــاب وعدم الاشـــارة اليه لأنه دون مستوى النقد أو التنويه ، ولكنى سرعان ماتنبهت الى مافى هذا التجاهل من تقصير فى حق الأمانة الأدبية وفى حق اخوانى أدباء الاسكندرية ، وما فى ذلك من مخالفة لتعاليم الرسول الكريم بنصرة اخواننا ظالمين كانوا أو مظلومين ، بأن نردهم ـ اذا كانوا ظالمين ـ عن ظلمهم ، والأدب الردىء الذى قدمه أدباء الاسكندرية فى هذا الكتاب يدخل فى باب الظلم الذى ينبغى ردهم عنه ..

ففى الكتاب ثلاثة عشر قصة ليس بينها سوى قصة جيدة واحدة هى قصـــة « موعـــد » لمحمـــد هريدى التى فازت بالجائزة الاولى فى مســـابقة نادى القصة فى العام الماضى ، وهى قصة عاطفية نفسية لاصلة لها بالمعركة ، اللهم الا اذا اعتبرنا الاشارة السريعة الى عمل بطلها فى السد العالى، أو اللمحة العـــابرة عن ذكريات معـــارك أهالى الاسكندرية مع جنود قوات الاحتلال الانجليزى ،

مشاركة عامة ومن بعيد فى معركة التحرر والبناء التى تعيشها، أو ينبغى أن تعيشها ، بلادنا بصفة مستمرة ٠٠ ومع ذلك فهاتان اللمحتان ليستا من العناصر الرئيسية فى القصـــة بحيث يمـكن أن تحذفا دون أن يتخلخل بناؤها أو يهتز ، بل لعله أن يزداد تماسكا وصلابة ٠

والشيء نفسه يقال عن قصص « عبد الســتاربك » للدكتور يوسف عز الدين عيسى التى تروى حادثة احتيال طريفة بأسلوب النادرة المشوقة ، وقصة « عربية » لعلى حسن حمودة التى تصـور مشهد صمود امرأة عربية فى وجه الغازى الهمجى هولاكو ، وقصة « الوليمة » لنقولا يوسف التى تصور تمرد بعض الفلاحين على ظلم أحد الاقطاعيين السابقين ، فهذه القصص الثلاث ، ومثلها قصة « موعد » ، كتبت منـذ زمن بعيد ، ولم تـكتب اســتجابة أو تعبيرا عن « المعركة » التى يحمل الكتاب عنوانها ، ومع ذلك فهى الوحيـــدة التى يمكن أن نسميها قصصا ، مع تفاوت بالطبع فى قيمتها ومستواها ٠٠ أما بقية المنشور فى الكتاب ، فمســتوحى كله من المعركة ، ومع ذلك فهو من الضـعف والخفة ، بحيث يؤكد عجـــز أدباء الاسكندرية - أو المشتركين منهم فى هذا الكتاب - عن الارتفاع الى مستوى الأحداث والتعبير الفنى عنها ٠٠ اذ يتراوح ما قدموه بين الصور الادبية السريعة ، وبين عدد من الموضوعات الانشــائية سقيمة الفكر ركيكة الاسلوب ، فى بعضها من الأخطاء النحوية والاملائية مايحاسب عليه طلاب المدارس الاعدادية بقسوة٠٠ وهاهى عينة صغيرة من هذا الصنف الأخير اقدمها بأخطائها وسقمها وبلا تعليق :

« عصفورى يا صغير الحجم ٠ أغنيتى لن تذهب هباء ٠ تعال ٠ تعال لأريك ما لا يريد أن يصدقه غيرى ٠ سحبه من بين أصابعه فلاينيه السنين ٠ خطى أمامه مترنح القامة ٠ خرج من تحت سقوف الدور ٠ جابه الخلاء وهو يلهث ٠ أشار بأصبع طوله مترين الى الفراغ المعدنى الأصفر : هم هناك سيأتون ٠ قل للرجال جميعا أن يودعوا النساء ٠ لن ترى المطر الذى طال له انتظارنا ٠ الشمس ستنس كيف كانت تدور ٠ احساس داهم بياض ذقنى بأن الوقت يقترب من الساعة ٠ عد الآن ٠ قل لهم ماقلته لك ٠ احلق رأسـك من أجل الابتهالات ٠ نحن لا نملك الا الحب ٠٠٠ »

وبعد ، فما أجعل أن يصبح للاسكندرية هيئة محلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وأن يكون بهذه الهيئة لجنة للقصـــة ، تفكر فى التجاوب مع ظروف معركتنا الأخيرة ، فتصـــدر كتابا يضم مجموعة من قصص أدباء الاسكندرية تسجل أحداث المعركة وآثارها ، ولكن أن تأتى غالبية هذه القصص على هذا المستوى من التفاهة والركاكة ، فلا شك أن هذا يسىء كثيرا الى لجنة القصة والى الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب ، بل والى الاســـكندرية كلهـا من حيث أرادت أن تحسن ٠٠

وفى اعتقادى أن هذه المجموعة القصصية لايمكن أن تقدم صورة صادقة لانتاج أدباء الاسكندرية ٠٠ فالاسكندرية التى أنجبت النـديم وبيرم التونسى وعبـــد اللطيف النشار وعثمــــان حلمى ورعت مواهب الرحمن شكرى وايليا ابى ماضى وخليل وصديق شيبوب ٠٠ وعشرات من الادباء ، الذين تعتز العربية بانتاجهم لا يمكن أن تعقم على آخر الزمن ، فلا تنجب الا هذا الغثاء المتمثـــل فى « قصص ســـكندرية ٠٠ فى المعركة » ، والذى لا يمـــكن أن يوصف بأقل من أنه تبديد لأموال الشعب فيما لا يفيد ولا ينفع ؟

